زاهي حواس

ڤيرونيك ڤيرنوي

رواية

خوفو

وذات العيون الذهبية

الدار المصرية اللبنانية

رواية

خوفو

وذات العيون الذهبية

خوفو: وذات العيون الذهبية: رواية / زاهي حواس - ڤيرونيك ڤيرنوي؛ ترجمته من الفرنسية إلى العربية نادية شامة.- ط1.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.

336 ص؛ 20 سم. تدمك: 4 - 459 - 795 - 977 - 978

1- القصص التاريخية. 2- القصص العربية.

أ - ڤيرنوي، ڤيرونيك (مؤلف مشارك)

ب - شامة، نادية (مترجم) جـ - العنوان. 813.0871

رقم الإيداع: 2970 / 2024

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2024م.

تصميم الغلاف الفنان: عبد الرحمن محمد خلف

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

زاهي حــواس   ڤيرونيك ڤيرنوي

رواية

خوفو

وذات العيون الذهبية

ترجمته من الفرنسية إلى العربية: د. نادية شامة

الدار المصرية اللبنانية

وصرخ خوفو: أما أنا، فإنني الخلود.

فيكتور هوجو- أسطورة الدهر

إنَّ معظم الشخصيات في هذه الرواية هي شخصيات حقيقية، أما الأحداث وتسلسلها وحبكتها فهي من وحي الخيال.

الفصل الأول

فليحفظه خِنُومْ!

– هل تعلم أنك ما كنت ستولد أبدًا؟ هكذا أسرَّت لي أمي «حتب–حرس»..

«منذ ولادة أخيك الأكبر قبلك بخمسة عشر عامًا لم أكن أَلِد سوى إناث، وكنت أعاني أيضًا من الإجهاض المتكرر. وقبل ولادتك مباشرةً أنجبت ذلك المولود الميت الذي اقتُلِع من أحشائي وتسبب في تدفق الدماء بغزارة من رحمي حتى عجزت أي داية عن إيقافه. ظنوا أنني مُت وتركوني، ولكني بُعثت من جديد بمعجزة. ثم وُلدتْ أختك «ميريت إت إس».. مولودة ضخمة منذ المهد. اضطرت الدايات المشرفات على الولادة إلى توسيع عنق الرحم بكماشة لتمرير رأس الرضيع. كانت ولادة عَسِرة، تألمتُ خلالها ألمًا شديدًا حتى تمنيتُ أن تكون هي آخر أبنائي، وألا ألد بعدها أبدًا. وعلاوة على ذلك كان والدك «سنفرو» قد هجر فراشي، ومع تقدمه في السن أصبح أكثر انغماسًا في ملذاته؛ فقد كان –وما زال– يقضي وقتًا كبيرًا مع محظيات الحريم، وكان هذا مصدر ارتياح بالنسبة لي، فلن أخاطر بحياتي مرة أخرى كل عام وأجلس القرفصاء على مقعد الولادة الحجري أصرخ كما الحيوان لأضع طفلًا جديدًا.

كان والدك قد عيَّن للتو شقيقك الأكبر وليًّا للعهد، وكان مثلك رياضيًّا وجسورًا لا يعرف الخوف. أراد أن يشارك في رحلة صيد فرس النهر مع فلاحي المنطقة الذين نظموا حملة للقضاء على تلك الثدييات الضخمة ذات الجلد السميك التي تدمر محاصيلهم كلما جاءت للرعي ليلًا على ضفاف النيل. كانوا يصطادونها أيضًا لأنهم يشتهون لحمها الطري اللذيذ، وكان البعض يستخلص جلودها السميكة لصناعة الصنادل والحقائب، والبعض الآخر يستحوذ على أسنانها من أجل العاج، وآخرون يستخدمون شحومها لصناعة المراهم والدهانات، فكل شيء جيد في فرس النهر كما تعلم أنت! أما شقيقك فكان يريد أن يختبر في اصطيادها نموذجًا جديدًا لحربة كان قد صمَّمها وأمر بتصنيعها في ترسانات ممفيس. وفي اليوم المحدد، ذهب وكله ثقة واعتزاز بنفسه بصحبة حرسه الخاص ومجموعة من الصيادين المحترفين. انتظروا عودة الحيوان إلى النهر في الصباح الباكر بعد أن يكون قد تملَّك منه الإنهاك وامتلأ جوفه بالطعام. كان أخوك في مقدمة المركب يصوِّب حرابه نحو جانبي فرس النهر، ولكنه تمكن من إصابته فحسب على الرغم من محاولاته المتكررة. لم تنجح رءوس الحراب في اختراق جلد فرس النهر السميك. حينئذ قفز الحيوان في مهب الريح قفزة غاضبة ومر تحت قارب أخيك البردي وقلَبَه مثلما تُطوى الصحيفة. مزَّق الوحش أخاك وفرَّ تاركًا خلفه النهر مخضبًا بدمائه وروثه».

♀

كانت تلك القصة جزءًا من أسطورة حياة أخي القصيرة. حفظتُها عن ظهرِ قلبٍ. تركتُ أمي تقصُّها عليَّ للمرة الألف، فالحَكْي يساعدها على طرد شعور الفَقد الأليم الذي لم تتعافَ منه قَطُّ. كانت تعبث بعصبية بالأساور الفضية المرصعة بأجنحة الفراشات التي أهداها إياها والدي عندما ولِدتُ، لكن ها هي الآن وقد تورمت ذراعاها لدرجة لم تمكنها من ارتداء سوى سوارين فقط في كل رُسغ، أما باقي الأساور التي كانت تزين ذراعيها إلى المرفقين في الماضي فقد تم تخزينها بعناية في صندوق من خشب الأبنوس. عندما كنت أراها وقد زاد وزنها –فقد كانت تعاني من مرض يجعلها شاحبة اللون وينقص وزنها ولا نعرف اسم هذا المرض– مُغلَّفة بسترة واسعة تشبه الحقيبة، حقيبة جميلة من الكتان الملكي، كنت أجد صعوبة في تخيلها عندما كانت امرأة شابة رشيقة ترتدي ثوبًا يُبرز مفاتن جسدها المتناغمة، وتستعرض على طول ذراعيها المشدودتين هذه المجموعة الفريدة المكونة من عشرين سوارًا ذات أحجام متناقصة. نَظَرتْ إليَّ فبدت نظراتها مجهدة بسبب ثقل جفونها على عينيها، ووجهها المحفور بالتجاعيد يوحي بأنها كانت امرأة متسلطة حارسة للتقاليد والآداب. تجنبتْ أمي سرد تلك الرواية المريعة عن محاولات لمِّ أشلاء جسد أخي الذي لم يتم قَطُّ العثور على بعض أجزائه، التي غالبًا ما سحقها وابتلعها ذلك الوحش.

استطردت أمي: كانت الثرثرة كثيرة في البلاط. قريبًا جدًّا لن أَصلُح للإنجاب. هل تدرك أنني كنت قد عزمت على تنصيب ابن محظية والدك على العرش على الرغم من كل مرات الحمل التي اضطررتُ إلى تحمُّلها؟ لكن الأمر استغرق محاولة واحدة فقط وكان الاختبار حاسمًا: تبولتُ على كيس قماش مملوء بالشعير فأنبتَ؛ مما كان يعني أنني حامل، وأنني سأنجب أميرًا، وكنت أنت ابن المعجزة!

عندما شعرت بآلام المخاض أسرعت إلى جناح الولادة الذي أقيم في الجزء السفلي من حديقتي الخاصة. صليت إلى «حدچت» –فرسة النهر أيضًا– الإلهة الحامية للنساء أثناء الوضع. لم تكن للولادة أسرار أخرى بالنسبة لي ولا بالنسبة للدايات اللائي جئن من أجلي، فكن على دراية تامة بجميع آلامها وجميع مضاعفاتها. ولكن من ناحية أخرى كانت الخادمات النوبيات الشابات مصابات بالذعر، حتى إنهن تعثرن في ترطيب الأجواء من حولي بمراوح ريش النعام الضخمة المثبتة على مقابض كبيرة تكاد تُطاولهن في القامة، وكن يحدقن في الفراغ بُغية تفادي هذا المشهد الرهيب. أجهشت إحداهن بالبكاء. لم أعد الزوجة الملكيَّة العظيمة «حتب–حرس» ذات الوجه البهيج، ولكني غدوت امرأة عارية تلهث. وضعتُ قدميَّ على حجارة الولادة التي قامت الدايات برصِّها من أجلي واتخذتُ وضع القرفصاء بينما وقفت القابلات خلفي لمساندتي. كان عليَّ أن أبقى في أقصى وضع مستقيم ممكن وكأني مُعلَّقة؛ لتسهيل عملية الوضع. وتذكرت فجأة تلك المحظية

الشابة التي قضت نحبها ليلة أمس أثناء الولادة في الحريم. إن هؤلاء الدايات هن اللواتي ساعدنها أيضًا وأسمعنَها نفس الكلام وقرأن عليها نفس العبارات السحرية، وعندما تيقنَّ أنها فارقت الحياة قمن بشق جدار بطنها لمحاولة استخراج الطفل الذي كان لا يزال على قيد الحياة. كانت مجزرة حقيقية! كان المولود ذكرًا وبدا أزرق اللون مختنقًا تمامًا. بدأت أشعر بالذعر. لم أعد أستطيع التحكم في تنفسي أو احتواء آلامي. تملكني فجأة شعور بالخوف من أن ألحق بهذه الفتاة المسكينة ذات البشرة الذهبية والضحكة المشرقة. لن تعرفوا أبدًا -أنتم يا معشر الرجال- معاناة الولادة وأهوالها! لن يمكنكم حتى تخيلها!

لم أفهم لماذا تحكي لي أمي، عشية تتويجي، مراحل ولادتها الأخيرة، تلك التي أتت بي إلى الدنيا، بكل هذه التفاصيل الدقيقة والخادشة للحياء. كانت طريقة غريبة للغاية لتضخيم أسطورتي الشخصية! ربما أرادت أن تحذرني من وهن وهشاشة طبيعتي البشرية؛ كي لا أنسى أنني سأظل دائمًا من لحمها ودمها قبل أن أكون إلهًا أبديًّا متوجًا.

- عندما أطللتَ برأسك -أكملتْ- فرشت الدايات قطعة قماش نظيفة لاستقبالك، وتجليتَ أمامنا صلب العود، شديد البكاء والصراخ، وكانت هذه إشارة جيدة. هلّت علينا عازفات وكاهنات حتحور بدفوفهن للاحتفال الطقسي بميلادك.

كانت ليلة صيفية شديدة الحرارة، وكان فيضان النيل وفيرًا في ذلك العام دون أن يكون مدمرًا، والمياه قد بدأت في الانحسار تاركة خلفها طمي النيل يخُصِّب الحقول. تلك الرائحة النفَّاذة والمُمَيَّزة التي تعرفها جيدًا تغمر جميع أراضي مصر، تلك الأرض التي يستخدمها «خَنُومْ»، إله الفخار وسيد الشلال؛ ليشكل منها البشر على عجلة الفخار؛ لذلك اخترت أن أضعك تحت حمايته. عندما حملتك بين ذراعيَّ للمرة الأولى عرفت أن مصيرك سيكون غير مألوف؛ ستصبح فرعونًا، ولكن لن تكون مجرد فرعون آخر، بل ملكًا استثنائيًّا سيظل يُذكر اسمه آلاف السنين. كانت لديك نظرة يبدو منها الإيمان بهذا العالم وليس إنكاره، وقوة خارقة عندما كنت تقبض على إبهامي بيدك الصغيرة. كنتَ شرهًا لدرجة أننا قمنا بتكليف مرضعتين لتلبية احتياجاتك ليل نهار. بعد غسلك ووضعك في اللفة، ضممتك إلى صدري وهمست في أذنك:

«خوفو»، سيكون هذا اسمك! فليحفظك الإله «خنوم».

وبدأت الكاهنات من حولي في الإنشاد:

«خوفو»..

فليحفظ اسمك «خنوم» وليحفظ..

كل مكان ستكون فيه..

كل لبن ستَرضَعه...

كل ثدي ستلقمه..

كل حِجر ستجلس فيه..

كل ثوب ستلبسه..

كل مكان ستُمضي فيه يومك..

كان والدك «سنفرو» شديد الفخر لأنه أنجب من صلبه طفلًا ذكرًا يحمل دماءنا الملكية المختلطة. لم يكف عن حمد الإله «رع» الذي سمح بهذه الولادة المعجزة. استدعى سرًّا كبير كهنة «عين شمس»؛ عمك «رع-حتب» كي يضعك تحت حماية إلهه أيضًا. صرفنا جميع الخدم ودلف عمك إلى جناح الولادة. ما زلت أذكره وكأني أراه؛ شابًّا رشيقًا ذا نظرة صافية صاحب هيئة فذَّة توحي برقي لا يضاهَى. حملك ثم رفعك إلى السماء ورتل الكلمات المقدسة:

- إنك ابن الإله «رع»، هو مَن أوجدك على الأرض. ستكون ملكًا على كل ما تشرق عليه الشمس بقوة بصيرتك وقوة كلمتك.

ستقيم العدل كل يوم.

ستحافظ على سلام القطرين وعلى ازدهارهما.

ستشيد صرحًا لن يُهدم أبدًا يلامس عنان السماء ويُخلد اسمك بين البشر لآلاف السنين.

ثم نظرت إليَّ وأضافت:

- يا بُني، أيًّا كانت الأسماء التي ستُلقب بها عند تتويجك، اعلم أنه وحده اسم «خوفو»، الاسم الذي اخترته لك، الذي سيجعلك مشهورًا!

لقد كنتُ -وفقًا لكلام أمي، ولكلام أساتذتي أيضًا؛ الذين لديهم مصداقية أكبر، حتى لو كانوا يتوقون دائمًا إلى إرضاء فرعون المستقبل- طفلًا حيويًّا وموهوبًا ولديَّ حب استطلاع لكل شيء حولي. تعلمت سريعًا القراءة بالهيروغليفية أولًا، ثم الكتابة بالهيروغليفية؛ بفضل موهبتي الفطرية في الرسم. كنت مفرط النشاط قادرًا على التعامل مع العديد من الموضوعات وحلها جميعًا في نفس الوقت. وبينما كنت أكبر، كان هدفي الأوحد هو الحصول على كل المعرفة المتاحة في عصري لكي أكون قادرًا على انتقادها، أو حتى الإضافة

إليها. درست اللاهوت وعلم الفلك والرياضيات والطب والأدب، لا شيء كان يقف أمام تفكيري أو تحليلي، وكانت ثمة منافسة بيني وبين ابن عمي «حِمْ-إيُونُو» الذي كان في نفس عمري. لم يتفوق عليَّ أبدًا إلا ربما في حل مسائل حسابات الزوايا والمنحدرات. كانت هذه نقطة قوته! وأظن أن والده، المهندس المعماري والوزير «نفِر-ماعت» قد درَّبه على هذا الأمر الذي أجاده وأتقنه تمامًا. وتشهد الآلهة على أن «حم-إيونو» بنى، بعد ذلك بكثير، عددًا كبيرًا من هذه المنحدرات في موقع المجمع الجنائزي الخاص بي من أجل نقل مواد البناء!

نما لدى ابن عمي منذ نعومة أظفارنا شعور دفين بالمرارة كوني دائمًا أتفوق عليه. كانت لديه لفافة يدون فيها بانتظام كل البرديات التي قرأها. لقد استاء وتألم عندما أشار إليه معلمنا أن القراءة دونما تفكير، من أجل فقط إشباع متعة جمع واستعراض المعرفة، عديمة الفائدة، بل وضارة مثلما تحشو جوفك بكعك العسل ظنًّا منك أنك تغذي جسدك. وكان «حم-إيونو» يعاني دائمًا من السمنة والشحوم المتراكمة في صدره؛ مما جعله مُتَدَّنًا، وتسبب ذلك له في ألم نفسي شديد؛ حيث كان كل مَن حوله يسخرون منه بشكل جارح. وهذا التشوه الجسدي كان أيضًا مصدر إعاقة بالنسبة له. وبينما كنت متفوقًا في جميع الرياضات مثل: الجري والسباحة والملاكمة وألعاب العصا والرماية؛ كان هو يتحرك بصعوبة بالغة، وكان يمقت الحياة في الهواء الطلق. لا أتذكر مطلقًا أنه رافقني للصيد في السافانا أو في المستنقعات. وكانت حُجَّته دائمًا -التي لم تكن تخلو من روح الدعابة- أن لديه ما يكفي لإطعامه في مطابخ القصر! وفي المقابل يبدو أن هذه السمنة منحته هدوءًا ورفقًا ما، فكان صبورًا ولا يغضب قط. أما أنا فكنت -على النقيض- دائم التحمس والولع خارجًا عن السيطرة مثل مياه شلالات النيل التي اقترن اسمي بها من خلال الإله «خنوم».

- صحيح -أكدت أمي- أنك كنت على قدر كبير من التهور الذي لا مثيل له، لم يكن أحد سريعًا بما يكفي لتلبية رغباتك؛ مما كان يسبب لديك نوبات من الغضب العارم، كنت فضوليًّا وشغوفًا لدرجة مَرَضية، لا تكف عن طرح أسئلة عن الحياة والموت والآلهة قلما تَرِد على ذهن أحد من البالغين. كنت أستاء عندما أعجز مرارًا عن الإجابة عن أسئلتك. حتى مُعَلِّموك لم تكن لديهم إجابات شافية، وترسخت لديهم قناعة بأنك «عبقري»، هذا مصطلح ابتدعوه من أجلك، كانوا يقولون إنك أنت من سيجد كل الإجابات عن أسئلتك. أما الأطباء فقد أجمعوا على أن طول قامتك الذي تخطى أقرانك -باستثناء «حم-إيونو»- هو دليل على بلوغ مبكر بالإضافة لذكاء غير مألوف. ولما كنتَ طفلًا مفعمًا بالنشاط والطاقة فقد نصحوني بمحاولة ضبط وتوجيه تلك الطاقة من خلال إحضار مُعلِّم موسيقى لك. والمدهش هو أنك عشقت الموسيقى، ولأنك بدأت في سن صغيرة فإنك اليوم بارع في العزف على القيثارة.

أما أبي، الذي تأثر هو الآخر بذكائي المبكر، فكان يرى في تعطشي للتعلم والاستكشاف والرغبة في الفهم

تعبيرًا عن عبقرية سياسية فطرية بداخلي. كان يؤمن أن شغفي بفهم وبإدراك العالم هو لإحكام السيطرة عليه وإخضاعه بشكل أفضل عندما يحين الوقت لاعتلاء العرش.

أما «برني-عنخو»، نميوا (القزم) الذي يرافقني، والذي أحببته أكثر من مربياتي لأنه كان يضحكني دائمًا؛ فقد أطلق على فضولي هذا صفة «التعاطف». كان يخبرني دائمًا أنه نادرًا ما يتولّد هذا التعاطف لدى زعيم مستقبلي، وأنه ليس بغريب على شخص حساس مثلي أن يهتم بشعبه حقًّا.

أعتقد اليوم أن الحقيقة كانت مزيجًا من كل هذا. كنت قد وُهِبت عند ولادتي منحة نادرة: حضورًا طاغيًا، طبعًا مرحًا، أوحي بالود، وكان لديَّ سهولة بالغة في اجتذاب الآخرين والتأثير عليهم مهما كان شأنهم؛ بفضل قوة أحاديثي، وصوتي الذي كانت محظياتي يصفنه بالرخيم. كانت لقامتي الطويلة هيبة لا تقل عن تلك التي توحي بها أحاديثي، وكنت قد تعلمت أن أبذل قصارى جهدي لأبدو وكأنني وُهِبت قوًى خارقة للطبيعة لا يمكن للبشر العاديين الوصول إليها. وقد لاحظت أن ما يهم ليس امتلاك كل هذه الصفات المزعومة، ولكن أن يكون أولئك الذين يطيعونك مقتنعين بأنك تمتلكها. لم أكن أريد أن أحكم بالقوة، ولكني أردت أن تكون سيطرتي برضاء من الجميع؛ ولهذا السبب أردت أيضًا أن أتعرف على شعبي. كنت قد اعتدت على التخفي، فأخرج حافي القدمين مرتديًا إزارًا قصيرًا لأختلط بالعامة في الأسواق أو في حانات الجِعَة. كان هذا يمكِّنني من فهم انتقاد المصريين للحكومة، وكيف يرون فرعونهم، بشكل أفضل بكثير من مجرد قراءة تقارير وزراء أبي التي كانت غالبًا لا تتناسب مع الواقع بأي حال من الأحوال. كانت رؤيتهم للمجتمع -في معظم الأحيان- تتوقف عند أسوار القصر؛ حيث لم يلتقوا إلا بالطبقة العاملة من صغار الخدم، المخلصين التابعين للملكية مقابل العمالة الكاملة والمؤنة المنتظمة. أما الأميون ورواد الحانات المخمورون، حين تَحِلُّ الخمر عقدة ألسنتهم، فإنهم سرعان ما يسخرون من ملكهم ويصورونه في رسومات فاحشة يحفرونها على طاولات الحانة الخشبية.

الجدير بالذكر أن الفرعون كان نصف بشر ونصف إله؛ وهذا مكمن تناقضه. وبناءً على هذا القول فإن المؤسسة التي سأمثلها وأجسدها هي كيان مقدس، لكنني آكل وأشرب وأمارس الجنس وأسكر وأتبول وأتغوط وأضرط، وقبل كل هذا سأموت يومًا ما. لن أحظى بالخلود إلا إذا تمكنت -مثل والدي من قبلي- من تشييد مجمع جنائزي من شأنه أن يكون بمثابة آلة دينية وسحرية ضخمة لأولَد من جديد في السماء وأتوحد مع إله الشمس «رع»، ولتحقيق ذلك يجب أن أطلب من شعبي بذل جهد هائل وإقناعه بالبناء للإله الحي وليس لإنسان. من خلال مشاركته في هذا المشروع العملاق، وفي مقابل كل حجر منحوت، وكل صخرة موضوعة؛ سوف يحصل شعبي على نصيبه من الخلود. في هذه المغامرة التي لم أبرع فيها بعد، ربما ستلتحم مصائرنا بعضها ببعض لعدة عقود.

الفصل الثاني

تعاليم الأب لولده

أن ترث السلطة هذا شيء، أما أن تمارسها فهذا شيءٌ آخر. تمنى أبي لو أني أمتلك كل الأوراق الرابحة بدءًا من شرعية قاطعة؛ لذلك أسرع في ترتيب زواجي من أختي «ميريت إت إس». كانت تجمعنا رابطة دم لا تنقطع، وهكذا سيكون أبناؤنا أيضًا. سنكرر نموذج زواج المحارم الذي بدأته الآلهة «إيزيس» و«أوزوريس» وتبعهما آباؤنا، «سنفرو» و«حتب-حرس». إن مضاجعة «ميريت إت إس» ليست ممارسة للحب؛ ولكنها واجب ملكي من أجل الإبقاء على سلالة الحكم، كما أوضح لي أبي. كان على الفراعنة إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء الذكور لضمان استمرارية نسلهم على العرش. وكانت المليكات -اللواتي كن في كثير من الأحيان أخواتهم- في المقام الأول مجرد أرحام يتم تخصيبها، في حين امتلكت بعضهن -بالإضافة لذلك- موهبة إبهاج الأجساد. في الواقع، كان الفراعنة يخففون من إجهاد أعباء مناصبهم بالانغماس في مباهج الجنس أكثر من سائر الرجال الآخرين. وفي الوقت الذي كان الفلاحون يترددون على الحانات ورجال الطبقة الوسطى لديهم عشيقة في الخفاء، كان الملوك يتمتعون داخل قصورهم بغِيد حِسان لا حصر لهن متمرسات على ملذات المضاجع. كانت العقيدة الرسمية تجعل من الفرعون مخلوقًا فوق العادة من المفترض أن يكون قد وُهِب قدرات جنسية وفحولة استثنائية. أعترف بأني كدت أصاب بدوار عندما أدركت عدد إخواني وأخواتي غير الأشقاء! كان أبي يعجز عن التعرف عليهم جميعًا أو ذكر أسمائهم. كنت أتردد بانتظام على الحريم اتباعًا لما هو متعارف عليه وأنا ما زلت وليًّا للعهد. كانت أمي تدير مؤسسة الحريم هذه بيد من حديد، وفي حين كانت تنزعج من مغامرات أبي الطائشة هناك؛ كانت تتسلى بمغامراتي؛ ولذلك قامت بإرساء قوانين صارمة لإدارة حياة الزوجات الأخريات للفرعون والمحظيات، ومن سيدات الحريم المعروفات «بالزينة الملكية» والخليلات وأبنائهن. وكثيرًا ما واجهت متاعب مع زوجات أبي الأجنبيات، اللاتي أُرسِلن رغمًا عنهن إلى البلاط المصري كهدايا دبلوماسية. كن يرفضن تعلم اللغة المصرية، ويتمردن على التقاليد الملكية، وكان هناك شك في كون بعضهن جاسوسات شديدات الخطورة. وعلى صعيد آخر، كانت أمي تسعى إلى إشغال «الزينة الملكية» بأن توكل لهن مهمات عديدة، وكانت تلك النسوة اللاتي لم يتمتعن إلا بلحظات خاطفة من إعجاب الفرعون وينتظرن -دون جدوى- أن يغشاهن من جديد هن سيدات الحريم: بنات المجتمع الراقي اللاتي وضعتهن عائلاتهن تحت أمر الفرعون. وكان مصيرهن إما الحمل بابن غير شرعي من الفرعون، وإما الزواج من شخص ذي شأن من الحاشية. ورغم ذلك كانت هناك أشياء -كالموسيقى والرقص وألعاب الطاولة والشعر والعروض- تلطف من مصيرهن داخل الحريم، ذلك

المكان الزاخر بالملذات وبالمكائد والدسائس معًا. ذاقت أمي تلك المكائد حين توفي أخي الأكبر عندما حاكت محظية أبي الرسمية مخططًا سياسيًّا وجنسيًّا كي تُنصِّب ابنهما وليًّا للعهد، وأتت ولادتي غير المتوقعة لتنقذ شرف أمي. وماتت المحظية المتغطرسة بمرض مجهول؛ حينذاك ألمحت النفوس الطيبة في البلاط إلى أن هذا الاختفاء كان مدبرًا من قِبل الزوجة الملكية العظيمة التي تعرضت للاستهزاء والتي كانت تنوي الانتقام. مجرد تخيل أن أمي مسمِّمة أو ساحرة قادرة على إلقاء تعاويذ شريرة كان يبدو دائمًا شيئًا مستحيلًا بالنسبة لي، ولكن من الصعب إخماد الشائعات عندما تكون مستقرة في الأذهان. رحبت أمي بهذا الموت الذي حدث في ظروف مثيرة للجدل؛ لأنه عزز من سلطتها الطبيعية وسطوتها، أو بعبارة أخرى من الخوف الذي كانت تثيره في النفوس. ومن المؤكد أن إدارة ذلك الماخور الملكي لم تكن لتثير حماسها، فـ«الحريم» كان أيضًا منظمة اقتصادية بما تملك من أراضٍ صالحة للزراعة، والماشية، وورش الغزل، والنسيج. كانت أمي مشغوفة بإدارة وتنظيم العمل في هذه الأملاك الزراعية الكبيرة التي حوَّلتها إلى مساحة تجريبية؛ حيث ابتكرت -بمساعدة رؤساء العمال- تقنيات جديدة للري وتهيئة الأرض لزرع الحبوب والكتان، كما قامت بتَوَسُّعات كبيرة في ورش النسيج التي تنتج أجود أنواع الأقمشة في المملكة، وعهدت أمي إلى «نفرت-إيابت» -ابنة محظية

والدي- بعمل نماذج جديدة من الرداءات والسترات والمعاطف، وكانت تأمر بزراعة أنواع جديدة من البقول وفواكه غير مألوفة في الحدائق والبساتين الملكية لاستخدامها الشخصي. كانت عاشقة للبط والإوز المشوية، عملت على تكثيف تكاثرها، وأنتجت على مستوى شبه تجاري معجون كبد الإوز الشهير الخاص بها. جاءتها فكرة مبتكرة وعبقرية لإضافة التين المسحوق إلى علف زق الطيور المصنوع من الخبز المسلوق؛ مما أعطاه مذاقًا لا مثيل له. أما أكبادها المطهوة بطريقة «وصفة الملكة» -تلك الوصفة التي كانت تحتفظ بها وشديدة الحرص عليها- فكانت لا تُقدم إلا في حفلات الاستقبال الكبيرة في القصر. هكذا كانت «حتب-حرس»، أمي، متسلطة ومتمسكة بالتقاليد، وابنة ملك، وزوجة ملك، وأم الملك القادم، حتى إنها أطلقت على الحريم اسم «مِصرها الصغرى».

الجدير بالذكر، أن وقت اقتراني بـ«ميريت إت إس» كنت أيضًا على علاقة بابنة وزير المالية، وكانت امرأة خليعة ولعوبًا، وكنت مداومًا على معاشرتها حتى إنني لجأت للتفكير فيها عندما حان وقت اجتماعي بأختي (التي أصبحت زوجتي) في الفراش. عانيت معاناة شديدة لأتظاهر برغبتي فيها؛ فوزنها الزائد، وعفتها المهانة، وتشابهنا الشديد من حيث تماثل عيوننا الحالكة السواد وشعرنا الكثيف المتموج.. كل هذا حالَ دون أن أتمتع بها. وبدلًا من حثي بكلمة أو نظرة أو لمسة، كانت علاقتي الزوجية بها واجب «مقدس» لأنها زوجتي الرئيسية والتي سوف تلد لي وليّ العرش وهذا هو حورس القوي الذي سوف يخلد اسمه واسم

أبيه.

♀

ممارسة الحب مع أخي أو «قضاء يوم جميل» كان يبدو لي مستحيلًا! كان حبُّه أمرًا سهلًا، فقد أُغرِمتُ به منذ أن وُلِدَ! حفظت عيوبه عن ظهر قلب؛ مثل كونه يغضب غضبًا عارمًا بمنتهى السهولة، ولكني حفظت أيضًا فضائله؛ مثل كرمه، وحبه لبذل الجهد وتحقيق التميز، وبحثه الدائم عن العدالة. كان رجلًا وسيمًا طويل القامة، رياضيًّا، أشدتُ بإنجازاته الرياضية آلاف المرات. فهو مثلًا لم يُلتهم حيًّا بينما كان يصطاد فرس النهر! فضلًا عن براعته في ملاحقة الأسد في الصحراء. وكان أيضًا أديبًا لامعًا يضاهي أساتذته في العلم، لم يكن بوسعي إلا أن أُعجب بهذا الفتَّان صاحب النظرة الساحرة والصوت الدافئ.

– إنني أحسدك على مثل هذا الزوج! أسرَّت «نفرت-إيابت» التي غدت وصيفتي. سيجعلك أمًّا لأطفال جميلة، وستكونين مثل الملكة «حتب-حرس» ابنة وزوجة وأم ملك! يا لهُ من قدرٍ رائع!

– للأسف أنت مخطئة.. فلن يكون «خوفو» مِلكًا لأحد أبدًا، وأخشى أنني لن أكون أبدًا على قدر الموقف الذي تصفينه.

– من الطبيعي أن تشعري بالقلق من «قضاء يوم جميل» مع أخيك، ولكن إذا كان هذا يثير حماسك؛ فاعلمي أن جميع نساء الحريم يحسدنك.

– لو كان الأمر بيدي لتركت لهن مكاني طواعية، فهن أكثر خبرة مني بكثير في أمور الفراش!

– آه! فهمت! ضحكت «نفرت-إيابت»، سأشرح لك بعض الأشياء التي ستجعلك تبدين أقل سذاجة.

لم أكن أتخيل أن «نفرت-إيابت» فطنة ووقحة إلى هذا الحد! حتى إن «قضاء يوم جميل» بدا لي فجأة أمرًا تعجيزيًّا. كنت غير قادرة على أن أمارس مع «خوفو» أيًّا من كل المتع الجنسية المثيرة التي أسمعتني وصيفتي قائمة طويلة منها حتى أرعبتني. كنت أحاول أن أشغل نفسي -قدر المستطاع- بالاهتمام بالاستعدادات للحفل وحده، بدءًا بالملابس الرائعة التي سوف أرتديها. اصطحبت معي «نفرت-إيابت» إلى ورش القصر التي كانت مألوفة بالنسبة لها؛ لزيارة النساجين. أردت أن تُحاك عباءتي الطويلة ذات الثنايات من أرقى وأجود أنواع الكتان، ذلك الذي يُعرف باسم «ضيِّ القمر»؛ فإنه يحدد القوام، ويشف مفاتن الجسد أكثر مما يخفيها. أَمَرتْ «نفرت-إيابت» بحل العديد من البَكَر، وفي كل مرة كانت تأمر بصرف المسئول عن النسيج وإحضار بَكَر آخر. كنت أثق بها ثقة عمياء لكونها تعرف جيدًا جميع أنواع النسيج. كانت هي من تُقدم آخر صيحات الملابس في البلاط؛ كطريقة ربط السترة وتطريزها بالعِقد من عدمه، وربط الحزام على الخصر أو

على الأرداف.. اختارت أخيرًا أرقَّ قطعة قماش ووضعتها حول جسدي، ونصحتني بدلًا من تطريزها أن تُحلى بشبكة رقيقة من

اللؤلؤ والفيروز، ولكن لم يكن مقاس أيٍّ منها يناسبني. عندما تمكنت أخيرًا من ارتداء إحدى هذه القطع بدت ضيقة بشكل فاضح. لم أجرؤ على التنفس خوفًا من أن تنفجر الشبكة وتتناثر كل اللآلئ. سأضطر إلى طلب واحدة مصنوعة خصيصًا على قياسي، حيث إنني -كما أوضحت «نفرت-إيابت»- ليس لديَّ من الوقت ما يكفي لاتباع حمية قاسية، فلتذهب إلى الجحيم شبكات الفيروز وأحدث صيحة! أمرت بطَيِّ الكتان على هيئة أشرطة ضيقة متلاصقة تعتم النسيج الشفاف، ويكون به ثنايات على الطراز القديم، مع استخدام شريطين عريضين من شأنهما تغطية صدري بالكامل. لم أُرِد أن أستعرض نهديَّ كما تفعل نساء الحريم، فكانا أقرب إلى الضرع من الحلمة، ولم أشعر بالراحة في تركهما مكشوفين. وافقت على ارتداء حزام عريض من اللؤلؤ مَحيط على شريط من الجلد. ولكي أكون مُتفردة؛ اعتليت صندلًا مطرزًا ومُحلًّى برسومات لزهرة اللوتس. في خزانة العطور، تشممت جميع الروائح وصممت على اختبارها بوضع بعض القطرات على جلدي. اخترت عطرًا أخَّاذًا، مثيرًا ونادرًا استُجلِب من بلاد بونت، والذي أكد لي مدير خزانة الملابس أن له قدرة على إثارة الشهوة. رافقتني «نفرت-إيابت» إلى متاجر الخزانة الملكية لانتقاء المجوهرات التي سأرتديها في الحفل. اخترت تاجًا ذهبيًّا بسيطًا غير لافت للنظر، مُزينًا برأس أفعى، كما اخترت أيضًا العقد الملائم له. أما «نفرت-إيابت» فقد تسلت على مدار ساعات طويلة بقياس الملابس الأكثر جذبًا للانتباه، لم تفارق تلك المرآة النحاسية الكبيرة التي تعكس صورتها. كان قدُّها وكأنَّه قضيبُ خيزُران، ترتدي ثوبًا جريئًا يبرز انحناءات جسدها، يكسو كتفًا واحدة فقط ويكشف كتفها الأخرى ورقبتها وعظام الترقوة. كانت ذات مظهر أنيق ورشيق مثل قِلة قليلة من الأميرات، وابتسامتها تجعل من يراها يتمنى لو يُقبِّل شفتيها. كانت عيناها ضاحكتين تدعوان للبهجة، وقدماها دقيقتين تجعلان خطوتها راقصة. ارتدت صدرية ثقيلة من الفيروز والذهب خاصة بأعياد الإلهة «حتحور»، فبدت فجأة وكأنها تجسيد للإلهة، وحجب جمالها المشرق ما سواه. كانت «نفرت-إيابت» وفيرة الدلال والأنوثة المُجَسَّدة، تمثل كل ما لن أكونه أبدًا.

لو كان في وسعي لكنت سأمحو من ذهني ذكرى ليلتي الأولى مع «خوفو»، فلم تكن كما تخيلتُها. حاولتُ أن أقوم «برقص التعري» الذي تدربت عليه مع «نفرت-إيابت» رغم شعوري بالخجل والحماقة، ولكن لم ينظر أخي إليَّ بشهوة، بل كانت نظراته تملؤها الدهشة والارتباك.

مجرد التفكير في أن «خوفو» سيظل يجتمع بتلك البلهاء «ميريت إت إس» إلى أن تحمل في أحشائها جنينًا

منه، كان يجعل الدنيا تبدو غير عادلة في نظري! كيف لرجل في مقتبل العمر، رياضي، وسيم، ذكي ومثال للأمير الساحر، أن يكون في أحضان تلك الكسول البدينة المترهلة؟! كنت أنا من يجب أن تكون مكانها! صحيح لم تكن أمي مصرية، ولكنها كانت أميرة وُلِدت في مدينة جُبيل، واحدة من أجمل وأعرق مدن بلاد الشام، أهداني والدي إلى الفرعون «سنفرو».. هدية من لحم ودم، فنحن النساء -سواء كنا بنات ملوك أو بنات فلاحين- لسنا سوى لحوم تُباع أو تُهدى للاستهلاك، قطيع بشري أفضل حالًا بقليل من حال الحمير.

أنا أيضًا أخت لـ«خوفو» ولي اسم مصري «نفرت-إيابت»! «خوفو».. كنت أتخيله فوقي تفوح منه رائحة المِسك المختلطة بعَرقهِ وهو يأخذني بقوة كمن عجز عن كبح جماح شهوته. كنت أتخيله يُسمعني كلماتٍ خليعة ووقحة تثير رغبتي ثم يعض أذني برفق ويقرص نهديَّ حتى يؤلماني فيضمني بقوة ويُداعب عنقي بلسانه. كنت أفقد السيطرة على نفسي تمامًا عندما كنت أتخيلنا معًا وكأني أغوص على مهلٍ في بحيرة شديدة العمق وجسدي يرتعد من لذة ملامسة مياهها المنعشة حتى أضرب قاعها بقدمي لأطفو سريعًا إلى السطح وأنا لاهثة ومبتهجة. كان ذلك الانغماس في اللذة هو ما أتخيل أني أفعله مع «خوفو». ولكن الأمير الشاب لم ينظر إليَّ قط؛ بل كان يتجاهلني. مما لا شك فيه أن عشاقي النبلاء الذين يحيطون به ويثنون عليه بتملقٍ فجٍّ قد أخبروه بأشياء مريعة عني، بل وربما شبَّهوني بفتيات الهوى اللاتي يتمتعون بهن في حانات ممفيس عندما لا يخشون من عدوى الأمراض القذرة. هل كان ذنبي أنني أحببت ملذات الجسد التي تُخيف تلك البلهاء؟ هذه الأشياء التي نبوح بها لبعضنا البعض على الفراش ونمارسها في الخفاء. لم تكن هناك متعة تضاهي متعة الجنس بالنسبة لي، بل إن أكثر المُكيفات تأثيرًا -مثل الموسيقى والطعام الشهي- لم تُثِرني بالقدر الذي كان يثيرني الجنس. فقد خُلِقتُ لأُثير الإعجاب على عكس الملكة الأم «حتب-حرس» القاسية والمحُبطة. أما الوقوع في الحب فهو الشيء الوحيد الذي تستطيع ابنتها الحمقاء «ميريت إت إس» أن تحلم به، أما أنا فلم يكن الحب يُمثل لي تحديًا مثيرًا للاهتمام.

لحُسن حظي كانت «ميريت إت إس» امرأةً ولودًا على وجه الخصوص، حملت منذ الشهر الأول لارتباطنا؛ مما سمح لي بتأجيل لقاءاتنا الحميمية بدعوى خوفي على الجنين الذي في أحشائها.

فقد حان الوقت لأن أهتم بما سيكون أعظم أمر في عهد ولايتي القادمة؛ ألا وهو بناء دار الخلود. يجب أن تتفوق في الحجم على تلك الخاصة بأسلافي! كما يجب أن تكون شاهدًا على الابتكار المعماري والأمني في عصري، بحيث تحبط أي محاولات للسرقة! كان والدي «سنفرو» مصابًا بالشره المرضي لكل شيء بدءًا بالطعام مرورًا بالنساء ووصولًا للأهرامات، وقد قضى أكثر من خمسين عامًا من عمره في صنع الهندسة

المعمارية التجريبية مع شقيقه ووزيره «نفر-ماعت»، فقاما ببناء أربعة أهرامات معًا قبل أن يتمكنا أخيرًا من إنشاء صرح مثالي وأملس على هضبة دهشور. فكما توجد سلالات ملكية، توجد أيضًا سلالات من الوزراء والمهندسين المعماريين العظام؛ ولذلك سيَخْلف ابن عمي «حم-إيونو» والده «نفر-ماعت». إنه قَدَرٌ مكتوب؛ ولهذا السبب كان معنا في ذلك اليوم.

أتذكر جيدًا مدى فخر أبي وهو يقدم لنا أعظم إنجازاته: ثاني هرم في موقع دهشور والذي أطلق عليه اسم «سنفرو يسطع في الشمال»، وكان أملس الجوانب تمامًا ومُغلّفًا بطبقة رقيقة من حَجر راو (طرة) الجيري الذي يعكس أشعة الشمس. كان ارتفاعه يصل إلى ما يقرب من مائة وخمسة أمتار ويلي الهرم المُنحني الذي يمكن تمييزه، جنوبًا، بشكله المختلف والمبتور. يبدو أن «نفر-ماعت» كان قد أخطأ في حساباته؛ مما أثار استياء أبي، واضطر لتغيير زاوية بناء الهرم لكي يستطيع الانتهاء منه؛ مما أدى إلى ظهوره بهذا الشكل المائل. كان «سنفرو» عنيدًا وصمم على ألا يموت قبل أن ينجح في بناء هرم مثالي، وهذا ما حدث بالفعل. راجع «نفر-ماعت» خططه الأولية وقام بتخفيض زاوية المنحدر وبناء قاعدة متينة مكونة من عدة طبقات صخرية وحدد الموقع الجديد في أقرب مكان ممكن من المحجر الذي يوفر كتل البنية التحتية الداخلية. تم استدعاء عُمَّال المملكة المتخصصين وغير المتخصصين، كما تمت مضاعفة عدد العمالة من البدو والنوبيين الذين أُسِروا في الغارات الأخيرة، كذلك وُضِعت أفضل الخطط وتم توفير أكفأ الوسائل البرية والنهرية لنقل المواد الخام والأشخاص في أسرع وقت ممكن. كان أبي قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه بعدم بناء مقبرته تحت سطح الأرض؛ ومن أجل ذلك كان قد صمم مع «نفر-ماعت» نظام غُرف بارزة ذات أربعة جوانب، مرتفعة، داخل البناء الإنشائي للهرم. كانت تشبه سُلَّمًا ضخمًا يصعد إلى السماء، وكان هذا التشكيل الحديث متماشيًا مع اللاهوت المُعد في معبد الإله «رع» في «أون» (هليوبوليس)، حيث يصبح للملك المتوفَّى مصير شمسي وآخر نجمي بعد وفاته. فكان عليه إذًا أن يصعد بجسديه إلى السماء حيث سيتحد مع «رع» إله الشمس. كان «سنفرو» و«نفر-ماعت» فخورين بأحدث ابتكاراتهما الذي هو عبارة عن نظام جديد لغلق الطرقات المؤدية للغرف الداخلية. لقد صمما سهامًا حجرية من شأنها أن تنزلق وتغلق الممرات حين يتم إغلاق الهرم نهائيًّا بعد الانتهاء من بنائه. كنا أنا و«حم-إيونو» نستمع جيدًا لكل ما يُقال ونلاحظ باهتمام كبير كل شيء حولنا، وأثناء زيارتنا كان هو يقوم أولًا بأول بتدوين الملاحظات ونقل العناصر المعمارية الأكثر براعة وابتكارًا على ألواح الحجر الجيري. كان أهم ما لفت انتباهنا هو أن الغرفة الثالثة هي الأكثر اتساعًا، لم يكن يمكن الوصول إليها إلا من خلال الغرفة الثانية عن طريق ممر ودَرَج مبني ببراعة في الجدار على ارتفاع أكثر من سبعة أمتار، وحين يُحْكَم على حجرة الدفن بالأبدية سيتم تدمير ذلك الدرَج. كان «حم-إيونو» يُدوِّن جميع الأسئلة التي ينوي طرحها على والده ومعلمه «نفر-ماعت».

كان فضولي قد بلغ مداه فسألت أبي: في أي هرم تود أن تُدفن؟

– هذا سِرٌّ بيني وبين نفسي يا «خوفو». جميع أهراماتي مستعدة لاستقبال جُثماني، ولكن كما قال القزم الذي تعشقه «برني–عنخو» في نوادره: أنا في حيرة من أمري!

هناك شرطان لا غنى عنهما لبناء مجمع جنائزي على نطاق واسع، كما أوضح لي أبي، ألا وهما السلام والازدهار في الدولة. ولتحقيق هذا الأمر قام أبي بإسناد جميع المناصب الهامة للإدارة إلى أفراد عائلتنا المباشرة، مما ضمن له تنفيذ أوامره بالحرف، ومنع محاولات التآمر. كان وزيرُه أخاه «نفر–ماعت» وقائد الجيوش أخاه غير الشقيق «رع–حتب» الذي جمع بين هذا المنصب والمنصب المرموق ككبير كهنة الإله «رع» في «هليوبوليس». ولمكافأتهما على خدماتهما سمح أبي ببناء مصطبات رائعة لهما بالقرب من هرم مِر–تِمُو (ميدوم). وكان قد أرسل لتوه في استعجال أحد أمهر نحاتيه للقيام بعمل تمثالين بالحجم الطبيعي لكلٍّ من «رع–حتب» وزوجته الجميلة «نُفرت».. عيون التمثالين المصنوعة من البلّور ستجعلهما يبدوان أحياء إلى الأبد. وهكذا كان بلاط ممفيس الرائع والخاضع لأبي «سنفرو» يتكون من عدد لا يحصى من «الأصدقاء»، فهناك «أصدقاء فريدون» وآخرون «معروفون» للملك، يتعايشون من إيرادات أملاكهم، في رفاهية مطلقة. أما في الخارج فحافظ أبي على علاقات دبلوماسية ودية مع شعب جُبيل، تلك المدينة التي كانت تمدنا بخشب الأرز وبالنبيذ الممتاز. كذلك كان الحال أيضًا مع سكان بلاد بونت الذين كانوا يمدوننا بانتظام بالراتنجات الثمينة التي كانت تُحرق للآلهة في المعابد. كان سكان بلاد إمْبُو (النوبة) خاضعين لسيطرته ويمدوننا بكميات كبيرة من الذهب. أمَّن أبي مناطق التعدين خصوصًا في بِجَاوْ–مْفْكِتْ (سيناء)، والتي كانت تنتج النحاس اللازم لمستلزمات البناء ولصناعة الأسلحة، كما كانت المصدر الرئيسي للفيروز؛ ذلك الحجر المُفضل للإلهة حتحور والمستخدم في صناعة المجوهرات والحُلي.

ارتأى أبي أن حياة الترف التي كنت أعيشها غير مناسبة تمامًا لإعداد فرعون مستقبلي؛ لذلك أرسلني مع عمي «رع–حتب» القائد العام للجيوش لأُضرَّس وأخشوشن خلال مهمة مراقبة في سيناء.

الفصل الثالث

بطل وادي المغارة

كانت «ميريت إت إس» غارقة في دموعها تمسك ببطنها المستدير أمامها جراء حملها الأول، بينما كانت «حتب-حرس» تقرع وتصيح في «حملة الصندل» وحراس خزانة الملابس الذين كانوا يجهزون أمتعتنا. أما «نُفرت» و«نفرت-إيابت» فكانتا تُزينان «الكراسي المحمولة» الخاصة بنا بأشرطة من زهور اللوتس. جاءتا لتوديعنا كما لو كنا ذاهبين إلى الحرب، كما لو أننا لن نرى بعضنا مرة أخرى، على الرغم من أن المهمة كانت بسيطة. لم يكن الأمر سوى مرافقة عسكرية للقافلة المكونة من حوالي أربعمائة حمار لتوصيل الأعلاف والمواد الغذائية والبيرة والحبوب وأغطية للتدفئة والملابس والأدوات والأسلحة إلى القوات المصرية والعمال المتمركزين بـ «بجاو-مفكت» (سيناء) في مناجم النحاس في وادي المغارة. أما في العودة فكان علينا جلب حمولة من المعادن الخام التي كانت مواقع البناء الملكية في أمسِّ الحاجة إليها. نظم القائد «رع-حتب» قواته في كتائب، فجعل جنود النخبة في جهة، والمجندين الشباب في جهة أخرى. كانوا مسلحين بالعديد من الأسلحة مثل الحراب والرماح والخناجر والفئوس والأقواس والسهام. تم اختيار الحمير الأقوى والأكثر ترويضًا لتثبيت المحامل المؤقتة الخاصة بي وبعمي «رع-حتب» فوق ظهورها، ثم امتطى كلٌّ منا ركابه. كان من المتوقع أن نقطع حوالي عشرين كيلومترًا يوميًّا على وتيرة سير الركب الذي حمل بعضه أمتعتنا، والبعض الآخر إمدادات الطعام والشراب. تم تحديد خط سيرنا لعبور الصحراء وفقًا لمناطق توافر المياه، فالحمير القوية والحمولة كانت تظمأ هي كذلك مثلنا تمامًا وكانت تستهلك أربعة لترات من المياه يوميًّا! وكان الحمَّارون ينادون عليها بأسمائها ليحمسوها أحيانًا، ويسددون لها بعض الضربات بالعصا ليزجروها أحيانًا أخرى عندما كانت تنعق أو تحك الأرض. وكانت في القافلة أتان تسعى الحمير لوطئها بشتى الطرق؛ مما كان يستدعي إلى العقول هجاء كلمة حمار التي هي عبارة عن رمز للعضو الذكري في اللغة المكتوبة.

الغريب، أنه على مدار رحلتنا الطويلة لم نلتق -ولو لمرة واحدة- بأي مخلوق، وكأن البدو جميعًا قد هلكوا! عندما وصلنا إلى المُخيم التف الجميع حولنا مبتهجين بوصول ولي العهد، الفرعون القادم. كنت الحدث الأهم على الإطلاق الذي جاء الكل لمشاهدته! لم يسبق لهم أن شاهدوا بأم أعينهم شخصية ملكية، فهم لم يعرفوا الملك إلا من خلال النقوش النمطية التي نحتوها بأنفسهم على منحدرات الحجر الرملي المحيطة بهم. منذ مئات السنين كان الفراعنة يتم تجسيدهم من خلال تلك النقوش وهم يذبحون البدو أعداءهم؛ حيث كانوا يجبرونهم على الركوع ثم يقبضون على شعورهم ويغشونهم بالهراوة. استطعت التعرف على الخرطوشة الخاصة بأبي المحفورة في الصخر، وتعرفت أيضًا على خراطيش أسلافه.

وفي هذه الأثناء خرَّ أمامي سُجَّدًا مسئولو المُخيم وجميع رجالهم سواء من عمال المناجم أو من الحُرَّاس، كانوا أكثر من سبعمائة رجل! سجدوا ليشكروني في صخب من الصلوات على مرافقة الشحنة التي كانوا ينتظرون وصولها منذ عدة شهور. كان من بينهم أيضًا البدو المحليون المنوط بمعظمهم الأعمال الخدمية الوضيعة، ولكن كان منهم أيضًا المترجمون الذين كانوا يتمتعون بمكانة أفضل والمُرشدون. كان هؤلاء جميعًا يعيشون في خيام مع زوجاتهم وأبنائهم بينما كان العمال ورؤساء العمال المصريون محكومًا عليهم بوحدة مخيفة. اختلطتُ بهم وأوضحوا لي أن المرأة البدوية معتزَّة بنفسها ومتمردة ترفض أي ارتباط برجل ليس من قبيلتها. والجدير بالذكر، إذا كان عمال المناجم على استعداد لقضاء أشهر طويلة في مخيمات توفر الحد الأدنى من ضروريات الحياة، فذلك فقط لأنهم كانوا يحتفظون مقابل ذلك (بطريقة غير شريفة) بجزء من المعادن الخام التي يستخرجونها. ولأنهم أيضًا ما زالوا يحلمون بالثراء في يوم من الأيام، وأن يمتلكوا بيتًا ويُنشئوا أسرة.

في اليوم التالي قمت بتفقُّد البنية التحتية البدائية -والمبتكرة أيضًا- التي سمحت بمعالجة المعادن الخام في الموقع نفسه، حيث تم تركيب مجموعة من الأفران تقوم بتسخين المعادن لفصل النحاس عن الحجر؛ الأمر الذي يتطلب كمية كبيرة من الوقود، وجذوع النخيل التي يتم جمعها من الواحات المحيطة. أما التبريد فكان يتم بشكل طبيعي من خلال الرياح الثلجية التي كانت تهب ليلًا. كان يتم سكب النحاس المسال في قوالب موحدة ثم يقوم جيش من الكتبة بتسجيل عدد الحقائب الجلدية المملوءة بعدد مماثل من السبائك. حينئذ قمت بعملية حسابية عقلية سريعة فوجدت أنه لا يزال بإمكاننا تحسين العائد عن طريق تركيب مجموعة أفران جديدة وإنشاء هيكل للتصنيع المسبق داخل الموقع نفسه للأجزاء ذات الأشكال المختلفة الخاصة بالأدوات وبالتسلح؛ ومن أجل ذلك سيكون من الضروري بالتأكيد زيادة عدد العمال والدورية العسكرية ليكونوا قادرين على مواجهة الغارات المفاجئة للسكان المحليين الذين كانوا دائمًا غير راضين عن سلب ثروات أرضهم من قوة أجنبية، وإن كانت تابعة للفرعون نفسه.

إن التجربة وحدها هي التي يمكن أن تصنع رجلًا؛ أو بالأحرى قائدًا. فبينما كنت مُلتحفًا بغطائي المُصنَّع من الفراء لأحتمي من صقيع ليالي سيناء الشديدة؛ فهمت لماذا أصرَّ أبي على إرسالي إلى هنا بعيدًا عن بلاط «إنِبْ-حِدِجْ» (عاصمة مصر) لأرى بعيني هؤلاء الرجال المنهكين والمذعورين؛ أولئك الذين يقومون بالمهام غير الآدمية التي تُمكِّننا نحن من تجديد المُعدات الأساسية لقطع الكُتل الحجرية من أجل بناء الصروح الملكية. أدركت أنه إذا كنا نريد تحسين إنتاجية قطاع التعدين فسيتعيَّن علينا أولًا الاعتناء بالعمال وبكل من تقوم عليهم تلك البِنية التحتية في قلب الصحراء. لا بدَّ أن نوفر لهم أفضل مناخ عمل ممكن، إضافة إلى معيشة أكثر جودة من خلال بناء بيوتٍ من الحجارة بدلًا من الخيام غير المؤمَّنة، وتوفير كميات كافية من

الطعام، وإتاحة المياه بشكل أكبر، هذا بالإضافة إلى تزويد المخيم بمصابيح زيتية للإضاءة وبأغطية للتدفئة. أليس الملك راعيًا لشعبه؟ وإذا أراد الراعي أن تعطيه أغنامه صغارًا وحليبًا، ألا ينبغي له أن يعتني بها بأكبر قدر ممكن؟ إن هذه العلاقة التبادلية، في رأيي، تُعَد تعبيرًا عن «الماعت» والعدالة والوئام الاجتماعي، الذي كان على الفرعون أن يقيمه ويحفظه على الأرض.

قبل أن أتخذ طريقي للعودة إلى ممفيس، وقفت في خشوع أمام المقصورة المنحوتة في الصخر المُقامة في المُخيم للإلهة «حتحور»، إلهة الصحاري ومناطق التعدين. شكرتها على السماح لنا بأخذ خام النحاس الذي كنا نحتاج إليه بشدة. وفي الصباح الباكر شددنا الرحال عندما انقشع الضباب، وكان الركب مُحملًا بسبائك النحاس. نصحَنا دليل من البدو المحليين كان يمتطي دابته ويضم ساقيه كما تمتطي المرأة الدابة -مما أثار قهقهة مجندينا الشباب- نصحَنا بأن نسلك ممرًّا ضيقًا سيختصر لنا الطريق ويُمكننا من الوصول في وقتٍ أقصر إلى الواحة التالية. ولكني تشاءمت عندما سمعت أننا سنمر من مكان يُطلق عليه اسم «ثغر الموت». هل كان هذا الدليل من أهل المُخيم؟ ولماذا لم يقترح هذا الطريق على الحملة السابقة؟ كان وجهه مدببًا، ذا لحية كثيفة، وكانت عيناه رمصاوَيْن لا تبوحان بشيء يُذكر. كان المَسار الجديد الذي يقترحه علينا سيوفر لنا عدة أيام، ولكني لم أطمئن لنبرة صوته. لم تكن لكنته الحادة هي ما يزعجني، ولكنها نغمة ما في صوته هي التي لم تَرُق لي. أكد لي «رع-حتب» أن الغريزة خادعة في كثير من الأحيان، وأن التفكير يتفوق على الحدس، لكنه كان هو نفسه مترددًا، رأيت ذلك في عينيه وفي وقفته. كان محقًّا في عدم ارتياحه من السير في طريق لم يسبق لأي كشاف مصري أن رصده. ولكن الدليل البدوي كان رجلًا عجوزًا يعرف جيدًا كل ركن من أركان الجبل. كان دائم التقرُّب من جنودنا في المخيم من خلال إمدادهم بالحليب والتمور، كما كان يبيع لهم أغطية صوفية سميكة بأسعار جيدة. واعتقد «رع-حتب» أنْ لن يجرؤ أبدًا أيٌّ من السكان الأصليين على مهاجمة ابن الفرعون.

كان العديد من الجنود المُسلحين بالرماح والسهام يحيطون ركبنا، وكانت حمولتنا الثمينة مُؤَمَّنة بشكلٍ جيد! لم نكن نتوقع أن الممر الذي دلفنا فيه سيتقلص إلى درجة أننا اضطررنا إلى السير في صف كل رجل يتقدم فيه حماره. أصبح من المستحيل أن يعود الركب أدراجه، وكان «رع-حتب» قد وضعني في الوسط بينما كان هو في الذيل. عندما نظرت إلى أعلى لم أرَ سوى زرقة السماء المبهرة تكشَّفت في شريط ضيق، والصخور الضخمة التي بدت متوازنة في القمة. سمعت فجأة صياحًا تبِعتْه صرخات مختلطة لرجال وحيوانات، كنا قد وقعنا في فخٍّ. من أعلى الجبل، قام البدو، المجهزون بعتلات خشبية، بدحرجة الصخور فوق رءوسنا. كنا مجرد حشرات حقيرة، سهل سحقها. كان رجالنا قد تخلوا سريعًا عن حميرهم ويحاولون التقهقر في تدافُع رهيب. هشمت الكتل الصخرية الجماجم والجثث المحطمة لجنودنا ودوابنا وأغلقت الممر تمامًا. عندئذ برز

بدو من حيث لا ندري، حاملين سكاكينهم بين أسنانهم، وأخذوا في ذبح الحمَّارين الباقين على قيد الحياة بينما استولى آخرون على الحمولة. كان لديهم من الدهاء ما جعلهم يجمعون الدواب عند مخرج الركب لإعادة إنشاء قافلة جديدة أقل عددًا من قافلتنا، ولكنها فعالة، والتي لن تستغرق الكثير من الوقت للذهاب إلى أحد مخابئهم في الجبل.

ولكن لحُسن الحظ لم يكن سوى كمين. لم يكن المهاجمون كثيرين بما يكفي لإهلاكنا جميعًا والاستيلاء على كل نحاس الفرعون. لقد اختفوا فجأة كما جاءوا، وتركونا لحيواناتنا المبقورة ولجنودنا المحتضرين والمشوهين الذين اختبَأوا تحت جثث حيواناتهم. كانت سيقان بعضهم قد سُحِقت تحت قطعة حجر عملاقة لم ننجح في زحزحتها. لن أنسى أبدًا اختلاط الصياح والصراخ والأوامر التي أعطيت في حالة من الذعر، ولا رائحة هذه المذبحة الممتزجة بالعرق والدماء.

أرسل «رع-حتب» رُسلًا إلى أقرب واحة، تلك التي كان من المفترض أن نصل إليها في وقت قياسي للحصول على المساعدة. تسلقنا -قدر استطاعتنا- الكتل المتناثرة، وجمعنا الجرحى المحتمل بقاؤهم على قيد الحياة.. لم يعد بإمكاننا إحصاء موتانا. وعندما حلَّ المساء أقمنا مخيمًا جديدًا في الواحة، وأشعلنا النيران للإنارة والتدفئة، ثم وزعنا المشروبات الساخنة والأغطية. كان شواء الماعز هو الذي رفع معنويات القوات أكثر من خطاب «رع-حتب» الذي وجدته شخصيًّا من الطراز القديم حيث هنأ فيه رجاله على رباطة جأشهم وشجاعتهم. بدا لي هذا الحشد من الجنود الخانعين الذين أكلوا حتى الشبع والذين يحمدون على نجاتهم جميع الآلهة، خصوصًا إله مسقط رأس كلٍّ منهم، أبعد ما يكون عن تعريف البطولة من وجهة نظري؛ فنهضت أخطب فيهم:

«أيها الجنود إخواني! نحن نُمثل عَظَمة مِصر، وسنظل ندافع دائمًا عن سيادتها على جميع الأراضي التي تُشرق عليها الشمس. ولكن ماذا أصاب تفانيكم وبأسكم عند مواجهة حفنة من البدو المتغطرسين الذين تجرَّءوا على الفرعون وسرقوا ما وهبته لنا الإلهة حتحور من رحِم الأرض؟ أشعر بالخجل وأنا أراكم راضين بنار الحطب وبغطاء مصنوع من فراء الماعز. لا! لم نصل بعدُ إلى حد شجاعتنا! يجب علينا أن نرد الآن ونتصدى لهؤلاء البدو الحقيرين. إذا لم تكونوا أبطالًا فأنا أطلب منكم أن تكونوا بُطوليين. أنا «خوفو» ابن «سنفرو» العظيم، أنا الحياة والقوة والصحة، أعلن الحرب على القبائل المتمردة في «بجاو-مفكت» (سيناء). آمُر بالهجوم على القلعة التي لجَأوا إليها واقتحامها. كما آمُر بالقبض على قادتهم أحياء وإعادتهم مكبلين بالأصفاد إلى ممفيس حيث سيُحاكمون بتهمة الخيانة العظمى. فليقف الآن أولئك الذين يريدون الانتقام لأخيهم أو لصديقهم الذي قُتل بوحشية، وأولئك الذين يريدون أن يكونوا في خدمة الفرعون!».

كان «رع-حتب» مستاءً من نجاح خطابي وبالتواصل العاطفي الذي أثاره مع رعيتي، فأراد استعادة هيبته

كقائد عام للقوات المسلحة من خلال إظهار الابتكار والكفاءة العسكرية. كنا قد تمركزنا عند سفح القلعة، وكان الجنود –الذين عاد الحماس إليهم من جديد– قد زوَّدوا عدد أسلحتهم وقام بعضهم بنقش اسم العدو الحقير على سهامه أملًا أن تُصِيبه وتطرحه أرضًا. تطايرت الذخيرة من جميع الجوانب دون جدوى؛ لأن جدران القلعة كانت شاهقة. كان لا بد إذًا من اختراق ذلك الباب النحاسي الثقيل، ومن أجل ذلك تجمَّع رجال مسلحون بالدروع والأقواس لمهاجمة البوابة بمدكَّات مصنوعة من جذوع النخيل، بينما رفع آخرون سلالم على طول السور للوصول إلى قمة الحصن. كانوا يلوحون بالرماح وزادت قوتهم عشرة أضعاف! كم كانوا متعطشين للانتقام! أمسكوا بالبدو من أعناقهم وغرسوا خناجرهم في أحبالهم الوريدية! كان هؤلاء هم مَن نجحوا أولًا في اقتحام القلعة عن طريق تسلق شرفاتها.

أما في الداخل فبلغت ضراوة المعركة أقصاها بين البدو وأفرادنا الذين لجأ بعضهم إلى دروعهم لسحق أعدائهم، بينما لجأ البعض الآخر إلى الفئوس لشق جماجمهم. كان جنودنا يبقرونهم ويغرسون الخناجر في قلوبهم، يضربون بأسلحتهم –دون هوادة– كل ما يقع تحت أيديهم. عندما فُتح الباب النحاسي الضخم أخيرًا دلفنا أنا و«رع–حتب» إلى الداخل. كررتُ الأمر بالقبض على القادة، وبإيقاف الرجال من غير المُصابين. كما أمرت بحبس النساء والأطفال واستيداع أجملهن في الحريم لاحقًا. أما الأقل جمالًا فسينضممن هن وذريتهن إلى الخدم. أما بالنسبة للبدو الباقين على قيد الحياة، فإنهم سيبقون في مكانهم، تحت الحراسة المُشددة، وسيشكلون قوة عاملة تحت الطلب، يمكن دمجها عند الحاجة لتعزيز أداء مواقع التعدين.

وفجأة، شَعَرت بأحدٍ يُكبِّلني من الخلف. كيف تجرأ أحدهم ووضع يده عليَّ؟! نجحت في التملُّص من قبضته باستخدام الحركات التي علمني إياها معلمي في فنون القتال. وجدتُني وجهًا لوجه أمام بدوي قصير القامة، يُمسك بسكين بين أسنانه، ويتحرك بمرونة بهلوان. استخدمت كل ما أُوتيت من قوة، وفردتُ عضلاتي مثل قطط السافانا وبأيدٍ عارية نجحت في إخضاع المعتدي بسرعة شديدة وأجبرته على الركوع بينما أنا ممسك بشعره، ثم ضربته فوق عنقه بسيفي. هلل الجنود وهتفوا باسمي! أصبحت تجسيد الفرعون والإله الحيِّ الذي يُهلك أعداء مِصر مثلما يَرونه في النقوش البارزة في الجبل.

كانت هذه المعركة مذبحة بمعنى الكلمة. كانت الجثث متناثرة على الأرض، وسط مجموعة برك من الدماء محاصرة بالذباب. وكان الجرحى يزحفون ويطلبون الرحمة، ولكن «رع–حتب» قضى عليهم جميعًا. قمنا بنزع الأعضاء الذكرية من جثث أعدائنا لتسهيل حصر عددهم بدقة، وتم ذلك أمام أعين النساء والأطفال الذين كانوا يبكون أزواجهم وآباءهم وإخوانهم.

كان بيننا العديد من الجرحى، حاولنا عمل الإسعافات الأولية اللازمة لهم من وقف النزيف بالعصابة وتطهير الجروح بدهنها بالعسل. قرر القائد «رع–حتب» أن يبقى في القلعة إلى أن يصل أطباء مُخيم وادي

المغارة للاعتناء بالجرحى. لن تعود جثث موتانا إلى أرض مِصر تحقيقًا لوصيتهم الأخيرة. قمنا بالاستيلاء على جميع مخزون القلعة من الحبوب والماء والطعام والحيوانات، وقمنا بضرب زعماء البدو بالهراوات وتكبيل أيديهم وأرجلهم بالأصفاد فظلوا متكورين على الأرض. أما نساؤهم وبناتهم فأصبحن سبايا لجنودنا.

لاحَ طريق العودة قصيرًا لشدة ما كنا نَتوق للوصول إلى «إِنبْ-حِدِجْ» وتَتوق الحمير للعودة إلى حظائرها وعلفها. كنا نجر خلفنا قادة القبائل المنهكين من السير على الأقدام طوال النهار بدون طعام. لم نكن نسقيهم من الماء سوى ما يبقيهم على قيد الحياة.. كان عذابهم قد بدأ. لن يضطر القُضاة إلى المُداولة طويلًا عندما نصل، فقد كان البدو مُذنبين لشروعهم في قتل الأمير وليِّ العهد ولتآمرهم على سيدهم وملكهم الفرعون، كانوا مُذنبين لسرقتهم التاج. سيتم فرض الحكم تلقائيًّا والذي هو الإعدام بالخازوق، عقوبة جريمة الخيانة العظمى.

كنت فخورًا بعودتي إلى القصر وقد أصبحت بطلًا. أسرعت الخُطى نحو أبي لأتلقى تهانيه، فقد كنت قائدًا قادرًا على اتخاذ مبادرات طيبة، وقادرًا على إشعال الحماس وإقناع الجنود؛ ومن ثَمَّ ستصبح خلافتي لأبي مضمونة بشكل مؤكد، ألم تهنا «ميريت إت إس» أميرًا صغيرًا؟

استقبلني «سنفرو» على انفراد، وبدا نادمًا وتحدث معي بجِدة. نعَتَني بأكثر الصفات المُهينة وسبَّني. قال إني كنت متهورًا وجاحدًا.. قال إني قد أسأت إلى الآلهة بعدم حمدها على النصر الذي حققناه في سيناء.. أسأت لـ«رع» و«خنوم» آلهتي الحامية، ولجميع الآلهة التي تحمي مصالح مِصر. قال إنني فشلت في كبح جماح ثورتي وبدون تفكير أسأت لعمي وقائد عام الجيوش «رع-حتب» أمام قواته عندما قررت أن أحل محله! لماذا كل هذا الغرور الذي يتعارض مع نظام الماعت؟ كان من الأفضل والأكثر احترامًا لو أنني فكرت مع عمي في الحلول المتاحة للانتقام من البدو وتركت له إدارة العمليات والمناورات. قال لي أبي إنني لست سوى شخص مُختال ووقح وإنه كان لا يزال عليَّ أن أتعلم كل شيء من جديد بداية من الاعتذار لـ«رع-حتب» أولًا.

خرجت من هذه المقابلة ثائرًا. سرعان ما دلفت إلى فراش «ميريت إت إس» بعد تعفف وامتناع إجباري أثناء إقامتي في سيناء. أخطأت مجددًا.. فلقد أساءت أختي فهم انجذابي هذا، والذي ما زلت لا أشعر به تجاهها، فزاد عشقها لي أضعافًا مضاعفة.

أُقِيمت منصة المراسم المخصصة للأسرة المالكة والحاشية في الساحة الرئيسية، وتم وضع حواجز خشبية في مواجهتها للسيطرة على تدفق الحشود الغفيرة التي ستحضر لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام الذي يُعد طقسًا أكثر منه عقابًا، كان بمثابة احتفال بانتصار ماعت، انتصار العدالة والوئام ضد قوى الشر «إسيفت»، التي

جسدها أعداء مِصر. وكان الغرض من هذه المراسم أيضًا ترويع الحضور الذي تمت دعوته لمشاهدة تنفيذ الحكم، سواء كانوا من النبلاء أو من العامة، حيث كانوا مضطربين ويهمهمون خلف الحواجز التي حالت دون تقدمهم. كانت وسيلة فعالة لتثبيط أي شخص سولت له نفسه إيذاء الفرعون، أو تعريض حياته أو حياة أحد أفراد عائلته للخطر.

جلست في الصف الأمامي متوجًا بمجد انتصارنا في «بجاو-مفكت» (سيناء). كنت جالسًا بجوار كلٍّ من أبي وعمي، القائد «رع-حتب» الذي غفر لي غطرستي، ورؤساء القضاة. هتف الحشد المبتهج باسمي؛ فقد كنت بطله الوسيم الذي لا يقهر. كانت أمي بجواري أيضًا، ولكنها كانت قلقة، تترقب وصول «ميريت إت إس» التي اختفت فجأة. كانت «نفرت-إيابت» تجلس معنا في المقصورة الملكية بصفتها وصيفة زوجتي. باغتُّها تلتهمني بنظراتها، ولا أعلم ما الذي جعلني أبادلها -خفيةً- ابتسامة. كانت الحاشية تجلس خلفنا، الرجال بعيونهم القاسية وزوجاتهم يحركن الهواء الثقيل من حولهن بمراوح يمسكن بها في أيديهن ويستنشقن روائح نفاذة ليقاومن الإغماء.

لقد جاء سكان إنِبْ-حِدجْ والمناطق المجاورة لها ليشهدوا قتل أعداء مصر. حضر الرجال والنساء والأطفال والفلاحون وأصحاب المتاجر والخدم والحرفيون، وكانوا يصرخون بكراهيتهم في هذيان جماعي.

ساق الحُراس السجناء مُكبلي الأيدي والأقدام، هزيلين لدرجة جعلت أضلاعهم وعظام الترقوة بارزة بشدة. كان شحوب وجوههم بيِّنًا من وراء لحاهم الكثيفة القذرة، وكانت نظراتهم شاخصة كما الأموات. واحد منهم فقط كان لا يزال يتمتع ببعض القوة للوقوف والمضي قدمًا مثل الرجل. كانت قامته عالية بشكلٍ لافت، واحتفظ بكرامته عند ارتداء الجراب القضيبي. عندما مرَّ من أمام المنصة الرئيسية، توقف وبصق على الأرض ثم رفع رأسه إلى السماء باتجاه الشمس، وبلُغته التي لم نفهمها، أخذ يصُب اللعنات. وعلى الرغم من أن حارسه ظلَّ يضربه بالعِصي، فإنه استمرَّ في ترديد لعناته بأعلى صوت ممكن حتى طرحه الجلاد أرضًا بأن سدَّد له لكمة في أسفل البطن، ثم قام بشق عَجُزه بواسطة سكين وأدخل فيه الخازوق وأحكم إدخاله عن طريق طَرقه بالمطرقة، ثم جعل الرجل ينهض بمساعدة جلادين آخرين ووضعه، هو وخازوقه، في حفرة قد أُعدت خصيصًا لهذا الغرض. كان صفيق الحشد -غير العابئ بالألم- أعلى من صرخات الرجل.

كانت الجموع تسُب بشراسة باقي البدو الذين كانوا يلتمسون العفو من أبي «سنفرو». كان هؤلاء مبعوثي (الفوضى)، مبعوثي «إسيفت»، وكان لا بد من إبادتهم! أمر والدي بإيماءة باستمرار تنفيذ الإعدام الذي تم بعنف لا يُصدق. كان المدانون -الذين اصطفوا وما زالوا على قيد الحياة- عالقين على خوازيق مثبتة في الأرض مخترقة أجسامهم لتخرج من حُلُوقهم أو أفواههم. كان الحشد يمر أمام هؤلاء المساكين، فتقيأت بعض النساء في اشمئزاز عند أقدامهم، بينما حاول الأطفال تقليد تعبيرات وجوههم المشوهة بالألم وحاكَوْا

بسخرية أنينهم الفظيع. أما بعض المتفرجين فظلوا وكأن على رءوسهم الطير طوال فترة تعذيب المذنبين، وقفوا مشدوهين في حالة من الرعب. أدركت في ذلك اليوم مدى خطورة الحشود إذا لم تتم السيطرة عليها، وأنهم وحدهم يستطيعون إعلاء مجد الفرعون إلى القمة إذا كان قادرًا على إبهارهم وإرهابهم في آنٍ واحد.

♀

خلال الأشهر القليلة الماضية كنت أعيش في قلق مؤلم قوَّض أيامي ولياليَّ، ماذا لو لم يعد «خوفو» من سيناء هذه التي بدت لي على الجانب الآخر من العالم؟ ماذا لو لدغه عقرب أو «أفعى مقرَّنة»؟ عندما حمل الرسل الملكيون خبر حصار القلعة البدوية شعرت بذعر شديد. لم يحارب «خوفو» قط؛ بل كان استخدام الأسلحة بالنسبة له مجرد لعبة ورياضة! ماذا يعرف هو عن قسوة البدو؟ أو عن سرعتهم في الاعتداء على العدو؟ أو حتى عن مكرهم الأسطوري؟ لماذا لم يرسل لي قط رسالة خاصة تحمل اسمي؟ بضع كلمات رقيقة من شأنها أن تطمئنني؟

إذا لم يعد «خوفو» فسيجبرني والدنا على الزواج من أحد إخواننا غير الأشقاء، أحد هؤلاء الطموحين المتغطرسين المُتطلعين إلى العرش، الذين يعُجُّ بهم البلاط. مجرد التفكير في أني قد أُجبر على الزواج والارتباط برجل لا أكنُّ له أي مشاعر، بل قد يُثير اشمئزازي، كان يجعلني أشعر أن الأرض تنهار تحت قدميَّ. ولكن قدوم صغيري «كاوبي» إلى الدنيا محا هذه الأفكار السوداء بطريقة سحرية من رأسي. كنت قد أنجبت وليًّا للعهد فاحتفى الكل بي وكنت قد نجوت. أقنعتني أمي أنه في حالة حدوث مكروه سأكون أنا الوصية على العرش حتى يبلغ ابني العمر المُحدد لتوليه الحكم، قالت لي إنه يمكنني الاعتماد عليها وعلى خبرة الوزراء ذوي الخبرة في البلاط. كم كنت أبدو حمقاء وخائفة وأنا أهذي وأردد بلا تفكير أن أبي «سنفرو» لا يزال الفرعون وأن زوجي «خوفو» على قيد الحياة وبخير!

أولى زياراته كبطل منتصر كانت من نصيبي. حملني بين ذراعيه لفترة طويلة لدرجة أنني شعرت برغبته، فالرجال لا تقوى على البقاء دون ممارسة الجنس طويلًا. كنت قد فطنت لما ينبغي عليَّ القيام به وقمت بواجبي الزوجي مع بعض التحرر الذي لا يكاد يشبهني. ولكن هذه المرة أيضًا لم أشعر بتلك الموجة التي كان ينبغي أن تأخذني إلى هذا العالم الآخر الذي حدثتني عنه «نفرت-إيابت». وما إن فرغ «خوفو» من اقتحام حصني، حتى استدعى ابننا. انتزعه من حضن مربيته ثم نطق باسمه وهو يرفعه إلى السماء وقبَّله لأول مرة بعد أن أصبح أبًا. تعالت الهتافات الحماسية للحشود التي جاءت لتشهد تنفيذ الإعدام في أعداء مِصر. ذهب «خوفو» ليرتدي ملابسه الاحتفالية وينضم إلى المسئولين؛ للأمر بإعدام البدو الخونة. تحججتُ بإصابتي بصداع نصفي لتبرير غيابي عن هذا الاحتفال. كيف يمكن لشعب بأكمله -بما في ذلك النساء

والأطفال- أن ينبهر بالقتل الوحشي لبشر آخرين، بل ويبتهج به؟! مهما كانت التهمة المُوجهة، لا يمكنني أن أتواطأ في هذا الأمر الشنيع. لم أكن أريد أن أدنس عقلي بصور فظيعة لن أستطيع التخلص منها أبدًا. كنت أجد عدالتنا همجية على الرغم من زعمنا أننا أكثر شعوب العالم تحضرًا ورُقيًّا. كانت الخَوْزقة عقوبة قاسية ومثيرة للاشمئزاز بقدر ما كان تجويع هؤلاء الرجال منذ القبض عليهم. كيف يمكن للمرء أن يعذب ثم يقتل بشرًا بهذه الوحشية ثم يدَّعي الوئام والسلام؟! أحقًّا هكذا كنا نُرضي ماعت، إلهة العدل؟!

لم أكن أرغب في أن يكبر ابني في ذلك العالم.

الفصل الرابع

استراحة محارب

أراد أبي أن يُروِّض كبريائي، فتوقف عن إشراكي في شئون البلاد، ولم يعد يسمح لي بالجلوس إلى جواره في مجلس الوزراء، كما توقف عن نقل خبراته وعلومه السياسية لي، تلك التي اكتسبها على مدار نصف قرن من الحُكم. وهكذا تمت إعادتي إلى حياة الحاشية الرخوة.. استعدت شغفي بالقيثارة، وقمت بتأليف مقطوعات مبهجة، وشاركت في ألعاب الطاولة التي بدأتها أمي وتفوقت في بطولات «السينيت» التي ابتدعتها. كنا أنا و«ميريت إت إس» موجودَيْن دائمًا في جميع المآدب والرقصات والحفلات الدينية، ولكن الاحتفالات المُفضَّلة لدينا كانت تلك الخاصة بالإلهة «حَتْحُورْ»، سيدة الجميز، إلهة الحب والموسيقى والفرح؛ إذ كانت «ميريت إت إس» تعشق الزينة والأجواء الرومانسية لاحتفالاتها، خصوصًا بعد أن حملت مُجددًا؛ فكان مشهد التلاقي من جديد بشكل رمزي على النيل داخل أجمات البردي وحفيف عيدانه، وقوارب الإله «رع» وقرينته «حتحور» تُدمعها من شدة التأثر. كنا، أنا وبعض رجال الحاشية الآخرين نُحب الانضمام إلى الحشد المخمور الذي كان يحتسي الجعة كما يشاء، ويتسلى بالانخراط في علاقات حسية عابرة جوفاء.

لتمضية الوقت، حاولت أن أمارس فن «التحدث بدون تحريك الشفاه» أو «التكلم من البطن»، بمساعدة «برني-عنخو»، قزمي المُهرج، ولكني فشلت. كان ذلك الأخير قد قدَّم فقرة لا تُقاوم بصحبة قردٍ، أقصر منه طولًا، يرتدي ملابس، وكان يبدو موهوبًا جدًّا في الكلام حتى إنه أصبح تميمة الحاشية، على الرغم من إساءته للعديد من رجالها عن طريق تقليدهم بسخرية. لم يكن «برني-عنخو» مهذبًا، فمنذ أن أهداه والدي -على سبيل السخرية- صولجانًا مُصغرًا اعتقد أن كل شيء مباح.

كنت مفتونًا بنفس القدر بعروض «چِدِي» الذي لم يكن ساحرًا فحسب؛ بل كان يُجيد فن الخداع البصري، وكان يتلاعب بحواسنا، خصوصًا ببصرنا الذي -على عكس ما نعتقد- من السهل جدًّا خداعه. كان يجعلنا نرى ما هو غير حقيقي أو ينجح في تحقيق شيء ضخم أمامنا لم نكن نراه. كان يخُرج حمامًا من الأوشحة، ويستخرج حلقات نحاسية متشابكة الواحدة داخل الأخرى بمجرد النفخ فيها.. كان يجعل الكرات الجلدية تختفي تحت أكواب المرمر أو يجد خاتمك في حزام متفرج لم يفهم أي شيء مما يحدث. إنه حتى كان يقرأ أفكارنا! كنت معجبًا بعروضه، بألعاب الضوء والظل التي يقوم بها، ببراعته، ولكن أيضًا بثرثرته الصفيقة، بظهوره فجأة واختفائه فجأة.

كنت أقضي الكثير من الوقت في المكتبة أقرأ الكتب العصرية المسماة بـ«الحِكم» التي تُقدم جميعها نفس

النصائح الحياتية مثل تأسيس عائلة، وإعداد مقبرة، والاهتمام بإقامة المراسم الجنائزية للأبوين، والحذر من النساء بشكل عام، واحترام النظام المعمول به، وطاعة الوالد. يجب أن أعترف بأنني لم أتقبل كل هذه النصوص النمطية.

لم أكن تافهًا ولا سطحيًّا كي أكتفي برفه حياة البلاط؛ بل على العكس كنت قد سئمت الفجور والترف السائد بين أميرات الحريم المتمرسات، ومنعتني غريزتي من الانسياق وراء غزل «نفرت-إيابت» الصريح أو مجاراة ألاعيبها المبتذلة والمفضوحة. كانت جميلة ومُهْلِكة أيضًا، وكنت أستشعر خطورتها، ومع ذلك كانت تمتلك كل أدوات الإغراء، فكانت شفتاها حمراوين مثيرتين، وعيناها بنفسجيتين تحدهما أهداب كثيفة تجعل نظراتها متثاقلة، كان نهداها مشدودين تبرز حلماتهما تحت الكتان الرقيق لثوبها. كانت «نفرت-إيابت» متزلفة، تقضي وقتها في إشعال نيران الرغبة بنظراتها المتوهجة ومشيتها المترنحة وبحة في صوتها تتصنعها عندما تُغني أشعارًا غرامية. لم تكن تسير، بل كانت تُحلق في دلال تاركة وراءها عطرًا لذيذًا مزيجًا من القرفة والياسمين. كانت «نفرت-إيابت» ذكية ومتعلمة تجيد القراءة والكتابة وتعزف على العود ببراعة. وعلى عكس بنات جيلها؛ كانت مهتمة بالسياسة والشئون الدبلوماسية، ربما بسبب أصولها المزدوجة الشامية المصرية. كانت تحب السلطة أكثر من حبها للأردية، وللمجوهرات؛ بل وأكثر من حبها للجنس والذهب.

كنت بحاجة لتفريغ طاقتي عن طريق بذل جهد بدني فاستأنفت النشاطات الخارجية التي كانت تستهويني أكثر من غيرها وعلى الأخصِّ صيد البط البريِّ في البِرك. كنت أتدرب أيضًا على المصارعة مع بعض رجال الحرس الخاص بي الذين أقنعتهم بأن نختبر قدراتنا في المبارزة البحرية، وكان التدريب عبارة عن قيام فريق مُكون من فردين بمواجهة فريق آخر مماثل له، وكان على كل فرد في الفريق أن يواجه خصمه الذي يحاول أن يحافظ على توازنه أمامه، بينما هو يقف داخل مقدمة مركب خفيف مصنوع من البردي، ممسكًا في يده عُقَّافة يحاول أن يسقط بها خصمه. من باب الحيطة؛ كنا قد اخترنا فرعًا من النيل خاليًا من التماسيح بعد أن قام سكان القرى الواقعة على طول النهر باصطيادها والقضاء عليها.

عندما وقع نظري عليها شعرت أن الزمن قد توقف، عجزت عن الحركة مثل المشلول، خفق قلبي حتى كاد ينفجر، لم أعد أستطيع إزاحة نظري عنها، ولم أعد أسمع الضحكات والنكات الصفيقة التي أطلقها رفاقي الذين توقفوا عن التجديف عندما رأوها. كانت جالسة على ضفاف النيل تغسل الملابس وتدندن بأغنية شعبية:

شغلني حبيبي بصوته العذب

قلبي ينهار منذ اليوم الذي دبَّ فيه حبه

حبيبي لا يعلم أني أريد أن أضمه

انتَبَهتْ إلى صوت تباطؤ مراكبنا البردية فرفعت عينيها لتلتقيا بعيني وتغرق فيهما.. رأت في نظراتي رغبة مُلحة أفزعتها ففرت هاربة.

ظللت أتعذب طوال اليوم، وكل الأيام التالية أيضًا. على الرغم من ذهابي بقاربي مرات عدة إلى الشط الذي كانت عنده؛ فإني لم أرها مرة أخرى. كانت تجهل شخصي، فلم أكن سوى رجل يرتدي إزارًا ويلهو مع أصدقائه الغِلاظ الحمقى. لقد استاءت منهم؛ فهم الذين جعلوها تهرب من جراء نكاتهم. وهكذا قضيت لياليَّ في إعادة بناء لوحة حية في ذاكرتي لهذه الشابة التي لا تُضاهيها امرأة أخرى. كنت قد تمكنت من تحليل كل جزء من ذلك المشهد، فكنت أتذكر قدميها الصغيرتين في مجرى المياه الصافية، وثدييها المهتزين كعصفورين صغيرين في عشهما من وراء سترتها بينما هي تغسل الملابس، وقوة ذراعيها.. وماذا أيضًا؟ ضفيرتها الطويلة المجدولة على جنب.. وعينيها الواسعتين الذهبيتين اللتين كانتا تتفحصان العالم عندما وقعتا عليَّ، وأنفها الأخنس وشفتيها المكتنزتين.. وعندما فتحت فمها مثل الشخص المُتفاجئ ظهرت أسنانها الأمامية المُتفلجة كالقارض الصغير. شرح لي «برني-عنخو» فيما بعد أن هذا التفلج هو رمز سعيد على وجه الخصوص؛ فهذه هي أسنان السعادة.

هل ألقت هذه الفتاه تعويذة عليَّ؟ فقد كنت مشغول البال طيلة الوقت ومُشتت الذهن. كان كل شيء لا يطاق بالنسبة لي: القراءة والموسيقى والغناء، والحركات البهلوانية للراقصات، والأنشطة الرياضية، والبكاء الشديد لابني الصغير، وتدلل «ميريت إت إس» المعسول. لم أعد قادرًا على ممارسة الحب لا مع زوجتي ولا مع محظيات الحريم، ولم تعد حتى تلك الخادمة النوبية الصغيرة ذات الأصابع الطويلة والبارعة في تدليكي قادرة على تحريك مشاعري. قلقت أمي بسبب فقداني الكامل للشهية، ولعدم استطعامي الأطعمة المُبَهَّرة التي كنت أعشقها. وحتى الحلويات أصبحت مُرة في فمي، وعندما يحل الليل كنت أحوم في غرفتي كشبحٍ في طرقات قصرٍ مهجور.

لكي أُصفي قلبي ذهبت إلى المكتبة والتهمت كل لفافات السحر الأسود التي وجدتها هناك؛ لأستخلص في النهاية أنني لم أكن ضحية أي سحر. إذًا، ما تلك الحمى التي يعقبها هذا التعرق البارد؟ تسارُع دقات قلبي المفاجئ هذا، والصداع، وهذا الأرق، إلى ماذا نعزوها؟ قمت بقراءة جميع الأطروحات الطبية لتحديد المرض الذي كان ينهشني، وعندما اعتقدت أنني وجدت الإجابة، كان هناك دائمًا شيء خاطئ يبطل التشخيص. وجدت أخيرًا الإجابة في كتاب شعر:

سبعة أيام أمس دون أن أرى أختي

ثَقُلَ جسدي وغاب وعيي

أفضل الأطباء يأتون لرؤية حالتي

لكن عبثًا هي علاجاتهم، وما الذي يمكن أن أتوقعه؟

طقوس الكهنة، غير قادرة هي

على معرفة مصدر ألمي...

دعها تأتِ وسوف أشفى

فليُنطق اسمُها ولسوف أنهض

فليأتِ رسول بردٍّ على رسالتي

وسيعود قلبي على الفور إلى الحياة...

إذا رأيتُها هنا؛ فستُرد لي صحتي

دعها تفتح عينيها وسوف تعود الحياة لجسدي مرة أخرى

إذا تحدثتْ عن الحب؛ فإن قوتي ستولد من جديد

من عناق واحد، سيتلاشى ألمي

حبيبتي هي دوائي من كل داء.

– ولكن ما الذي تعلمته إذًا في المدرسة يا سيدي؟ سألني «برني–عنخو» متعجبًا، من السهل تحديد المرض الذي تخبرني عنه؛ إنه مرض الحب! لا داعي للشعر لكي تعرف أنك ولهان!

– ولكن كيف أتعافى منه؟

– لا يوجد سوى دواء واحد فقط: مرور الوقت.

– وكم من الوقت يستغرق التحرر من هذا الداء يا «برني–عنخو»؟

– هل تريد حقًّا يا سيدي أن تتحرر منه؟ أم تُفضل أن تعيش هذه الساعات والأيام والأشهر والسنوات التي لا تضاهى، قبل أن تتحرر منه بمقتضيات الأحوال؟ إذ إن هذا الشعور يختلف من شخصٍ لآخر، فبعض الأشخاص ذوو طبع متقلب يتخلصون سريعًا من هذه المشاعر المتدفقة، ويستبدلون بها مشاعر

جديدة مثل فيضان النيل الذي يتكرر كل عام. والبعض الآخر يطفو فوق هذه المياه التي يقل اندفاعها رويدًا رويدًا، بينما آخرون يتركون أمواجها تتقاذفهم في حالة من الاعتمادية لبقية حياتهم. إنه أمر عادي جدًّا كما ترى! الكثير من الناس يقعون في الحب! انظر إليَّ، لقد وقعت في حب زوجتي بجنون -وقلد «برني-عنخو» من تنتابه نوبة قلبية- والعكس صحيح! سواء كنت ملكًا أو كنت فلاحًا، سيكون الحب دومًا هو سيدك. سوف يأخذك حيثما يريد وقتما يريد، دعه يفعل ذلك. اذهب إلى حيث يأخذك قلبك!

ها هو ما كنت قد وصلت إليه! أنا، ولي العهد، العملاق «خوفو»، أبوح بما في قلبي إلى قزم وأشعر بنفس مشاعره! انزعجت من حالي.. لا، ما أشعر به هو شيء غير مسبوق، استثنائي، عظيم. ثانية واحدة من وجودي كانت كافية بالنسبة لي لمقابلة تلك الفتاة «الفريدة» ولم أكن أعرف حتى اسمها! كنت أُدندن قافيتها مرارًا وتكرارًا: «حبيبي
لا يعرف أنني أريد أن أضمه».

أمرت رجالي في الاستخبارات السرية بتمشيط كل الريف إذا تطلَّب الأمر؛ للبحث عنها. ليتها عزباء! فهي تبدو صغيرة في السن.. أريدها لي وحدي!

على الرغم من أني كنت أضاجع الساقطات في الحانات -وأنا شاب- متخفيا! وأستمتع بالخادمات الصغيرات الجريئات في القصر! والحريم -وما أدراك ما الحريم! ولكن الغريب في الأمر هو أنني كنت أريد شيئًا آخر من الفتاة ذات العيون الذهبية، شيئًا آخر غير الجنس، هل هو ما أسماه «برني-عنخو» الحب؟

أمَّا «حبي» أنا فكان ضخمًا، مهولًا.. كان يفوق الوصف. هذا الحماس الذي أصابني لا علاقة له بهذا «الحب» الذي يشعر به رعايانا يومًا ما قبل أن يتخذوا زوجة ويؤسسوا أُسرة. العواطف البشرية التافهة التي تموت وتبهت في يوم من الأيام فتصبح مثل المسيخ من الطعام، تثير اشمئزازي.. هذه العواطف مرادف للضحالة التي أنبذها وأفر منها. لم يكن حبي حبًّا إنسانيًّا، بل شعورًا إلهيًّا. كان يتضخم وينمو يومًا بعد يوم وأشعر بنموه في داخلي كشجرة برعمت ونشرت أغصانها في صدري، فأصبحت عظامي مصنوعة من خشبها. أنا، «خوفو»، الفرعون القادم لمصر، كنت أعرف أنني سأحب وأكون محبوبًا في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الأبدية القادمة.

رأى أبي أن عقابه لي استمر لفترة طويلة بما فيه الكفاية فدعاني -على سبيل المصالحة- إلى مرافقته بالقارب في بحيرة القصر. كان يتقدم في العمر، ولكنه لا يزال بذيئًا كما كان دائمًا، فقد استقلَّ قاربًا تقوده حصريًّا مجموعة من عَشر فتيات شبه عاريات. كان يحب أن يستمتع بالمشاهدة اللذيذة والحسية لأجسادهن العارية وهن يتحركن ذهابًا وإيابًا أثناء التجذيف. لقد أبحرنا عبر أجمات البردي والقصب واستمتعنا بصوت

حفيف الريح وزقزقة العصافير، وظللت أدندن في رأسي: «شغلني حبيبي بصوته العذب/ قلبي ينهار منذ اليوم الذي دبَّ فيه حبه/ حبيبي لا يعلم أني أريد أن أضمه». فجأة توقفت إحدى الفتيات عن التجذيف وبدأت في البكاء. كانت قد فقدت للتو مشبكًا من الفيروز سقط في الماء. وعدها أبي بأن يعطيها مشبكًا آخر مطابقًا تمامًا لذلك الذي فقدته، ومسح على خدها وكتفها. ولكنها رفضت وأصرت على رغبتها في استعادة مشبكها هذا وليس أي حلية أخرى. أمر والدي الكاهن الأعظم چدي الذي كان يرافقنا وصاحب فكرة النزهة بالقارب فقام بعمل ترانيم سحرية واستطاع أن يخرج الماء من البحيرة ويعطي المشبك للفتاة التي كانت رئيسة الفتيات.

عندما عدت إلى القصر أردت أن أسمو بقصة النزوة الملكية، هذه، العادية جدًّا، فألفت «حكاية الجذافات» دون أن أتصور -ولو لوهلة- أنها ستحقق هذا النجاح الباهر وأنها ستُتَدَاول بين المدن عن طريق الباعة المتجولين، والتجار والمسافرين.

ها هي روايتي كما تخيلتها:

«قام الساحر «چدي» أمام النظرات المشدوهة للملك وضيوفه، شق البركة إلى نصفين بحيث يكون نصف الماء على جانب، فيغطي الجانب الآخر دون إغراق القارب الهش. في قاع البحيرة الرملي كان يرقد المشبك الأزرق الصغير؛ أخذه وأعاده إلى صاحبته التي اتسعت عيناها الذهبيتان وانفرج فمُها سعادةً ودهشة فكشفت عن أسنان صغيرة رائعة لامعة مثل القاشاني تتوسطها فلجة جميلة. قام «چدي» بإلقاء تعويذة سحرية جديدة فعادت مياه البحيرة إلى سابق عهدها. هذه قصة رائعة ومدهشة حدثت في زمن والدي «سنفرو» ملك مصر العليا والسفلى».

في حقيقة الأمر، كان للمجهولة ذات العيون الذهبية القدرة أيضًا على إلهامي وعلى جعلي عاطفيًّا لأول مرة في حياتي.

الفصل الخامس

رع هو الأكبر

انتهت حياة أبي الفرعون المحبوب بعد أن بلغ من العمر عتيًّا. وتميز عهده بإنصافه، وحكمته ورشده، وابتكاره، وكرمه. رحل تاركًا ذكرى طيبة لملك محب للحياة، سخي، طيب القلب، حليم الطبع. وكان إرثي منه بلدًا مزدهرًا ينعم بالسلام بفضل عنصرين يمثلان صمام الأمان للدولة، ألا وهما: إدارة محنكة وجيش قوي. كان أبي قد نصبني منذ عدة سنوات خلفًا له على عرش مصر العليا والسفلى، وكان عليَّ أن أحافظ على التراث الذي تركه لي، وتعزيزه وتوسيعه مع احترام مفهوم الماعت غير القابل للتغيير: العدالة والوئام.

عندما تم الإعلان عن أن «الإله قد صعد إلى أفقه وسيتحد مع والده رع»، دخلت البلاد بأكملها في حالة حداد. تجمدت حياة القصر على الفور، ظل رجال الحاشية صامتين، مكتئبين، محزونين.. انعزلت النساء في الحريم أو في غرفهن.. ساد صمت ثقيل، لا يقطعه سوى نَوْح وعَويل النادبات اللائي كن ينزعن شعورهن ويرفعن أذرعهن إلى السماء في حالة من الهذيان الجماعي. لم يبرح الكلب السلوقي -المفضل لدى أبي- غرفة سيده قط. عندما لفظ أنفاسه الأخيرة وسقطت يده المتيبسة على رقبته الملساء، أطلق أنينًا طويلًا بدا وكأنه لن يتوقف أبدًا، ولا يزال يتردد صداه في رأسي.

كانت «ميريت إت إس» أو «حبيبة أبيها» - كما يعني اسمها- وهو بالفعل اسمٌ على المُسمى، قد ألقت بنفسها في حضن وصيفتها «نفرت-إيابت»، وأطلقت العنان لحزنها العنيف ينهمر كالماء الجارف يكاد يكتسح السد. بينما ظلت أمي صامتة، شاردة أثناء احتضار زوجها الإلهي، حتى غمرتها عاطفة لم أكن أعهدها منها من قبل.. فرأيتها تقترب من جثمان أبي، وتهزه بينما تتوسل إليه أن يستيقظ وينهض. كانت تبكي وتدعوه: «يا أخي، يا زوجي، يا مليكي». لم يكن ذلك الحزن الظاهري والإجباري لامرأة تلتزم بالواجب؛ بل كان ابتلاء زوجة فقدت رفيقها. كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي لم تلتزم فيها بمقتضيات الكياسة والوقار -أو بعبارة أخرى مشاعر الفتور- اللتين يجب أن تتحلى بهما الزوجة الملكية الكبرى.

لم يكن من الممكن استئناف الحياة قبل مرور السبعين يومًا المخصصة للتحنيط ثم دفن الملك المتوفى. كان الوقت مُعلقًا لأكثر من شهرين، فلطالما كان الانتقال من ولاية ملك إلى آخر يمثل خطرًا للانشقاق والفوضى السياسية والاجتماعية. على الأقل لم تقم حرب للخلافة. كنت قد بلغت أشدِّي وصرت كمن هم في الأربعين من عمرهم واعيًا وناضجًا. لقد دربني والدي على خبايا ممارسة السلطة وأتم إعدادي في الكلية الملكية، و«بيوت الحياة» في معابد إيونو و«إِنِبْ-حِدِجْ»، وفي مناطق الصراع في سيناء، وفي مستنقعات حياة

البلاط لأصبح حيوانًا سياسيًّا بصيرًا وواعيًا بواجباته. كانت أمي قلقة بشأن بعث زوجها الملكي بعد الموت، في ظل الحالة الراهنة للمعارف الطبية وفن التحنيط. فعلى الرغم من كونها حارسة شرسة للتقاليد؛ فإنها أعربت عن تشككها في فعالية الاستعدادات الجنائزية المعتادة. توسلت إليَّ أن أوافق على طلبها في اختبار التقنية الجديدة للمحنطين على جثة «سنفرو»، فهم يدَّعون القدرة على ضمان الحفاظ التام على غلاف الجثة. كانت سلامة الجسد هذه ضمانة إضافية للبعث في الحياة الآخرة؛ لذلك سمحت لهم باستخدام أحدث تقنياتهم وأكثرها ابتكارًا.

في خيمة التقنية -التي أقيمت على ضفاف النيل- شق هؤلاء المتخصصون جانب والدي لإزالة الأعضاء الداخلية التي من شأنها أن تتعفن وتُتلف غلاف اللحم -كما قالوا لي- وهي: الرئتان، والكبد، والمعدة، والأمعاء. ثم قاموا بغسلها وتجفيفها قبل وضعها في أكياس قماش موضوعة داخل صندوق حجري. تركوا القلب في مكانه، مقر الفكر والمشاعر، ثم غمروا الجثة في حمام به ملح النطرون لمدة أربعين يومًا من أجل الحصول على تجفيف مثالي، ثم ظهر الجسد مرة أخرى مسطحًا ومقَزَّمًا وأسود. كان التحدي آنذاك هو إعادته إلى الشكل البشري؛ فتمَّ حشو منطقة البطن بلفافات تحتوي على أعشاب معطرة ومطهرة لاستعادة حجمها، كما تم غسل الجثمان ودهانه بالزيوت والدهون العطرية لتطرية الجلد. قام المحنطون بوضع طبقة من الجِص على اللفافات التي كانت تُستخدم للف أطراف المتوفى؛ من أجل نحت جسد جديد له. أعادوا بناء جسده، وعززوا رأسه الذي كان من المقرر تغطيته بالقناع الجنائزي.

اضطررت إلى إكمال بناء المعبد الجنائزي على عَجَل، بالطوب الطيني، ذلك المعبد المتكئ على هرم دهشور الأملس تمامًا والذي كان والدي فخورًا به. بعد حرق البخور جاءت القرابين الإلهية من الحبوب والخبز والكعك واللحوم والفواكه والخضراوات والنبيذ، والجعة. أضفى عليَّ الزيُّ هيبة، لكنني كنت متأثرًا للغاية مما جعلني أتلعثم وأنا أتلو تعويذة الإطعام: «يا سنفرو، لن تظمأ، ولن تجوع»... أعتقد أنني كنت أرتجف عندما أُعطَيت «الستب» لأداء طقس فتح الفم.. لامست شفتيه، وأنفه، وأذنيه، وعينيه بالأداة الخشبية. كان من شأن هذا الطقس تمكين المتوفى، بطريقة سحرية، من استعادة قدراته الطبيعية كافة على الكلام، والسمع، والشم، والإبصار. وهكذا، بعد أن يُوهب الحياة والقدرة على الحركة مرة أخرى سيتمكن أبي من القيام برحلته الطويلة من الأرض إلى السماء، ومن الظلمات إلى النور. أتبعت هذه الحركات بالتلاوة: (أنت لم تذهب ميتًا لأنك ذهبت حيًّا. يدك هي يد «أتوم»، وذراعاك هما ذراعا «أتوم»، وبطنك هو بطن «أتوم»، وظهرك هو ظهر «أتوم»، ومؤخرتك هي مؤخرة «أتوم»، وساقاك هما ساقا «أتوم»).

رفض أن يفصح لي عن المكان المحدد لدفنه حتى آخر أنفاسه. كان وزيره «نفر-ماعت» هو وحده من عُهِدَ إليه -في أكبر قدر من السرية- بنقل تابوته إلى مكان الاختباء النهائي في القبور. ليس بالضرورة داخل الهرم

الأبيض الأملس الجميل الذي يعكس ضوء الشمس.

وكما تقتضي التقاليد، ذهبت إلى إيونو، مدينة الشمس، لمقابلة «رع-نفر» كاهن «رع» الأكبر وأعظم الرائيين. كان أحد إخواني غير الأشقاء العديدين، ابن محظية أراد أبي أن يُكرمها، فتم تعيينه في هذا المنصب بعد وفاة «رع-حُتب». كنت دائمًا أشعر بالريبة تجاهه، أزعجتني بنيته البدنية؛ فكان نحيفًا بشكل مرعب، ذا وجهٍ جاف وهزيل، وعينين ضيقتين بشكل غريب، تبدوان وكأنهما مستعدتان لإطلاق السم في أي لحظة. فضَّل هذا الأخ غير الشقيق شغل منصب كهنوتي على إهدار حياته في وظيفة إدارية عُليا. مستترًا خلف مظهره المتفاني والخاضع؛ لم يتوان في توسيع دائرة نفوذ كهنة الإله «رع»، كما سعى جاهدًا كي تكون مدينة إيونو -في ظل غياب مدينة منافسة أخرى مثل العاصمة ممفيس- مدينة «رع»، إله الشمس والإله الأعظم في مجمع الأرباب المصري، ذلك الذي لا يغيبُ إلا ليلًا. كان متاحًا للجميع؛ للفرعون، أو النبلاء، أو الكتبة، أو الفلاحين، أو العمال، أو العامة. يكفي النظر إلى السماء لرؤيته، ويكفي الوقوف تحت أشعته للشعور بوجوده الدافئ. كان «رع» إلهًا محبوبًا ومشهورًا للغاية؛ لذلك أراد والدي «سنفرو» أن يجعله وثيق الصلة بالملكية، وشارك بنفسه في اجتماعات مغلقة لضبط صياغة النصوص الشعائرية الرئيسية التي أودعها «رع-نفر» فيما بعد في أرشيف المعبد.

تم تصميم رحلة الملك المتوفى الرمزية إلى الحياة الأبدية على غرار المراحل الثلاث للشمس، فعند الشروق، كانت «خيبري»، الجعران، وفي ذروتها كانت «رع»، قرص الشمس، وعند الغروب كانت «أتوم»، رجلًا عجوزًا محني الظهر.

اعتقد «سنفرو» أنه قد جعل من إيونو مركزًا كهنوتيًّا وفكريًّا، في خدمة التاج. وللإعراب عن امتنانه؛ وهب معابد «رع» العديد من الأملاك الزراعية المنتشرة في جميع أنحاء البلاد، كما أغدق عليها أيضًا بالموظفين، والماشية، والأحجار الكريمة، والمعادن النفيسة، ومنحهم كذلك العديد من الإعفاءات الضريبية. ومع مرور السنين أصبح كهنة «رع» وممثلوه الرئيسيون أصحاب ثروات كبيرة؛ ومن ثَمَّ أصحاب سلطة بسبب هذه الثروات، فأصبح في إمكان مدينة إيونو أن تتباهى بأنها مدينة ذات سلالة حاكمة، مثلها مثل «إِنبْ-حِدِجْ»، المدينة التي يتوج فيها الفرعون. تم حملي على محفة في منطقة المعابد. كانت مساحة شاسعة تضم الأضرحة المكرسة للآلهة التسعة التي أنشأها خالق الكون «أتوم»، وأيضًا معبدًا مخصصًا لحتحور، سيدة الجميز، ابنة وزوجة الإله «رع». هذا بالإضافة إلى مساكن العديد من الكهنة الذين كانوا يعملون هناك.

اتخذنا طريقًا ممهدًا وصاعدًا للوصول إلى معبد الشمس، «الأشهر في مصر» كما قدمه لي كبير الكهنة «رع-نفر» وكله فخر. قادني إلى الغرف العرضية المتقاطعة التي احتلت الجزء الداخلي من الجدار المحيط، حول

الفناء الكبير. كانت هناك محلات تحتوي على الملابس والأشياء الخاصة بالعبادة، ومحلات أخرى بها مخزون احتياطي للقرابين اليومية. دلفنا إلى ممر طويل بسقف مزين باللون الأزرق السماوي المُرقَّش بالنجوم الصفراء ومطعم بفتحات صغيرة تسمح للضوء بالتسلل، وكان ذلك الممر يؤدي إلى غرفة رائعة، مغطاة بالجداريات التي توضح القوة الإبداعية للإله «رع»، حيث نظمت النباتات والحيوانات والبشر وجميع الكائنات الحية أنشطتها على إيقاع الشمس. على الجدران، تزاوجت الحيوانات، وأنجبت الإناث صغارها، ووضعت الطيور البيض ورقدت فوقه. أما الرجال فتركوا أنفسهم لعمل الحقول وفقًا لمواسم البذر والحصاد. وفي موسم الفيضان يمارسون شتى أنواع الصيد. كان الجزء الأكثر سرية من المعبد يضم المكاتب؛ حيث يقوم جيش من الكتبة بتسجيل النصوص الدينية بدقة وفي خشوع، بالهيراطيقية على لفافات البردي، خاصة الصلوات وصيغ القرابين المكرسة للإله «رع». وفي غرفة أخرى، قام المُذهِبون، بواسطة أحبار مُلونة، بتزيين رسومات تصور بداية الخلق في هليوبوليس. كيف أن الخالق، المولود من نفسه، قد استمنى ليلد أول زوجين إلهيين، «شو» الهواء، و«تفنوت» الرطوبة. ثم «نوت» السماء، و«جب» الأرض، اللذين كانا جزءًا لا يتجزأ من بعضهما البعض وكان لا بد من فصلهما. ثم الزوجين التوأمين «أوزوريس» و«إيزيس»، و«سيث» و«نفتيس».

كان يوجد بين الكهنة من هم مؤلفون ماهرون يلجَأون لاستخدام السلطة والجنس والغيرة والخيانة والقتل كعناصر تشويقية لقصصهم الأسطورية، وكانوا يحققون نجاحًا باهرًا؛ ولذلك استمروا في اختراع أحداث وفصول جديدة للحياة المضطربة للآلهة. في مكتب منعزل، كان المتخصصون المستنيرون يعملون على نسخة موسعة من «صحف الإله» التي يستوجب على كل فرعون -من الآن فصاعدًا- أخذها معه إلى هرمه. كانت مجموعة من «صيغ القرابين»، و«صيغ اللعنات»، و«دليل العالم الآخر»، و«صيغ التمجيد»، وكلها تتعلق بمصير الملك في الحياة الآخرة. ودور هذه الصيغ هو مساعدته على التغلب على الصعوبات التي سيواجهها في رحلة ما بعد الموت، حتى يتحد مع الخالق ويحكم معه في السماء، إلى الأبد.

جمع «رع-نفر» الحاذق، خلف الأبواب المغلقة، كلية من الفلكيين واللاهوتيين والكُتَّاب لإنتاج عمل متعدد الأوجه بشكل جماعي وتحت قيادته. كانت عبارة عن نصوص غامضة ومبهمة عن عمد بحيث يمكن تفسيرها بطرق مختلفة. وبطبيعة الحال، سيكون الأمر متروكًا لكبير كهنة «رع» لاتخاذ قرار بشأن فن وطريقة نقل الإرادة الإلهية التي عكفت على إعداد هذه الكتابات. كان كل طموح «رع-نفر» يتمحور حول شيء واحد فقط: تحول «صحف الإله» عن غرضها المُعلن كنص جنائزي، لتحريفها إلى نص سياسي. لقد صاغ بخبث رواية تُفيد بأن الإله «رع»، في زمن سحيق، كان يحكم العالم، ولكن بعد أن تعب وشعر بالإحباط بسبب عدم انضباط البشر؛ قرر التقاعد إلى السماء، ثم أرسل الفرعون إلى الأرض ليحل محله؛ ومن ثَمَّ فإن

هذا الأخير كان نائبه فقط، مما يناسب رجال الدين في «رع». احتفظ الخالق لنفسه دائمًا بالسيطرة على الشئون الأرضية، وعبر عن ذاته من خلال رجال الدين. كان الفرعون، في هذا النظام يسترشد بالإرادة الإلهية -أو بمعنى أدق تسيطر عليه- الإرادة الإلهية وممثلوها لحكم البلاد. لم يكن أكثر من بيدق في لعبة «سينيت»؛ لعبة تشبه الشطرنج.

شكرت «رع-نفر» على دعوتي إلى مملكته، «نعم، نعم، مملكته!» فقد أردت أن أفهمه أنه في مقابل كل المزايا التي منحها والدي لرجال الدين في إيونو، أنتظر منه أكثر من مجرد المعاملة بالمثل. عليه أن يفكر في نصوص جديدة من شأنها أن تقدم الفرعون على أنه تجسُّد الإله «رع» على الأرض بدلًا من خادمه. بالتأكيد شعرت بأنني أكثر شهية للعب هذا الدور! رمقني بنظرات تشبه عيون الأفعى، دون أن ينبس ببنت شفة.

فتح «رع-نفر» الطريق أمامي إلى باب خشبي ثقيل. عندما دفعه وضعت يدي على عينيَّ اللتين بهرهما الضوء الساطع. كنا في الفناء الرئيسي لمعبد «رع» تحت السماء المفتوحة، حيث وجدت مسلة «بن بن» المصنوعة من الحجر الجيري ذات لون أبيض نادر منتصبة أمامي على قاعدة من الجرانيت الأحمر، ويعلوها هرم من الذهب الخالص يرمز إلى شعاع متحجر من أشعة الشمس.

كان يوجد مذبحٌ كبير من المرمر على سفح المسلة، وُضِع عليه جميع أنواع الخبز والنبيذ والجعة واللحوم التي تنبعث منها رائحة تُشهِّي؛ هذه الرائحة اللذيذة ستُطعم الإله بينما سيستمتع الكهنة، لاحقًا، بمذاق اللحوم الشهية.

رفع «رع-نفر» يديه إلى السماء وبدأ يتلو بصوتٍ جهورٍ:

«سلامٌ عليك يا «رع» الكامل التام، يا من تُشعُّ مع طلوع النهار

عندما تعبر السماء تتجلى للجميع

أنت تُحيي الأرض عندما يلوح ضوء الفجر

ولكن عندما تغرب في الآفاق، تُصبح الأرض مواتًا

أنت الفَرْدُ خالق كل شيء».

كانت تلك الخطبة إهانة لشخصي كقائد أعلى للدولة الفرعونية، وأيضًا كوني كاهن المملكة الأول.. أو هكذا سأكون عما قريب. فاستغل «رع-نفر» وضعي الحالي ليُذكرني بخُبث -ردًّا على اختلافاتنا- أنني لست الملك بعدُ. يمكن لأشياء كثيرة أن تحدث في غضون أيام قليلة إذا لم أكن أتمتع بكل الحماية! كنت قد بدأت بالكاد في إحصاء أعدائي. الفرعون الذي سأكونه سيسحقهم تحت صندله مثل عقارب لعينة.

♀

كان «خوفو» أكثر دهاءً ومكرًا مما كنت أعتقد. لم يغب عنه أن كهنة «رع» -وبطبيعة الحال أنا، الكاهن الأكبر- أصبحوا أكثر قوة بفضل نجاح لاهوتهم، وأكثر تأثيرًا بسبب ثرواتهم الهائلة. فقريبًا سنشكل لهم خطرًا: دولة داخل الدولة. وسواء أعجبه ذلك أم لم يعجبه، فإن الرب الخالق «أتوم رع» هو الذي خلق البشر والآلهة، وهو الذي عيَّن فرعون -أي جميع الفراعنة المستقبليين- ليحكموا على الأرض بدلًا منه ويقودوا البشر. عززت هذه الأبوة الهيمنة المتزايدة لكهنة «رع» وقللت من سطوة كهنة «أوزوريس»، إله الموتى والقيامة، الشديد الجاذبية للجميع بسبب القصة المأساوية لعائلته. فشقيقه «ست» كان قد قتله وقطعه إلى أشلاء، فقامت شقيقته وزوجته «إيزيس» بإعادة بنائه وإحيائه، ثم أنجبا ابنهما حورس، ولي العهد وممثل جميع الأبناء الملكيين. كنت أريد إضعاف التأثير الضار لهذا الولع الجديد «بأوزوريس»، فحرصت على إضافة فصول جديدة إلى أساطير «رع» مثل سرد الحيلة التي استخدمتها «إيزيس» الساحرة ليكشف لها «رع» عن اسمه السري وكيف أرسل ابنته «حتحور» للانتقام من الرجال الذين تمردوا عليه. أضاف لي «رع» ميزة جديدة: كان الناس يُفضلون السماء المضاءة والدافئة بأشعة الشمس على عالم الكهوف السفلي المظلم؛ لذلك لم يعد جوهر المشكلة هو إثراء الأساطير بنصوص جديدة، حيث كان للآلهة نفس عيوب البشر، ولكن في التعرف الدقيق للثيوقراطية أو حُكم « الحقِّ الإلهيِّ». هـل كان فرعون خادم الإله، أم كان الإله نفسه في صورة بشرية على الأرض كما يدعي «خوفو»؟ فيُصبح إذًا مُطلعًا وقادرًا، ولم يعد لكهنة الإله -من ثَمَّ- أي دور سياسي ليمارسوه. كان عليهم الاكتفاء بإقامة شعائر العبادة الدينية اليومية، وأن يظلوا صامتين، وهذا كان يتعارض مع خططي. قررت ألا أغير حرفًا واحدًا في أيٍّ من البرديات.

كان التاريخ حليفي؛ فقد أثبت مرات عديدة أن المنصب الملكي لم يكن، بالضرورة، منصبًا وراثيًّا. «خوفو» سيخلف أباه، ولكن من سيأتي بعده؟ من يضمن بقاء ذريته على عرش مصر؟ إن علماء البلاط كانوا فلكيين أكثر منهم منجمين، كانوا يستطيعون ملاحظة حركة الكواكب في السماء، والتعرف على النجوم، ومحاذاة الصروح للجهات الأصلية الأربع، لكنهم لم يعرفوا كيفية تفسير الحركات المشتركة لجميع هذه العناصر. لم يعرفوا كيفية تحديد تأثير الأجرام السماوية على مصير الإنسان. نعم، كان بإمكاني قراءة المستقبل في السماء وكنت سعيدًا بما اكتشفته. إنه ابن كبير كهنة رع -من يدري، لعله ابني أنا!- من سيجلس على عرش مصر قريبًا ويُنشئ سلالة جديدة. لم أستطع أن أؤرخ -على وجه اليقين- لهذا الحدث، ولكني أستطيع أن أُؤكد أن ذلك سيحدث.

الفصل السادس

نفر-نتر

ولدت في «آخِت» بداية موسم الفيضان، في عام كان فيه الفيضان مِدْرارًا. هو موسمٌ غامض وصعب دائمًا، حيث يمكن لمياه النيل أن تخُصِّب الأرض بطميها، أو تدمرها وتكتسح القرى الواقعة في ممر الفيضان بعنف غير مسبوق.

فنحن لا نُجيد دائمًا التحكم في هذه القوة المائية البدائية، فمصر بلد يشهد معركة مستمرة من أجل المياه وترويضها؛ عن طريق حفر الآبار والقنوات وإنشاء السدود. كان هذا الوقت الخاص جدًّا من العام هو الذي اخترته رمزيًّا لتنظيم حفل تتويجي في «إِنِبْ-حِدِجْ»، أقدم عاصمة للوجهين في مصر.

استقبلني «نفر-بتاح» في معبده، بذراعين مفتوحتين، قبل حفل التتويج بعدة أيام؛ فهو الكاهن الأكبر للإله «بتاح»، سيد الحرفيين، راعي البناء والتعدين، والنحت، وترسانات السفن، والنجارة. كانت بنيته البدنية متناقضة تمامًا مع هيئة «رع-نفر»، فكان قصير القامة، ممتلئ الجسم ومرحًا. لم ينحدر من أصل نبيل أو عائلة ثرية؛ بل كان مجرد كاتب في «بيت الحياة» في المعبد، وارتقى ببساطة من خلال تسلق صفوف الكهنوت. كان عديم الخبرة في منصبه مثلي تمامًا.

سلمَني نسخة من مخطوطة بتاح المقدسة؛ فقد كانت كل مدينة لها روايتها الخاصة بالنشأة الكونية. كان لمدينة ممفيس إله يعتمد على الفكر، خلق العالم بقوة فكره، وملأه بالبشر والحيوانات والنباتات، ثم وهبهم الحياة من خلال القوة الخلاقة للكلمة، وقام بتسمية كل مخلوقاته واحدًا تلو الآخر. وكان اختيار الاسم أمرًا بالغ الأهمية، فمجرد تسمية الأشياء يجعل لها وجودًا. هل يا ترى وضعتني أمي تحت حماية جيدة حينما ربطت مصيري بالمعبود «خنوم» إله الشلال؟ ستمنحني مراسم التتويج لقبًا مقدسًا كاملًا يلازمني لبقية حياتي؛ ومن ثَمَّ سأمتلك -بالإضافة إلى اسم ميلادي- العديد من الأسماء الأخرى التي ستكون رمزًا لعهدي.

كان «بتاح نفر» كريمًا، مثل جميع المثالين، وكان رجل حوار، اعتبر أن كهنة الإلهين «رع» و«بتاح» متكاملون، وأن عليهم أن يتحالفوا لخدمة الملكية. فمن خلال طقوس التنصيب المُعقدة تُزَوِّد «إِنِبْ-حِدِجْ» الفرعون الحي بالألوهية الإضافية والقوة اللازمة لممارسة وظيفته. ومن خلال طقوس احتفال «سد» يتم التأكيد على القوة الدنيوية للملك، وتعزز قوته البدنية كطقس يجدد شبابه؛ مما يُمكنه من توكيد سيادته أمام البشر وأمام الآلهة. أما مدينة إيونو، من خلال «بيت الحياة» الخاص بمعبدها، فكانت تتولى كتابة النصوص السحرية التي تضمن بعث الملك المتوفى وصعوده السماوي من جديد بعد مماته.

لا يُولد المرء فرعونًا؛ بل يُصبح واحدًا. تم تتويجي للتو في «إِنِبْ-حِدِجْ»، ومن خلال طقوس التنصيب تَغيَّر العالم والبُعد الذي أنتمي إليهما؛ فقد انتقلتُ من البُعد الإنساني إلى البُعد الإلهي، ومن كوني وليًّا للعهد إلى كوني الفرعون الحاكم.

كنت الإله الأمثل، ملك مصر العُليا والسُّفلى، وكنت عازمًا على إثبات ذلك للعالم، علاوة على أني أصبحت سيد الوقت الذي يتكشف منذ السنة الأولى من حكمي.

العام الأول لخوفو: كيف يمكنني تغيير العالم مع احترام وتقدير إنجازات أسلافي؟ كيف سأقوم بترسيخ مفهوم الماعت على الأرض والعدالة والنظام الاجتماعي المُلزِم، مع بقائي كحاكم محبوب ومُطاع من رعاياه؟

كنت أتباهى داخل قصري، كل يوم، بالفرعون الذي صرت عليه. كان الخدم ونبلاء البلاط ينحنون حتى يُلامسوا الأرض لتحيتي، حتى بدوا مثل جِراء تتشمم الأرض. أما «برني-عنخو» صاحب الصولجان المُصغَّر فقد أعفى نفسه من أداء تلك الانحناءات الناجمة عن رسميات لا تتناسب مع مركز ثقله المنخفض للغاية. أعفيت أيضًا النساء والرجال في محيطي من تأديتها.

كان الساحر «چدي» قد نصحني بشأن تنسيق الشكل العام الذي يجب اتباعه أثناء مراسم استقبال الشعوب الأجنبية في القصر. وكنت قد دعوتهم إلى البلاط ليقدموا لي فروض الولاء والطاعة وهداياهم الثمينة؛ ولكن أيضًا بغرض إبهارهم عن طريق استعراض عظيم لثرواتنا ونسائنا.

كنت قد فهمت جيدًا أن ما يسمى بالصداقة مع بعض البلدان إنما تستند فقط إلى موازين القوى: التجارة الثنائية أو التعاون العسكري. وكان التحالف مع مصر -أعظم قوة في العالم- ميزة رئيسية وضامن السيادة للعديد من البلدان. تعلمت أن أكون حذرًا من الشعوب الخاضعة في النوبة أو سيناء، والتي كانت تتحيَّن الفرصة للتمرد ضد مستوطنينا وجنودنا على أراضيها. لقد استقبلت كل هؤلاء بكياسة وتلطف والعديد من الدوافع الخفية، وهو ما لا يعتبره أحد من «الحكمة».

وهكذا أمرت بإعادة رسم وطلاء غرفة العرش حيث سأظهر قريبًا، وأُبهر، وأسحر، وآسِر مثلما يفعل إلهٌ حي. فكلفت بتزيينها بلوحات جدارية تصور النصر الأبدي للفرعون على أعدائه. وكان هذا من الموضوعات المعتادة في الفنون الزخرفية فيما عدا أن الرسامين صوروني بطريقة تسمح بالتعرف عليَّ في حجم بطولي، أقبض بيد واحدة على شعر رجل نوبي أحيانًا، بشفتين غليظتين وأذنين كبيرتين مثقوبتين بحلقات ذهبية، وآسيوي أحيانًا أخرى، يمكن التعرف عليه بلحيته المدببة؛ وباليد الأخرى أُلوِّح بهراوة حجرية لأقضي عليه. وفي لوحات أخرى، كان السجناء راكعين وأيديهم مكبلة خلف ظهورهم. أمرتُ بوضع عرشي الخشبي المطلي بالذهب فوق منصة واسعة؛ مما أتاح لي كشف القاعة والسيطرة عليها أثناء جلوسي.

ظهرتُ بعظَمةٍ وجلالٍ كتمثالٍ حي، مُتجمل ومغطًّى بأثقل وأعرق جواهر الحُلي الملكية. كنت أضع فوق رأسي التاج الثنائي لمصر العليا والسفلى، وأرتدي الذقن المستعار وذيل الثور وصولجان «الحِقّا» والمذبة. وضعت قدمي في صندلها المصنوع من الذهب على دَرَج مُرصَّع بتسعة أقواس لازورد ترمز إلى الأراضي التي سُحقت تحت نير المصريين. فصلتني عشرات الأمتار عن الباب المزدوج الذي دخل من خلاله مرءوسيَّ وأتباعي، الذين تم الإعلان عن وصولهم بالأبواق، واحدًا تلو الآخر. كان عليهم قطع مسافة طويلة للوصول حيث أجلس، وكان لا بد من أن يبقوا منحنين، خافضين أعينهم قبل أن يسجدوا على الأرض؛ مما جعله أمرًا مهيبًا. كانت آداب السلوك تتطلب من كلٍّ منهم تقبيل الأرض والبقاء ساجدًا عليها كدليل على الاحترام، حتى آمرهُ بإيماءة عريضة بالوقوف، دون أن أنْبِس بِنْت شَفَة. تعمدت بمكر ألا أتعجل في الإيماء لمن لا أحبهم وأحذر منهم.

مر النوبيون أمام صور الأسرى السُّمر التي تُمثلهم. جلبوا معهم -كهدية وكتعهد بالخضوع- الثيران ذات القرون الملتوية، وقرود البابون ذات المؤخرات الحمراء، والنعام التي كانت تصرخ وتقاوم غاضبة من تقييدها بالأصفاد، وزرافة، بالإضافة إلى أنياب الفيل، وجلود الحيوانات، والفهود المربوطة، وجذوع أشجار الأبنوس، وسبائك من الذهب تُحمل مثل الحلويات في سلال كبيرة، ثم تبعهم رجال بلاد بونت الذين قدموا المُر، وأكياس الأصماغ العطرية، وحتى أشجار البخور الجاهزة للزراعة والتي أحاطوا جذورها بعناية بالحصير الرطب.

قدَّم البدو الذين انتصرنا عليهم خلال حملة سيناء الأخيرة نحاسًا وأحجار الملاكيت الكريمة، وفيروزًا وأقمشة قبلية زاهية الألوان. كما قاد موكب من الليبيين قطيعًا ضخمًا من الحمير، والماشية، والأغنام، والماعز، توالوا أمام همسات الحشود غير المصدقة ما ترى، ممسكين أيضًا بأسود مستأنسة وغزلان.

كان من المفترض أن أبسط حكمي خارج حدود العالم المعروف، على جميع الأراضي التي تشرق عليها الشمس. لا يزال هناك مناطق عليَّ استكشافها. أما الآن، فيقوم سكان الأراضي الخاضعة لنا أو المتحالفة معنا -وهو عمليًّا نفس الشيء- بتقديم أعظم الكنوز روعة وغرابة وقيمة في العالم. أما السفراء الأجانب الذين حضروا الحفل فسيتحدثون عندما يعودون إلى ديارهم عن قوتي وسلطتي المطلقة، وعن عظمة مصر وأبهتها التي لا يمكن تصورها. وكان هذا أيضًا الهدف من هذه العملية الدعائية.

♀

لقد أعطاني ابني -الفرعون الجديد، أقوى رجل في العالم- تفويضًا مطلقًا لتنظيم المأدبة التي أعقبت

استقبال فروض الولاء والطاعة الأجنبية. استقبلناها في قاعة الاحتفالات، وهي غرفة مخصصة لـ«حتحور»، إلهة الحب والموسيقى. تم رسم غابات من البردي على جدران تلك الغرفة بتقنية الخداع البصري. حيث قام الفنانون بتصوير حديقة بالحجم الطبيعي بواقعية مبهرة تنتشر على جميع الجدران وتطل بخلجان كبيرة على الحديقة الخارجية الحقيقية التي تحوي بحيرة اصطناعية، كما قاموا برسم الطيور ذات الريش الملون بتفاصيله الرائعة حتى بدت وكأنها تطير بعيدًا، خائفة من جرَّاء وصول الضيوف. وتم أيضًا تصوير غابات البردي بطبيعية شديدة يكاد المرء يشعر عند رؤيتها بنَوَسان يعلن عن مجيء الإلهة «حتحور». بينما عَظَّم صوت آلة السيستروم المقدسة التي تهزها العازفات الساحرات إحساسًا سمعيًّا خادعًا.

على مدار نصف قرن، كنت على دراية بطرق تنسيق حفلات القصور، حيث يجب أن يظهر كل ما هو عادي بشكل يجعله ساميًا. كان الهدف من كل طبق يتم تقديمه هو إثارة حاسة التذوق، ولكن أيضًا إظهار وتأكيد قوة المضيف الذي استقبل أتباعه. السيطرة على الطاولة تعني أيضًا السيطرة على العالم. كان من الفن الدبلوماسي البحت ترتيب باقات الزهور، ومخاريط العطور، وسلال الفاكهة، ومصابيح المرمر، ولكن أيضًا وسائد الريش المتناثرة بفوضى محسوبة، والعديد من الطاولات الجانبية المصنوعة من الخشب الثمين التي سيتم استخدامها لتقديم أطباق لا حصر لها في صحون من القيشاني الأزرق والأخضر، وفي كئوس مصنوعة من الفضة أو المرمر. لم تكن الكثرة وحدها كافية لإثارة الإعجاب، ولكن كان من الضروري أيضًا العمل بأناقة وتخطيط. كان فن إعداد الطاولة أمرًا معقدًا مثله مثل ساحة المعركة. كان هناك أيضًا تسلسل هرمي صارم لأماكن الجلوس، وتم تقديم أدوات المائدة المصنوعة من الذهب الخالص لأعضاء العائلة المالكة فقط، كما زين الضيوف أجسادهم بالأقمشة الراقية والمجوهرات الخلابة، بينما اتخذت مواضعهن في القاعة، بشكل متناغم، نساء الحريم الجميلات اللائي يشهد أيضًا كمال أجسادهن على سيادة مصر، وكانت العديدات منهن يترقبن الحضور بنظرة أو ابتسامة، بحثًا عمن يرتقي بهن في المستقبل إلى مكانة أفضل.

كانت «نفرت-إيابت» متألقة بجمالها الوقح الذي ازداد بفضل دقة كل من فنان التجميل، وصانع الشعر المستعار وثنيات فستانها المصنوع من الكتان. كانت مُثيرة دون أن تكون مبتذلة، فأبرزت منحنيات أردافها وأطراف ثدييها؛ مما أثار، حتمًا، غرائز جميع الرجال، ورسمت على شفتيها ابتسامة من يدركن جمالهن. فُوجِئتُ بها وهي تتخذ أوضاعًا خليعة ومثيرة بينما تُحدق بلا خجل في بعض الحضور ذوي المكانة مثل «حم-إيونو»، ابن أخي الذي سيصبح وزيرًا عما قريب، و«رع-نفر»، الكاهن الأكبر لرع، حتى بدا لي أنها كانت تحاول لفت انتباه «خوفو» شخصيًّا. سأعاقبها في أقرب فرصة، حتى لو كانت من النبلاء وأختًا غير شقيقة للفرعون، لكنها تتصرف مثل عاهرة من ميناء «إِنبْ-حِدِجْ».

بجانبها، بدت «ميريت إت إس» المسكينة، الحامل مرة أخرى، وكأنها ليست سوى بطن سمين على

استعداد للانفجار مثل ذلك الماعز المشوي الذي كنت قد حشوته بالسمان مع البصل. كان ثدياها مضغوطين في شرائط من الكتان ويشبهان بيض النعام الذي تم تقديمه للتو، والذي قام العديد من الضيوف، في وقت واحد، بغمس شرائط من الخبز الدافئ فيه. كان مطلوبًا منها فقط أن تلد وريثًا جديدًا! لأنه كان من الواضح -يا للأسف!- أنها لن تستطيع أبدًا أن تنافس، سواء في القوام أو العقل، «الزينة الملكية» أو سيدات البلاط.

قامت فتيات، كل لباسهن هو حزام من الأصداف، بتوفير خدمة الغسل بعد الطعام، فتجولن بأباريق وأحواض لشطف الأصابع، وأقمشة من الكتان مطرزة بالنجوم؛ لمسح الأفواه، ووزع الأطفال أكاليل الزهور العطرية، كما قام سُقاة مفتولو العضلات ومُتجملون باللون الأخضر -وفقًا لأحدث صيحات الموضة- بتقديم أفضل أنواع النبيذ من الأقبية الملكية، ذلك المُعتَّق أفضل تعتيق، بالإضافة إلى النبيذ المتداول والمستورد من بلاد الشام. بين طبق وآخر، وبمساعدة كل من الساحر «چدي» و«برني-عنخو»، قمت بترتيب فواصل من الموسيقى والرقص، ولكن أيضًا فقرات ترويض الحيوانات والحيل السحرية التي ضمنت نجاح مآدبنا. لم تكن الكعكة الخشبية المطلية التي تعلوها لاعبة أكروبات موهوبة، وحشد من الراقصات العاريات، هي أكثر ما جذب الانتباه في الأمسية؛ بل كانت هناك قافلة من الإوز تجر عربة تقديم كبد الإوز الشهير المطبوخ على طريقة «وصفة الملكة» عليها.

لتكريم ضيوفنا؛ أعد الطاهي أطباقًا تقليدية من جميع البلدان الأجنبية. كان الاستيلاء على تراث الطهي للقوى المدعوَّة سيفًا ذا حدَّين: كان دليلًا على الاحتفاء بهم، ولكنه أيضًا مؤشر لإحكام السيطرة عليهم في جميع المجالات على الإطلاق من خلال الاستيلاء على معارفهم كما نستولي على ثرواتهم.

الفصل السابع

التخـفِّـي

لطالما أقنعني حِس «برني-عنخو» السليم وطلاقة لسانه بأن الحقيقة تخرج من أفواه الشعب؛ لذلك اعتدت أن أسير متخفيًا في شوارع «إِنِبْ-حِدِجْ»، متنكرًا في زي تاجر. كنت أُراقب وأتفقد -دون أن يبدو الأمر كذلك- وأسترق السمع إلى المحادثات للوقوف على حقيقة الرأي العام.

كنت قد خططت لأول نزهة غير رسمية لي بدون حارس شخصي في هذه المدينة الكبرى، التي كانت تسمى أيضًا «ميزان الأرضين»؛ لأنها احتلت مكانًا استراتيجيًّا في اتصال دلتا النيل بالوادي. كانت مدينة مترامية الأطراف، تخدمها شبكة كاملة من القنوات. كان ميناؤها مركزًا يتلقى المنتجات من جميع أنحاء مصر والعالم عن طريق النهر. كان هناك جيش من الكتبة المتمركزين عند مدخل الأرصفة يقومون بتسجيل كل ما تم تسليمه وكل ما تم أخذه في السجلات. دفع المتفرجون بعضهم البعض للاستمتاع بمشاهدة المراكب الكبيرة القادمة من البلدان الجنوبية البعيدة، بحمولاتها الغريبة عليهم وغير المألوفة بالنسبة لهم. كانوا مغرمين برؤية الأقزام، وأيضًا القرود ذات المؤخرة الحمراء أو السِّنَّوريات المحبوسة داخل أقفاص. استعرض تاجر سوري دُبًّه مما أثار صيحات الإعجاب والخوف. كانت توجد أسفل الميناء ترسانات بناء السفن والأرصفة والمخزونات. لطالما كانت المدينة مركزًا صناعيًّا مزدهرًا، وكانت هناك سلع مُصنَّعة، وحرف يدوية، وسوق جيدة التجهيز لبائعي بشائر محاصيل الخضر والأسماك. كما كانت واحدًا من أهم المراكز الدينية؛ لأنها كانت تضم معبد الإله «بتاح» حيث كان يتم تتويج الفراعنة جميعًا في هذه المدينة منذ فجر التاريخ.

كانت «إِنِبْ-حِدِجْ» مدينة صاخبة مزدحمة لا تنام أبدًا ومكانًا للمتعة حيث انتشرت الحانات والملاهي وبيوت الدعارة. عندما بلغْتُ الساحة الرئيسية للمدينة، اضطررتُ للفرار من المشعوذين والبهلوانات والموسيقيين، وقُمتُ بصد العرافين، وهؤلاء الذين يخلعون الأسنان، والمعالجين بالأعشاب، ورفضتُ المشاركة في ألعاب النرد والثلاث ورقات. كافحت من أجل شق طريقي عبر أزقتها المزدحمة والمكتظة بالأجانب والمصريين على حدٍّ سواء. اضطررت إلى التعرج بين الحمير، والسقاة، وحلاقي الشوارع الذين يتجولون ممسكين بوعاء وبموس الحلاقة في أيديهم، وبائعي الصنادل الذين يحملون ملء أذرعتهم من الأحذية، والباعة المتجولين الذين يلوحون بأقفاص بها طيور متعددة الألوان تُغرد، وتجار أكاليل الزهور، وماذا أيضًا؟ كانت جميع المنازل مصنوعة من الطوب اللبِن المغطى بطبقة من الجص مطلية بألوان زاهية.

وفوق المرتفعات كانت توجد الأحياء السكنية ذات المساكن الشاسعة وحدائقها الخاصة. تدرجت تحتها المتاجر التي لا تعد ولا تحصى والتي كانت أيضًا بمثابة سكن للخزَّافين والمسبكين والصاغة والنحَّاسين ومُصنِّعي المزهريات الحجرية الصلبة، وصانعي الأثاث، والنسَّاجين، والمطرِّزين. تم إنشاء كل من أحياء الصبَّاغين والدبَّاغين جنوب المدينة بحيث يتم التخلص من الرائحة الكريهة لأحواض المُعالجة بواسطة الرياح الشمالية.

لطالما أحببت أن أتوه في الأحياء الشعبية، مملكة سيئي الخُلق والبغايا. لطالما سحرتني بيوت الدعارة لأن كل شيء فيها خام، كل شيء فيها بسيط. وفيها معروف تمامًا مع من نتعامل. احتضنتني فتيات فاسقات خليعات، وجوههن مُلطخة بالألوان، لتقُدنني إلى غرفتهن المعزولة عن باقي الغرف بستارة فقط. كان ابتذالهن مناقضًا تمامًا لتدلل محظياتي. وقاحتهن وقلة حيائهن تثير غرائزي. كنت أُجيب بجرأة على كلامهن البذيء مما كان يثيرني ويثيرهن في نفس الوقت ويُضحكنا. تعلمت من هؤلاء النسوة من جميع الأعمار، أن بإمكان القبح أن يكون مثيرًا، وهو ما كان يجهله نبلاء البلاط المتلهفون دائمًا إلى الجمال السطحي للفتيات عديمات الخبرة. خلف الستائر، كنت أستشعر أنفاس السكان الآخرين وصراخهم وحتى شخيرهم، هذا الاختلاط أمتعني.

من كان يتخيل لوهلة أنني الفرعون؟ كنت قد انتحلت شخصية «نخت»، وهو تاجر من اختراعي. كان «نخت» رجلًا حرًّا، وهو ما لم يكُنه «خوفو». قذارة تلك الأماكن المزرية وافتقارها إلى أدنى معايير الصحة العامة أثر على صحتي، فأُصبتُ بما شخَّصه الأطباء على أنه تبوُّل ساخن، وهو عبارة عن إفرازات حارقة ومتواصلة من قضيبي أجبرتني على العزل لعدة أسابيع. كانت الطريقة الوحيدة للشفاء هي الامتناع عن ممارسة الجنس، وعمل كمادات عسل، وتناول مشروب طبي شديد الاختمار بانتظام. كان هذا الداء كفيلًا بإصابتي بالعقم بينما كان على الفرعون أن ينجب ذرية وفيرة؛ لذلك لم أستطع المجازفة! في ذلك اليوم، كنت قد جلست على طاولة خشبية متهالكة، محفور عليها رسومات إباحية. على الفور، جاءتني قَوَّادة نهداها متدليان وقدمت لي جعة حلوة المذاق. أخذ رجل يتحدث وكان يبدو أنه بحار، وكان يقص على رواد المكان المذهولين مغامراته الخرافية في أماكن غير معلومة. كانت لديه موهبة حقيقية كراوي قصص بها القليل من الحقيقة والكثير من وحي خياله. شرح لجمهوره المشدوه أنه الناجي الوحيد من سفينة غارقة، حيث ابتلعت موجة ارتفاعها عدة أمتار سفينته، لكن شدة الدفعة ألقته على أرض صلبة. وهكذا تمكن من الوصول إلى جزيرة رائعة في وَاجْ-ورْ (البحر الأحمر) لم تُذكر في أي خريطة بحرية. كانت الجزيرة كثيفة النباتات وبها أجود أنواع الفواكه. ظنَّ أنها مهجورة حتى اكتشف كهفًا يسكنه ثعبانٌ طوله أكثر من خمسة عشر مترًا، كان جلده من الذهب وعيونه من حجر اللازورد. تعمَّد الراوي الصمت في هذه المرحلة من القصة ليسمع

همسات الإثارة والدهشة والخوف. نعم، كان هذا الثعبان بالتأكيد إلهًا! كان لطيفًا معه وأخبره أنه قريبًا ستمر سفينة على مقربة من الجزيرة ويمكنها إعادته إلى وطنه. وهو ما حدث بالفعل، وعندما صعد على متنها رأى من بعيد الجزيرة الرائعة تختفي خلف الأمواج. وكدليل على صحة روايته، مرر من يد إلى أخرى تميمة خشبية مُذهَّبة تُمثل ثُعبانًا له عينان شديدتا الزُّرقة. حينئذ قامت فتاة هوى، كانت تتنقل من طاولة لأخرى، بإفساد الجو الساحر الذي أضفاه الرجل بحكايته واصفة إياه بالثرثار. ومع ذلك، شعرتُ أن الجمهور -الذي كان أغلبه من الذكور الثملين من جراء احتساء الجِعة والحلم الذي عاشه للتو- كان يميل إلى تصديق هذه القصة. «كلما كان مُبالَغًا؛ كان سهل التصديق»، هكذا كان يقول دائمًا «برني عنخو»، وهو خبير في الأكاذيب وفي فنون الاتصال السياسي أيضًا، ودون أن يعلم.

ولكن، إذا كان الشعب يتمتع بقدرة هائلة على تصديق ما لا يُصدق، فإنه -ويا لها من مفارقة! موهوبٌ بنفس القدر في انتقاد ذوي السلطة وعدم الثقة بهم. في هذا الملهى، لم يتردد المخمورون في المراهنة على الشخص الملكي ومطالبتي -بإصرار- بضم رهاني إلى رهانهم. ماذا عن هذا الفرعون الجديد الذي انتظر حتى سن الأربعين لاعتلاء العرش؟ كان البعض يخشى تجاوزه وطغيانه، فهو بالتأكيد يرغب في تعويض الوقت الذي اعتبره ضائعًا، ببناء صروح عملاقة لمجده.

- بالتأكيد سيرغب في التفوق على والده «سنفرو» الذي جعلنا نكدح لعدة أجيال لبناء أهرامه الأربعة!

- ماذا سيخترع هذا الابن ليتفوق على والده؟ بناء خمسة أهرامات بدلًا من أربعة؟

- كلا، بدلًا من ذلك سوف يبني هرمًا واحدًا أملس، مرتفعًا وعريضًا بشكل استثنائي...

- كم سنة من الجهد؟ كم عدد الوفيات والعاهات المستديمة لتنفيذ هذه المشاريع الجديدة؟ فقدت اثنين من إخواني سحقتهما كُتل حجرية أثناء بناء هرم «سنفرو» المفترض أنه مثالي. ووالدي العجوز يمشي وظهره محني، مثل الحيوان، وعموده الفقري مضغوط ومُفتت من جراء حياة قضاها في سحب الزلاجات.

- أنت مُحق. يجب أن نرفض أن نكون مجرد حيوانات يتم إطعامها لتكون قوية لتكدح على إيقاع الطبول الذي يفترض أنه مُحفز. فهكذا فقدت بعض سمعي، وأعاني منذ عدة سنوات من الصداع النصفي الذي لا يُطاق.

- من سيكون المهندس المعماري الجديد ولم يعين الوزير بعد؟

- لا تَدَّعِ الحماقة! نعلم جميعًا أنه سيكون «حم-إيونو» ابن «نفر-ماعت».

- هل حفظ جيدًا دروس والده؟ لأن الابن الذي لا يستمع إلى أبيه -سواء كان نبيلًا أو عاملًا- هو ابن سيئ.

– ليس لمجرد أن ابنك يرفض أن يكون نجارًا مثلك، يتعين عليك التدخل في أحوال أبناء الآخرين. من الواضح أن كلًّا من «خوفو» و«حم-إيونو» مخلصان ولديهما ولاء لآبائهما.

– على عكسكم تمامًا، أنتظر بفارغ الصبر الإعلان القريب عن افتتاح موقع البناء الملكي. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها الفرار من زوجتي، والتجنيد خلال أشهر الفيضان. سيتم إيوائي وإطعامي وغسلي ورعايتي على نفقة الدولة بدلًا من البقاء في المنزل عندما تغمر المياه حقولي وأضطر إلى تحمُّل المزاج السيئ لشمطاء، وبكاء جميع الأطفال الذين ما زلنا ننجبهم. لن أتمكن من العودة إلى المنزل خلال العطلات الأسبوعية أو الأعياد الدينية. مع أرباحي، سأقضي وقتًا ممتعًا هنا في إِنِبْ-حِدِجْ! لن أرتكب أبدًا حماقة الاشتغال في جر الحجارة! في دهشور، وجدت مكانًا جيدًا في مطابخ موقع البناء. كنت أحد الأشخاص المسئولين عن توزيع الطعام على العمال الموسميين.

– ألم ترَ بنيتك، أيها النحيل؟! قاطعته فتاة بحِدة! ما الحجر الذي كان يمكنك سحبه؟

انفجر الجميع ضاحكين. التفت الفلاح إليَّ:

– وأنت، أيها التاجر، ألا تقول شيئًا؟ سوف تثري نفسك بالتأكيد من خلال توفير المواد الغذائية المختلفة لموقع البناء المستقبلي. ما تخصصك؟

– أنا تاجر أقمشة، سأتولى تزويد عُمال الفرعون بالمفروشات، والملابس النظيفة، والإزارات، والملاءات.

– «يجب أن تبدأ بي»، قال مازحًا رجلٌ سمين، أنفه أرجواني، كان يجلس مسترخيًا على كرسيه، وساقاه متباعدتان. ولو أنه مع البضائع التي لدينا هنا، أُفضِّل عدم ارتداء أي شيء! قالها وهو يضحك.

عدت إلى الميناء عبر سوق البضائع الطازجة. أسرعت أمام محلات مزاد السمك. كان الصيادون يَغشّون في طزاجة بضاعتهم وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحت رائحتهم نتنة كرائحة بضاعتهم. كانت أسماك النيل متراصة في سلال، والعين بها اعوجاج ما. كان البائعون يرشُّون السمك بالماء بانتظام للإيهام بأنه ما زال على قيد الحياة. تمت معالجة المأكولات البحرية عن طريق التمليح، وكانت البطارخ لا تزال تلقى نجاحًا كبيرًا. ثم يأتي بعد ذلك النحَّالون الذين عرضوا جميع أنواع العسل، سواء لتحلية الطعام، أو لتنشيط طعم النبيذ، أو لتطهير الجروح. تجنبتُ ملاحقات بائعات المراهم والدهانات، اللاتي يعرضن أيضًا خدمات التدليك، ووصلت إلى أكشاك بائعي الخضراوات في السوق.

وجدتها فجأة أمامي، كانت تقوم برصِّ الفاكهة والخضراوات على شكل أهرامات ملونة بطريقة جميلة. اقتربتُ منها فنَظَرتْ إليَّ وتَجَلَّت عن انفراج شفتيها ابتسامة مشرقة كشفت عن قواطعِها: أسنان السعادة. بالاتفاق الضمني، لعبنا دور المشتري والبائعة دون النظر إلى البضائع. كنا مشغولين للغاية بتبادل النظرات

وتمعُّن كلٍّ منا في الآخر. كانت تبالغ في صوتها حتى لا أسمع ترددها، في حين أن يديها كانتا ترتجفان. كانت تبالغ في دور سيدة الأعمال وتُجعد أنفها الصغير الرائع. ادعت أنها تبيع أفضل أنواع الرمان، وهي التي كانت شفتاها حمراوين لدرجة أنني أردت تقبيلهما. وأجود أنواع العنب، هي التي تلألأت عيناها البنفسجيتان بالدلال. اتضح أنها جشعة وأني كنت غبيًّا. طلبت ثوبًا من الكتان الناعم يكفي لخياطة سترة، مقابل بضعة كيلوجرامات من الفاكهة. وافقتُ. كنت على استعداد لأقدم لها كل سترات الأرض وجميع السترات وكل ما تريده مقابل حركة لم أقم بها، وقبلة لم أطبعها. على الرغم من أنه لا يمكن تصور الأمر كما قد يبدو، ولكن أخافتني جدًّا هذه الفتاة الصغيرة. لم تكن تعرف أنني الملك، ولكنها اختارتني! تأثرتُ وشعرت بالعجز والضعف والحماقة. تواعدنا على اللقاء على ضفاف النيل بعد إغلاق السوق؛ مما أعطاني الوقت للذهاب وطلب الكتان لإتمام صفقتنا.

لكِ الحمد يا «حتحور»، يا سيدة الجميز، لقد سمعْتِ دعائي! لقد حققتِ أمنيتي! أن أرى مرة أخرى، في يوم من الأيام، ذلك الرجل الذي التقيت بعينيه على ضفاف النيل. هذا الرجل الذي جاء منذ ذلك الحين ليطارد أيامي ولياليَّ. مَن يسكن في جسدي ومستقر فيه، من يسكن في عقلي ويسيطر عليه. لقد حُفرت كل تفاصيل وجهه وجسده في ذاكرتي. لو كانت لديَّ موهبة الرسم لكنت رسمته على لوحٍ من الحجر الجيري! ليكون بإمكاني استدعاؤه كل تلك الأيام والليالي، وفقًا لرغبتي. كان خوفي الوحيد هو نسيان التفاصيل ورؤية صورته تتلاشى.

يا «حتحور»، يا سيدة الجميز، لقد وجهتِ خطواته نحوي! سمعت في صوته الرخيم الدافئ نبض مشاعر مماثلة لمشاعري، أنا واثقة من ذلك.

لا يهمني الآن بيع الفواكه والخضراوات من بستان والديَّ. أود لو يبدأ الإله «رع» في الركض إلى قاربه الشمسي، وأن يحطم مُجذِّفوه الأرقام القياسية للسرعة فيحلَّ المساء وألقاه، وفقًا للاتفاق، على ضفاف النيل لنتبادل البضائع. أخشى فجأة أن أكون قد بالغت.. على أية حال، تلك الكيلوجرامات القليلة من الفاكهة السيئة مقابل ثوب كتان! قد يظن أنني لصة، وأنني سخرت منه، وربما لن يأتي.

أصبحت «نفرت-إيابت» لا تطاق، ومتغطرسة منذ أن عيَّنتها والدتي في منصب المدير العام لورش

الخياطة في القصر. كانت نساء البلاط يعظمنها بقدر ما تُعظِّم إلهة حية. كنَّ جميعًا مقتنعات بأنه من خلال اتباع نصائحها في الإغراء، سيمكنهن استعادة زوج متقلب، أو الحصول على خطيب خاضع أو تحريض حبيب شاب. كانت «نفرت-إيابت» هي التي تقرر آخر الصيحات فيما يخص الملبس؛ كارتداء الملابس الطويلة، أو القصيرة والمطوية، أو المطرزة، أو المتراكبة في الحريم، معقل النفاق والتكبر. استقبلتني في مضمارها، متغطرسة كما لو أن أدوارنا قد انعكست. وعلى العكس، عندما تواجدنا وحدنا في مخازن النسيج تخلت عن تعجرفها وتبنت سلوك المُعذبة الخاضعة. كانت «نفرت-إيابت» شريرة بقدر ما كانت جميلة، وكان هذا ما يُكسبها الكثير من المعجبين، فكان عشاقها يقارنونها بحشرة السرعوفة المفترسة، ولم يكن لديَّ أبدًا ميل لهذا النوع من العلاقات. صددت محاولاتها لإغوائي بانزعاج ثم بعنف. وأخيرًا أعطتني ما أمرت به: ثوبًا من أجود أنواع الكتان الملكي. كانت مُصرَّة على أن تعرف لمن سيذهب ذلك الثوب، هل إلى «حتب-حرس» أم إلى «ميريت إت إس»؟ لن يكون هناك أبدًا ثوب آخر مثله، فالحائكة التي صنعته قد ماتت لتوِّها ولن توجد بين طالباتها من تستطيع أن تضاهيها.

غادرتُ في وقتٍ مبكرٍ جدًّا لأنتظره على الضفة. عندما رأيته أخيرًا قادمًا نحوي هوى قلبي من صدري إلى بطني. كان يتقدم بخطوة مسرعة مثل القطط، وكنت أرى كل عضلة من عضلاته تتشكل. كان قد غيَّر إزاره وصندله، وأحضر معه لفة الكتان التي وعدني إياها. عندما اقترب، انبثقت منه رائحة زهرية نفَّاذة. ندمت على ارتداء نفس الفستان المجعَّد، وعلى عدم مبالاتي حتى في ارتداء حذاء. ثبتُّ لفة القماش بعناية في إحدى السلال التي كانت فوق ظهر حماري. كنت قد قسمت الفاكهة على سلتين كبيرتين على الأرض. غلبني الفضول، فسألته عما كان يفعله في «إِنِبْ-حِدِجْ». كان تاجر قماش وشخصًا شديد التفاخر. أوضح لي أن جودة منسوجاته جعلت صيته يسبقه وضمنت له دخول القصر. لم يترك لي الوقت لأسأله عن اسمه، فقد أمسك بمعصمي بإحكام وأطبق شفتيه على شفتيَّ، محاولًا إجبارهما على تقبيله. تركته يقبلني، قليلًا؛ فقد كنت أريده أن يفعل ذلك، بشدة. الرجال، كلهم سواء! لم أكن لأستسلم في مقابل بضعة أمتار من الكتان! هربت، أو بالأحرى تركني أذهب. امتطيت حماري وضممت ساقيَّ، ومهمزته ليأخذ طريق العودة.

- هل أمرت باستدعائي يا سيدي؟

- أرسل رجالك للبحث عن فتاة فلاحة، لا أعرف الكثير عنها..

لا أعرف اسمها، تعيش في قرية بالقرب من «إِنبْ-حِدِجْ»، يدير والدها بستان خضراوات خاصًّا وتبيع هي الفواكه والخضراوات في السوق. إنها دون العشرين وأسنانها الأمامية مُتفلجة.

لم يكن لديَّ أدنى شك في فعالية أجهزتي السرية. قريبًا سأعرف كل شيء عن هذه الشابة التي جعلت رأسي يدور؛ اسمها، عمرها، أين تسكن تحديدًا؟ من هم أفراد عائلتها؟

معرفة كل شيء عنها كانت تعني امتلاكها بالفعل.

لو لم يكن أمرًا من الفرعون نفسه لكنت وضعت في الزنزانة ذلك المازح الذي أساء إلى خدمات الشرطة الخاصة بي بمثل هذا الطلب!

كان تخصصنا هو مطاردة المجرمين الخطيرين والتحقيق مع المتآمرين ضد الدولة، ولكن العثور على فتاة فلاحة شابة أسنانها متفلجة، تبيع الفواكه والخضراوات وتعيش في منطقة ممفيس!

كأننا نبحث عن إبرة في كومة قش!

الفصل الثامن

«حم-إيونو» الوزير

والمهندس المعماري للفرعون

كنت أنتظر هذا اليوم منذ أن كنت مراهقًا، منذ أن قررت أن أمتهن نفس مهنة والدي، وأكون مهندسًا معماريًّا؛ ولكن ليس أي معماري؛ بل المهندس المعماري الأول للمملكة. سأحمل لقب «مدير جميع أعمال الملك». أنا «حم-إيونو» و«خوفو»، سنشكل معًا ثنائيًّا يعمل جنبًا إلى جنب، كما كان من قبلنا أَبَوانا «سنفرو» و«نفر-ماعت»، وكان كلانا مدفوعًا بنفس الرغبة في التفوق عليهما. كنت على دراية بجنون ابن عمي وطموحه؛ فكان ينوي أن يُقيم لمجده الصرح الأكثر روعة الذي يمكن أن تشيده أيدي البشر على الإطلاق، مهما كلف ذلك الخزانة، ومهما تكلف الشعب. وأنا، مهما كانت التكلفة التي سيتكبدها «خوفو»، كنت مصممًا على اكتساب الشهرة والخلود بفضل الصروح الاستثنائية التي كنت سأبنيها.

منذ زيارتنا الأولى لموقع دهشور، الذي يُعد كتابًا معماريًّا مصورًا في حد ذاته، تخيلنا ألف مرة هرمنا بأبعاده الاستثنائية. لم أتوقف عن وضع النظريات، واستهلكت لهذا الغرض مئات الأوراق من البردي لرسم التصميمات المختلفة، ووضع حسابات النسب، وتدوين البيانات، ووضع الآليات الجديدة، وكتابة الأفكار الهندسية الثورية. كان والدي «نفر-ماعت» مهندسًا معماريًّا استثنائيًّا؛ فقد بنى أهرامات «سنفرو» الأربعة: واحد في سيلا ومري إتم (ميدوم)، واثنين في دهشور، الهرم المائل والهرم الأملس، كما صمَّم وشيَّد أيضًا جميع قصوره وقام بعمل توسيعات في الحريم، وأعاد ترميم معبد «بتاح»، ونصب المسلة الكبيرة في فناء معبد «رع». لم يكن التفوق على عبقرية والدي هو الحلم المجنون الوحيد الذي راودني؛ أردت أيضًا أن أنافس «إيمحوتب» اللامع، مخترع الحجر المقطوع، مصمم أول هرم مُدرج، هرم الفرعون «نثر-خت» (زوسر)، مُشيد أكبر مجمع جنائزي في العالم. رجل كان قد تم تأليهه للتو!

وبصفتي وزيرًا سأدير الجهاز الإداري بأكمله، ولكن أيضًا الاقتصاد والعدالة في الدولة. كان كل شيء متصلًا ببعضه البعض، فبدون دولة قوية، ومُهيمنة، ومركزية، ومنضبطة، لن ننجح أبدًا في تنفيذ مشاريعنا التي تتطلب جهودًا بشرية ومالية ضخمة، على مدى عدة عقود. إن أكثر ما حفزني لتحقيق ذلك هو ضمان وجود وسائل وفيرة من أدوات الإنتاج والقوى العاملة والموارد المعدنية. كنت مؤمنًا بأن شراكتنا ستمنحني الحرية لإنشاء نماذج معمارية جديدة. كان يمكن أن نبدو مغرورين ومتغطرسين، ولكننا لم نكن كذلك. كنا في عجلة من أمرنا وقد نَفِدَ صبرُنا؛ فقد كُتب علينا الانتظار حتى تقدمنا في السن وبلغ كلانا أربعين عامًا لنستطيع الإمساك بزمام حياتنا. هل يا ترى سنعيش بما يكفي لإنجاز مشروعنا المشترك؟

منذ الإعلان عن تاريخ تتويجي لم يسخر أحد من سمنتي المفرطة، ولا من خصري العريض والمكتنز، ولا من الشكل الغريب لثدييَّ الأنثويين، ولا من قامتي العملاقة، ولا حتى من أنفي البارز المعقوف؛ بل على العكس، مُنحت لقبًا جديدًا يوحي بالاحترام: النسر.

عُرِضَت عليَّ أجمل الفتيات في البلاط؛ لأتخذ من بينهن زوجة. رفضت بأدب جميع العروض. كانت «نفرت-إيابت» أكثرهن جاذبية على الإطلاق، ولجأت عبثًا لجميع أسلحة الإغراء لإغوائي حتى إنها كانت تُطالع كُتبًا عن الهندسة المعمارية والرياضيات للتظاهر بأنها تقاسمني شغفي. وقد أكدت لي -وهو أمر غير صحيح بالمرة لأنها لا تعيش إلا على المظاهر- أنها تريد أن تبتعد عن حياة البلاط وتُقيم في أحد القصور التي سأبنيها لكلينا وأنها ستكون سعيدة لمشاركتي عزوفي عن البشر. كنا سنُؤسس عائلة كبيرة هناك، وكانت ستتمكن من ممارسة شغفها الجديد بحب الحيوانات وتربية البجع، والذي عرفتُ فيما بعد، لدهشتي، أنه من أحدث علامات الأناقة والترف المفتعلة. كانت مستعدة لادعاء أي شيء والوعد بأي شيء لكي تتزوج من الرجل الثاني في المملكة لعدم توفر الرجل الأول؛ «خوفو». ادعت أنها لا تولي أي اعتبار للمظهر الخارجي وأنها تهتم فقط بجمال الروح. صرفتها بأدب مثلما صرفت الأخريات جميعًا.

وقد كنت أود أن أتفرغ تماما لبناء الهرم؛ هرم عظيم للملك خوفو، أما الزواج والمرأة فقد قررت أن يتم بعد الانتهاء من بناء الهرم العظيم.

لم تكن السمنة هي التي أبعدتني عن النساء؛ ففي النهاية، كانت مكانتي في الدولة وانتمائي لعائلة من النبلاء أمرًا كافيًا للعثور على زوجة. ولم يكن البدينون أقل موهبة من غيرهم في أمور الغرام. كان لديَّ ما يكفي من الوقت للانضمام، كل مساء، إلى مساعدي الأمير «عنخ-خاف»، الأخ غير الشقيق لـ«خوفو»، لكي نصل إلى أسرار العمارة والخلود، في الطابق العلوي الذي استأجره سرًّا في «إِنِبْ-حِدِجْ» لإيواء أفكارنا. لم يكن يمكن الوصول إلى مخبئنا إلا عن طريق سلم متهالك!

دَلَفَ «حم-إيونو» إلى قاعة الاجتماعات على صوت عزف الأبواق. انحنى، عند وصوله، رجال البلاط الذين تجمعوا على جانبي الغرفة، ومضى قدمًا بثقة وطمأنينة. كان يرتدي إزار المراسم الطويل الذي يضم صدره ويخفي -بشكل مؤقت- كل انتفاخات جسده القبيحة. أمسك بيدٍ حازمةٍ بصولجان القيادة «عبا». كان صندله الجلدي المطلي بالذهب يصدر صدًى مع كل خطوة. كان يبدو جليلًا، ولكن جلالة الملك هو أنا، «خوفو»؛ لذلك تركته ساجدًا على الأرض لفترة أطول مما كان ينبغي قبل أن ألِّح له، بإيماءة واسعة، إذنًا

بالنهوض.

– أنت الآن أصبحت وزيري يا «حم-إيونو»، كاتم أسراري، الشخص الذي يمكنه الاقتراب من ذاتي الملكية!

لا بد أن تُحيط علمًا بكل شيء يحدث على الأرض، وفي السماء، وفي العالم السفلي.

أنت ركيزة البلد بأكمله.

عليك أن تفرض مفهوم الماعت باسمي.

ستكون مسئولًا أمامي أنا شخصيًّا عن النظام الجيد للدولة.

عليك أن توحي بالثقة وبالاحترام وبالخوف.

عليك أن تسهر على أمن البلاد.

عليك أن تباشر جمع الضرائب.

عليك حماية الخزانة الملكية.

أنت ضامن العدالة. عليك أن تحكم بشكل منصف على الفقراء وكذلك الأغنياء.

سوف تفحص مخزن الحبوب الملكي، وتتحقق من إمدادات المياه والطعام.

ستكون مدير جميع الأعمال الملكية.

أتمنى أن تتصرف دائمًا وفقًا لكل ما أقرره!

وأجاب «حم-إيونو» كما تملي التقاليد:

– سأكون قلبك، يا سيدي، وعينيك وأذنيك. سيد كل أسرارك. لن أعرف النوم ليلًا ولا نهارًا. سأفرض سيطرتي على كل ما يدخل وكل ما يخرج من أملاك القصر. سأراقب، إلى جوارك، تقدم أعمالك العظيمة. سأراجع حسابات المعابد. سأحكم على الفقراء والأغنياء بنفس الطريقة. سوف أطبق مفهوم الماعت كل يوم، مثلك تمامًا.

كنت قد كررت عدة مرات على انفراد ما كنت سأقوله لابن عمي «حم-إيونو» بعد حفل تنصيبه. كان من الضروري أن أبدأ فترة حكمي على أُسس واضحة ومتينة. إذا لم أؤكد منذ البداية سلطتي وحدود الألفة التي تجمعنا؛ فلن أتمكن من تنفيذ مشروع العمر. وعلى الرغم من أنه كان صعبًا عليَّ، فإنني أسمعته هذا الكلام الذي تركه مندهشًا ومذهولًا وحزينًا:

– ابن عمي الحبيب، أنت ممثلي، لكنني أنا من يحكم، لا تنسَ ذلك أبدًا! أمنعك من أن تقرر أي شيء دون موافقتي. أمنعكم من التوقيع أو التصديق على أي قرار يتعلق بالمملكة دون موافقتي. سيكون عليك أن تقدم لي تقريرًا يوميًّا عن كل ما يحدث على أرض مصر. سوف أستشيرك في أي وقت، وقتما أريد. سنبني صروحي معًا، لكنني سأكون صانع القرار الوحيد. لن أشارك سلطتي معك أو مع أي شخص آخر. أنا الفرعون الوحيد. أول شيء أنتظره منك هو الطاعة والثاني هو السرية.

لقد وضع ذلك المساء نهاية لصداقة طفولتنا وبداية لتعاوننا المبني على علاقة رئيس ومرءوس. كنت قد جرحت «حم-إيونو» في كرامته. لم يكن على وزيري الجديد والموهوب والطموح إلا أن يستشيط غضبًا. لن يكون سوى خادم لَملكه الذي لا يحتاج إلى نصيحة
ولا مستشارين.

أتذكر ذلك الصباح كما لو كان بالأمس. كنا نبحث عن الموقع الأنسب لإقامة صرح الأبدية الخاص بي. منذ لقائي الأخير العاصف -إلى حد ما- مع كبير كهنة «رع»، كنت مصممًا، كنوع من أنواع التحدي، على إنشاء المجمع الجنائزي الخاص بي، على الأرض التي تواجه بالضبط المدينة المقدسة لإله الشمس: مدينة إيونو.

أردت أن أجوب، مع «حم-إيونو» سيرًا على الأقدام، هضبة الجيزة المهجورة التي اجتاحتها الرياح.

كان يمكننا رؤية السافانا المحيطة، حيث أحببت صيد الحيوانات البرية، والنيل، حيث انغمست في الصيد والمبارزة. عند سفح الهضبة، امتد سهل طميي، شريط ضيق من المساحات الخضراء التي تزين رمال الصحراء. إلى الجنوب، في الضباب الذي يُولَد مع الشفق، استطعنا التعرف على أهرامات أسلافي. الهرم المدرج للفرعون «زوسر»، وهو درج حجري منحوت ضخم، والهَرَمان اللذان أقامَهما والدي «سنفرو» في دهشور. كان يرافقنا خدمٌ وقفوا خلفنا، محمَّلين بالزجاجات المملوءة بالمياه العذبة. كان حُرَّاسُنا الشخصيون يتجوَّلون حولنا، غيرَ بعيدين، مثل كلاب الصيد. وكان «حم-إيونو» قد أرسل مساعديه لإجراء بعض الدراسات الاستقصائية. كان من بينهم أخي الأصغر غير الشقيق «عَنْخْ-خَافْ». أحببت سرعة بديهته وفضوله وحسه السليم، فقد درس العلوم الهيدروليكية في بيت الحياة. كان لديه معرفة موسوعية بكل ما يتعلق بنهر النيل وقنواته والفيضانات.

جاء تقرير معاينة الموقع قاطعًا وحاسمًا. فالأساس الحجري للهضبة مصنوع من الحجر الجيري من النوع الجيد؛ مما سيمكننا بسهولة من استغلال ذلك المحجر المكشوف هناك. سيتم استخدام هذا الحجر الأصفر الخشن لملء البنية التحتية الضخمة، ولكن أيضًا لإنشاء منحدرات وطرق وسواتر ترابية تسمح لنا بسحب

الكتل الحجرية. أكد الجيولوجيون أنه سيتم استخراج الصخور بسهولة. كانت هضبة الحجر الجيري، في الواقع، مخُططة من جراء انقسامات طينية رسمت نوعًا من القَطع المسبق للحجارة. كنا نأتي من راو (طرة)، على الضفة المقابلة للنيل، بالحجر الجيري الأبيض والناعم لعملية التهذيب النهائي للحجارة المنحوتة. أكد «عنخ-خاف» أنه سيكون من السهل حفر آبار لتوفير المياه للموقع وعماله، واقترح تحويل فرع من النهر لنقل المواد الخام -وحتى العمالة والضروريات الأساسية- إلى الموقع بالقوارب.

لقد تخيلت بالفعل الأكواخ والمخيمات التي ستستوعب آلاف الأيدي العاملة القادمة من جميع أنحاء مصر. ولماذا لا تكون قرية للفنانين والحرفيين المتخصصين الذين سيتم توظيفهم على مدار السنة من قِبَل التاج؟ كنت أريد، بطبيعة الحال، امتلاك قصر مع مبانيه الملحقة حيث يكون من السهل عليَّ الإشراف على الموقع.

«هنا»، أشرت آمرًا «حم-إيونو»: «أريدك أن تبني مسكني الأبدي هنا. ستكون آلية تسمح لي بالصعود إلى السماء للاتحاد والانصهار مع الإله «رع» بعد وفاتي، وبُنْيان معماري لا يمكن التفوق عليه، سيشهد لقرون قادمة على عظمتي وعظمة مصر. أريد صرحًا متناغمًا تمامًا يكون سطحه مثل المرآة التي تعكس الضوء. سيكون شديد الارتفاع، لدرجة أنه سيبدو وكأنه يُلامس الشمس نهارًا، والنجوم ليلًا.

- ألا تخشى يا «خوفو» أن تسيء إلى ماعت، إلهة الانسجام والنظام وأنت تحاول التفوق على أسلافك؟ ألست أنت الآن، أمام الآلهة وأمام البشر، الضامن لتوازن العالم؟ الذي هو، في المقام الأول، مرادف للاعتدال؟ هكذا سألني «حم-إيونو» بمنتهى الحكمة.

- لا يليق بك أن تعظني، يا ابن عمي، أولًا وقبل كل شيء لأنني الفرعون وأنت الآن مدين لي بالاحترام والطاعة!

تظاهر «حم-إيونو» بالسجود أمامي أنا، سيده، ووجهه إلى الأرض.

- اترك تلك التصرفات الصبيانية، لقد سمعتك ألف مرة تقول إنك ستتفوق على والدك الذي رافق أبي طوال حياته مشاركًا إياه هوس البناء، بل وأيضًا على «إيمحوتب»، أعظم عالِم وحكيم في كل العصور. أنا بحاجة إلى رجلٍ مثلك: واسع الاطلاع وحازم وطَموح. كما ترى، سيكون التحدي الذي يواجهنا هو أن نكون عملاقين دون أن نكون مصابين بجنون العظمة.

إن التفوق على أسلافنا مع تحقيق مفهوم الماعت على الأرض ليسا بأمرين متعارضين. البحث عن الكمال ليس خطيئة كبرياء أو دليلًا على أي تجاوز. سأتفوق على والدي ليس من حيث الكم؛ لأنه بنى أربعة أهرامات لنفسه، ولكن من حيث النوعية. من المؤكد أن الصرح الذي ستقيمه لي سيكون الأطول والأكثر

تعقيدًا على الإطلاق.

تجولنا حول الهضبة مرة أخرى للتأكد من إمكانات المكان ومناقشة البنية التحتية الأولية التي سيتم إعدادها. إنشاء فرع جديد للنيل، وأيضًا إنشاء ميناء مع أرصفة واسعة من شأنها أن تسمح بتسليم البضائع دون الوقوع في الوحل. كان الموقع مرتفعًا بما يكفي كي
لا يغرق أبدًا بالمياه أثناء الفيضانات الكبرى.

يقضي الفراعنة حياتهم في التحضير لموتهم، هكذا حدَّث «حم-إيونو»، وابتكار الحيل للحفاظ على قبرهم من الانتهاك، لكن براعة اللصوص تتجاوز دائمًا براعة أبرز المهندسين المعماريين. سيكون هذا المشروع بالنسبة لك اختبارًا لمعرفتك وإبداعك. أتمنى أن تبني داخل هرمي نفس هيكل الغرف السرية لمقبرة «تحوت»، إله المعرفة. سأذهب إلى مدينة هليوبوليس لأبحث في غرفة أرشيف بيت الحياة عن الكتاب المقدس الذي يحتوي على هذا السر، والذي لا يمكن الوصول إليه إلا من قبل الفراعنة. يقال إنه محفوظ بإحكام في صندوق من الحجر الصوان.

لم أجد كتاب «تحوت» السري. هل كانت مجرد خرافة لتحفيز إبداع الرجال؟ كانت متاهة الأروقة والغرف في مقبرته مخبأة بالفعل في الخيال البشري الرائع الذي لا حصر له. قمت أنا و«حم-إيونو» بتصميم صرح غير قابل للتدمير مع غرفة دفن غير قابلة للانتهاك؛ لأنه لا يمكن الوصول إليها. مثل حرم الإله، قررت أن يكون هرمي لغزًا مطروحًا على العالم إلى الأبد.

اعتمد مجلس الوزراء في جلسة استثنائية، إطلاق بناء المجمع الجنائزي، للفرعون «خوفو»، على هضبة الجيزة.

حضر الجلسة كل من:

كبير الوزراء: ممثلًا لجلالة الملك ومندوبه.

وزير الحربية: سيضمن تعزيز الأمن في مناطق استخراج المواد الخام: الحجر الجيري في رَاوْ (طرة)، والجرانيت في سِنُو (أسوان)، والمرمر في حَتْ نُوبْ (حتنوب)، والديوريت في الجنوب (توشكى)، والبازلت في بَا يَمْ (الفيوم)، والنحاس في «بجاو-مفكت» (سيناء).

وزير المالية: سيقدم بيانًا دقيقًا لثروة العرش المخصصة للأعمال في موقع البناء المستقبلي، ووضع جدول زمني للإعفاء الضريبي لجميع حكام المقاطعات الذين سيرسلون القوى العاملة والمواد الغذائية إلى موقع البناء الملكي.

وزير النقل: سيتخذ جميع التدابير اللازمة لزيادة معدل الإنتاج في أحواض بناء السفن وتحسين أسطول

سفن الشحن التي ستنقل البضائع والعمالة.

وزير التجارة: سيعزز أواصر الصداقة مع بلاد الشام، خصوصًا مدينة جُبيل، موردة خشب الأرز.

وزير الأشغال العامة والقنوات: سيشرف على تطهير قنوات النيل القائمة وحماية السدود، وسيقوم بحفر قناة جديدة وبناء ميناء جديد لخدمة هضبة الجيزة.

سيضمن الكاهن الأكبر لـ«رع»، الإله الحامي لموقع بناء الهرم، المحاذاة الصحيحة للهرم وفقًا للنجوم والجهات الأساسية الأربعة.

سيضمن كبير كهنة الإله «بتاح» رعاية موقع البناء؛ فالإله «بتاح» هو الحامي للحرفيين وعمال المحاجر وللتعدين ولأحواض بناء السفن.

فليعُلن جميع كتبة التوظيف في جميع أنحاء البلاد أن الفرعون أطلق البدء في العمل على الفور ويُعيَّن العمال الذين سيتم إيواؤهم وإطعامهم وغسلهم ودفع رواتبهم.

فليُقَمْ مخيم استقبال للوافدين الأوائل.

ولْيتم الشروع في بناء قرية أكثر تطورًا؛ مما سيسمح لاحقًا لرؤساء العمال والعمال المهرة بالعيش في الموقع على مدار السنة.

فليُبنَ مركز إداري مع مناطق تخزين للبضائع، ومكاتب للمحاسبين، والمهندسين المعماريين.

وليتم التخطيط لإقامة قصر مؤقت مع ملحقاته.

وليتم تحويل فرع من النيل وبناء مَرسًى للوصول بسهولة إلى هضبة الجيزة.

مُـوقَّع ومُصدَّق عليه من قبل «خوفو» ملك مصر العليا والسفلى، مَن وُهِب الحياة، والاستقرار، والقوة، إلى الأبد مثل «رع».

الفصل التاسع

في القرية

عندما عدت إلى المنزل، هُرعت أمي لرؤية ما تمكنتُ من مقايضته في السوق. كنت أرغب في إخفاء ثوب الكتان، ولكن كان من المستحيل أن أخفيه في الغرفة الوحيدة التي نتقاسمها جميعًا. أمسَكَتْ به وعندما انتزعتْه من يدي، تنقَّض الثوب وسمعنا صوت ارتطام مكتوم. كان هناك شيء ما قد سقط للتو وتدحرج عند أقدامنا. هذا الشيء كـان مذهلًا! كـان سوارًا من الذهب والفيروز، أحد تلك الأساور الفاخرة التي ترتديها تماثيل الآلهة خلال المواكب العظيمة.

– من أين سرقتِ هذه الحُلِيَّ، أيتها الخسيسة؟

– لم أسرق أي شيء. تلعثمتُ وأنا أجيبها، وتفاديت بالكاد الصفعة التي أرادت توجيهها لي.

– وهذا النسيج، هو من الكتان، أليس كذلك؟ ولكن لم أر مثله من قبل، كما لم يره أحد من قبل. إنه ليس نسيجًا بالنسبة لنا. من أين سرقتِه؟ وهَوَت عليَّ بيدها.

– لقد قايضتها بأفضل أنواع الرمان والعنب لدينا إذا كنت تريدين أن تعرفي كل شيء!

– هل تظنين حقًّا أنني حمقاء؟! من سيعطي مثل هذه الثروة مقابل بضعة كيلوجرامات من الفاكهة؟!

– تاجر. تاجر أقمشة يعمل مع القصر!

– تقصدين لصًّا، وجد طريقة جيدة للتخلص من سرقته بإعطائها لحمقاء صغيرة مثلك ثم يأتي ويهددنا لاستعادتها!

– كلا يا أمي. هذا الرجل صالح!

– أتعتقدين أن الرجال الصالحين موجودون؟ انظري إلى والدك وإخوتك الذين لا يفكرون إلا في إنفاق الفائض الضئيل من محاصيلنا على المشروبات وبنات الهوى. القليل، الذي يتركه لنا الكاتب الملكي الوغد.

– أمي، هذا الرجل لا علاقة له بأبي أو إخوتي أو الكاتب الملكي، وإلى جانب ذلك لا بد أن التبَس عليه الأمر، لم نتفق قط على مقايضة الفاكهة بالذهب! ربما لم يكن يعرف أن السوار كان في طيات القماش.

– أُزيدك بما هو أفضل: ابنتي قابلَتْ من هو أكثر غباءً وأكثر طيشًا منها: رجلًا لا يتذكـر أنه أخفى سوارًا من الذهب والفيروز في ثوب كتان!

فلتُنهي هذه المهزلة وتُخبريني فورًا وبشكل نهائي: إذا لم تسرقي أي شيء، فما الذي طلبه منكِ هذا الرجل مقابل هذه السلع الثمينة؟

انفجرتُ في البكاء ولم أُجِب. عاد والدي وإخوتي من الحقل وهم ثَمِلون قليلًا بسبب الجِعَة التي كانوا يحتسونها طوال اليوم. على الرغم من صراخهم وضحكاتهم السخيفة، بل وضرباتهم، بقيتُ صامتة.

أخذ «بانب»، أخي الأكبر، يتكلم بحمق:

– كلا، يا أمي، أنتِ مخطئة، إن «حنوت–سن» تقول الحقيقة بحذافيرها. التقت في «إِنبْ–حِدِجْ» بتاجر غني جدًّا لدرجة أنه ينثر مجوهراته في كل مكان! وإذا كان قد نثرها حتى في منزلنا، فذلك لأنه ينتظر شيئًا من غادتنا (تظاهر بأنه يداعب نفسه). وأضاف وهو يضع يده ما بين ساقيَّ: «سيكون أكثر دقة أن أقول، إن ما يمكننا –نحن الريفيين– الحصول عليه مجانًا، دفع هو ثمنه بالذهب والفيروز! ربما وقع في الحب، هذا الرجل! هل سنعرف؟ الأغنياء لا يفكرون مثلنا! وإذا كان في حالة حب، فعندئذ سوف نخرج أخيرًا من فقرنا المدقع بفضل «حنوت–سن» الصغيرة. سوف نأكل حتى نشبع، وننعم بالنوم عندما نكون منهكين، ونشرب النبيذ، ونترك هذا الحي الفقير لنستقر في المدينة! نحن نستمع إليك يا «حنوت–سن»، أخبرينا بالضبط من هو هذا الرجل، صِفِيه لنا، وأعيدي علينا كلمة بكلمة كل ما قاله لك، وأخبرينا أيضًا بالتفصيل عما فعله بكِ».

كررت مرة أخرى قصتي التي بدأت أحفظها عن ظهر قلب. لم أخبر أحدًا عن القُبلة التي تبادلناها، كنت أحرسها بغيرة في حديقتي السرية، التي كنت سأفتح بابها في تلك الليلة بالذات. في هذه الحديقة تبادلنا القبلات مرة واحدة، عشر مرات، ألف مرة. في هذه الحديقة الرائعة التي احتفظ قلبي وخيالي وحدهما بمفتاحها.

أرادت أمي تجربة السوار عليها لكن معصمها كان غليظًا جدًّا واضطرت إلى التراجع عن فكرتها. أعادته مرة أخرى داخل ثوب الكتان الذي وضعته في الصندوق الوحيد الذي يؤثث منزلنا. كان يحتوي على كل ثمينٍ لدينا: سترات رديئة، غيارات من الإزارات، شالين، حزام من الخرز، وصنادل مصنوعة من بردي، وحقيبة مصنوعة من جلد فرس النهر.

قرر والدي أن نعود جميعًا معًا في اليوم التالي، يوم العطلة، إلى سوق «إِنبْ–حِدِجْ» بحثًا عن هذا الغريب. أمر أن أستحم وأرتدي ثوبَ وصندلَ الأعياد وسوف تجدل أمي شعري وتصففه بالزيت وتزينه بالشرائط الجميلة.

قرر إخوتي الأغبياء أن أتزوج من هذا التاجر الكريم، حتى لو كان في نهاية الأمر مجرد لص وقاطع طريق،

ذهبوا للشرب في أقرب حانة للجعة للاحتفال مقدمًا ببداية حياة جديدة مترفة في ممفيس. كانوا سعداء بالتخلي عن قسوة حياة الفلاحين، وبمشاركة صهرهم المستقبلي، كما زعموا، في تجارة الأقمشة التي لم يعرفوا عنها شيئًا على الإطلاق.

لم أستطع النوم. أغمضت عينيَّ واستدعيت صور هذا الرجل الذي كان يرتدي إزارًا وهو على متن قاربه، والذي كان يلعب مع أصدقائه ليُسقط بعضهم البعض في الماء. أخذت أفكر في بنيته الرياضية، في نظراته الحزينة، في يده اليمنى، التي أمسكت بمعصمي بقوة لدرجة أنها تركت علامة تميل إلى الحُمْرة، جالت بخاطري يده اليسرى التي ضغطت على خصري وجذبتني إليه، وشفتيه السميكتين اللتين أحببت العَضَّ عليهما.

كنت قد أتممت لتوِّي عامي الثالث عشر. تركت على الشاطئ سلة الغسيل النتن والرمادي؛ للذهاب والاستمتاع مع الأولاد الذين يصطادون السمك بأيديهم في النهر. ضحكت لأن الأسماك كانت تفل بين ساقيَّ، وعندما أمسكت أخيرًا بواحدة انزلقت من بين أصابعي. كان الصبيان أكثر مجازفة. كانوا يزيحون أسماك البلطي المستقرة تحت الحجارة، معرضين أنفسهم لخطر التعرض للَّسع أو القضم من قِبَل حيوان آخر، ربما يكون سامًّا. كان النيل موطنًا للثعابين الراقدة بين العشب، وبالطبع التماسيح. كان الصبيان عنيفين وقُساة. كانوا يمسكون بأسماك البلطي ويقتلونها عن طريق دفع أصابعهم في خياشيمها، ثم يروون عن إنجازاتهم من خلال تضخيم حجم صيدهم في كل مرة، والذي قد يصل أحيانًا، وفقًا لرواياتهم، إلى حجم الماعز! لقد كانوا كاذبين محترفين، يحبون أن يجعلوا الأمر يبدو وكأنهم أكثر لياقة وأكثر ذكاءً مما كانوا عليه في واقع الأمر، كما كانوا يهوون مضايقة الفتيات المتهورات اللائي يغامرن ويذهبن للصيد؛ ولكنهن -يجب أن أعترف- لم يكنَّ كثيرات.

كانت معظم الفتيات يفضلن الاعتناء بالغسيل الخاص بالعائلة، ونسج السلال، وإطعام الحيوانات، وطهي الطعام، والحفاظ على الصغار الذين بدءوا في الحَبْو على أربع أو الركض بخطوات مترددة نحو ضفاف النهر. هذا هو السبب في أن أمي -التي كنت مخطئة في الوثوق بها والبوح إليها- بعد فترة طويلة لم تُعِر أي اهتمام لما حدث لي في ذلك اليوم؛ كنت أستحق ما حدث لأنني ذهبت أتسكع مع هؤلاء المُريبين! لأنه بالإضافة إلى كونهم متفاخرين وكذابين، وبالإضافة إلى إقامتهم لمسابقات الصيد، أو الجري، أو القفز، أو السباحة، فهم يختلقون قصصًا ويضحكون خفية بمكر وهم يكشفون عن «الأداة» المعلقة بين أرجلهم والتي كانوا فخورين بها للغاية.

كان فضولي لمعرفة ما هي المهارات المذهلة «لأدواتهم» إلى جانب التبول لأبعد مسافة ممكنة، هو الذي تسبب في مصيبتي. وافقت على اتباع أخي «بانب» وأصدقائه الأكبر مني قليلًا. أكدوا لي أنني سأرى أشياء

غير عادية لا ينبغي أن أخبر أحدًا عنها. كم كنت حمقاء! عندما وجدت نفسي مثبتة على الأرض من قبل هؤلاء الفتية الذين أمسكوا بي بقوة، سمعت البقرة تخور، والأتان تنهق، لكنني كنت أنا التي تصرخ وتتعارك للخلاص منهم. كانوا خمسة بمن فيهم أخي. كان هو أول من تهجم عليَّ، حق البكورية، كما زعم! أنهى الآخرون مهمتهم سريعًا واختفوا. كنت مُتَكَومة في زاوية داخل الكوخ حيث جروني، ورأيت كل واحدٍ منهم وهو يعطي أخي السمكة التي اصطادها. كنت أساوي بالضبط أربع أسماك بلطي نيلي، وسيدَّعي «بانب» أنه هو من اصطادها بنفسه. عندما تمكنت من النهوض، ذهبت لغسل الدماء التي سالت ما بين فخذيَّ. عدت إلى المنزل لتناول وجبة المساء: أسماك العار التي كان والدي قد شواها، عاري أنا. لم أقل شيئًا، ولم أفعل شيئًا للإشارة إلى الجاني الرئيسي. كان ينظر إليَّ بنظرات فاحشة وابتسامة خسيسة بينما كان يزيل من فمه الحَسَك الذي ظل عالقًا في لحم السمكة. كان الأمر غريبًا، لقد تعرضت لاعتداء وحشي على شرفي، ولكني كنت أنا من يشعر بالذنب. كان ذنبي مشوبًا أيضًا بالخوف: كنت خائفة من الأعمال الانتقامية التي هددني بها «بانب». لقد مارس «حق الليلة الأولى» مع الإفلات من العقاب. كنت أشعر بالذعر من مجرد فكرة أنه قد يكرر ذلك مرة أخرى. ما كان مرعبًا حقًّا هو أنه عندما تواجدنا وحدنا كان مؤمنًا أن له كل الحق في ذلك كذَكَر منتصر.

– ألم يتزوج الفرعون الجديد «خوفو» من أخته الملكة «ميريت إت إس»؟ ألم يكن من المفترض أن يكون قدوة لرعاياه؟ هكذا مازحني أخي. ولكنه كان يعرف أن الملك هو أوزوريس وأن الملكة هي إيزس وقد تزوج أوزوريس من أخته إيزس لذلك كان الحق لزواج الأخ من أخته للملوك فقط وليس لعامة الشعب.

– تزوجتْ بالفعل، لكنها لم تُغتصب، ولم تُقدم كلعبة جنسية لأصدقائه. هكذا أجبته.

– كيف يمكنكِ أن تكوني متأكدة من ذلك؟ ضحك في وجهي. ماذا تعرفين، أنت، عن عادات القصر؟

كان والداي يَغطّان معًا وكنت أسمعهما يتقلبان في نومهما، حتى إن أمي نطقت بكلمات غير مفهومة. نهضت لتشرب من القُلّة وعادت إلى النوم في الحال. جاءت اللحظة: إما الآن أو أبدًا.

نهضت بحذر شديد. كنت خائفة جدًّا لدرجة أن صوت تنفسي بدا لي وكأنه الرعد. توجهت إلى الصندوق. تمكنت من فتحه بضربة حادة دون أن يصدر أي صرير لأجد ثوب الكتان. استوليتُ عليه، وتأكدت من أن السوار لا يزال بداخله. ركضت إلى الحظيرة أتوسل إلى «بابا»، حماري، ألَّا يصرخ. ربَّتُّ على ظهره، وأغريته، وأعطيته الحلويات. وضعت السلتين فوق ظهره وأخفيت بداخل إحداهما قطعة الكتان والسوار الذي كنت قد لفَفته بقطعة قماشٍ قذرة. غطيت كل شيء بالفواكه والخضراوات التي كنا سنبيعها في السوق في اليوم التالي. أخذنا الطريق. ستكون رحلة طويلة، على طول نهر النيل. كنت أملك الذهب

والفيروز، والكتان الملكي، لكن لم تكن معي تكاليف ركوبنا القارب أنا و«بابا»، كما أنني لم أرغب في لفت الانتباه إلينا. كان حَرِيًّا بنا أن نجعل كل قرية نعبرها تعتقد أننا من سكان القرية التي تسبقها. سيروي النيل عطشنا ونغتسل فيه. كما كان أيضًا نقطة إرشادنا الوحيدة. كنت قد قررت الذهاب جنوبًا إلى مقاطعة الجميز حيث عاشت أختي الكبرى «ميريت». كان والدي قد زوَّجها من قريبٍ لنا يعمل خبازًا، وكان لديهما ثلاثة أطفال. آخر مرة خبرنا بهم كانت منذ ثلاثة أشهر. لم نتواصل أيضًا معهم لأن الاتصال عن بُعد معقد ومكلف. كنا أميين وكان علينا أن ندفع لكاتب عام مقابل كتابة وقراءة رسائلنا، كما كان علينا أيضًا أن ندفع للرسول الذي يسافر ما بين القريتين.

ونظرًا للسرعة التي كان يسير بها «بابا» كان أمامنا أسبوع، على الأقل، من السير حتى نصل؛ خصوصًا أني لم أكن أريد أن أضرب ظهره.

الفصل العاشر

اختفاء «حنوت-سن»

ولكن أين يمكن أن تكون قد ذهبتْ عديمة الأخلاق والضمير هذه؟ لقد اختفت مع الكتان والسوار؛ الثروة الحقيقية الوحيدة التي كنا نملكها، كما أنها سرقت «بابا»، وسيلة النقل الوحيدة لدينا. كنا نُؤجِّر حمارنا بانتظام لجيراننا للقيام بوظائف صغيرة وكبيرة، لا يهم، ما داموا لم يتسببوا في إصابته بالإنهاك أو المرض أو الجروح الخطيرة. ولن نتمكن بعد الآن من الاستفادة من هذا الدخل الإضافي. كان أبي وأمي غاضبَيْن وكانا يلعنانها. أما إخوتي الكبار فكانوا متجهمين وكئيبين كالمعتاد.

كنت أنا مَن أبلغ شرطة الفرعون عن «حنوت-سن» عندما وصل أربعة رجال في الصباح الباكر للتحقيق. كانوا يبحثون عن فتاة فلاحة شابة، أسنانها الأمامية مُتفلجة مثل أسنان القوارض الصغيرة. على حد علمي، وفي نطاق منطقتنا وحتى عشرين كيلومترًا، كانت «حنوت-سن» فقط هي من لديها هذا العيب الذي كان موضعًا لسخريتنا في كل مرة فتحت فيها فمها.

يجب أن أعترف بأنني كنت خائفًا في البداية، واعتقدت أنهم جاءوا من أجلي؛ لأنني كنت قد قضيت في الليلة السابقة سهرة صاخبة في منزل للجِعَّة، ويبدو أنني أسأت معاملة امرأتين فقيرتين رفضتا أن تفعلا ما طلبته منهما حيث استمتعت أنا وإخوتي بصفعة مستحقة وتسببت في كدمة في عين إحداهما وتورم في أنف الأخرى. استمتعت أنا بالأخص؛ لأنني عندما أتجاوز الجرعة المعقولة من الجِعَّة ينطلق خيالي وأخترع ألعابًا رائعة. أُصبح حينئذ متسلطًا وعنيفًا ووحشيًّا، لكن الفتيات يعشقن ذلك! إنها لعبة ليس أكثر وهن يعلمن ذلك.

عَرَقُ التمر أيضًا كان قد لعب بعقلي، أعترف بأنني لم أتذكر جيدًا ما تألفت منه هذه الألعاب. ادعت إحداهن -وكانت عاهرة تظهر ثدييها لجميع المارة بالشارع- أنني قمت بالاعتداء عليها دون موافقتها. عاهرة تدَّعي أنها تعرضت للاغتصاب، هذا شيءٌ غير مسبوق! لو كانت صادقة لكان ذلك على مرأى ومسمع من الجميع! لا يمكن لأحد أن يصدق مثل هذه البلاهة. وعلى الرغم من ذلك، انتابني القلق عندما رأيت وصول ضباط ليسوا من الضباط المحليين الذين اعتدت أن أشرب وألعب النرد معهم حتى أزعج الشيطان -أولئك الذين يمكنني رشوتهم بسهولة- ولكن من جاءوا كانوا من حرس الفرعون، أولئك الذين يشدون وسطهم بحزامٍ به خنجر. كانت تتقدمهم كلاب الصيد الخاصة بهم، وكانوا على استعداد للهجوم حيال أي تصرف مشبوه. كانوا يبحثون عن فتاة تتطابق أوصافها مع أوصاف «حنوت-سن».

بالتفكير مرة أخرى في السوار، قلت لنفسي إنَّ عليَّ توخي الحذر مع الشرطة الملكية؛ لذلك أخبرتهم بكل ما أعرفه: لقد قابلتْ أختي رجلًا تظاهر بأنه تاجر ثري، ولكنه بالتأكيد مجرم؛ لأنه كيف يمكن لتاجر ثري أن يعير اهتمامًا لهذه المهملة القذرة؟ طلب منها هذا التاجر المزعوم إخفاء سوار من الذهب والفيروز وقطعة من الكتان في منزلنا. لكن لا، لسنا مثل تجار المسروقات! صادرناها منها بنيَّة أخذها كدليل هذا الصباح إلى الشرطة المحلية. ولكن يا للأسف! كانا قد رتَّبا جيدًا لضربتهما! بينما كنا نائمين، كانت أختي قد جمعت غنائمهما وهربت مع حمارنا. لا يحتاج الأمر لكبير كهنة لمعرفة أنها ذهبت للقاء شريكها، ومن المؤكد أنهما هربا معًا.

♀

الاسم: حنوت-سن.

العمر: خمسة عشر عامًا.

علامة مميزة: الأسنان الأمامية مُتفلجة.

العمل: فلاحة.

الموقع: مقاطعة «إنبْ-حِدِجْ».

العائلة: الأب، والأم، و3 إخوة.

الشاهد الذي تم استجوابه: «بانب» الأخ الأكبر، ويتهم شقيقته بسرقة الكتان وسوار من الذهب والفيروز مع رجل يتظاهر بأنه تاجر.

أمرنا بالمغادرة في الصباح الباكر وإحضار الفتاة إلى القصر. هذا الاستعجال لم يكن مؤشرًا جيدًا بالنسبة لنا. ما الذي اقترفته هذه الفتاة يستدعي اللجوء للجهاز السري للفرعون؟ لا بدَّ أن يكون السحر؛ فالنساء الفلاحات جيدات جدًّا في صنع جميع أنواع السحر والأعمال. هل خططت لمحاولة اغتيال الملك، هذه الجريمة التي عقابها الإعدام؟ لكن لماذا؟ لقد تركت العائلة انطباعًا جيدًا لدينا: فلاحون شجعان بلا تاريخ. بقي أن ننقب عن هذه القصة المبتذلة للتاجر المزيف وسوار الذهب والفيروز. بالتأكيد، لن نعود إلى بيوتنا الليلة، فقد كانت التحقيقات تزداد تعقيدًا. نحن نبحث الآن عن لصة، وعن شريكها، الذي صمم خطة بارعة للاختفاء. غفلنا عن أخذ أوصاف الحمار، وهو خطأ مهني فادح لو علم به رئيسنا. أمضينا بقية اليوم في استجواب المراكبية الذين ينقلون الركاب وحيواناتهم من ضفة إلى أخرى أو مراكبية المعدِّيات التي تعمل جنوبًا. لم يأخذ أحد على متن معدِّيته شخصًا يطابق أوصاف الشابة. طالبنا بتعزيزات. ستغادر مجموعة إلى

الدلتا وأخرى إلى الجنوب.

♀

كان «بابا» يَطْفِرُ مرحًا إلى جانبي. كنت الوحيدة في أسرتي التي آمنت بأنه ذكي وحساس. أما بالنسبة للآخرين فكان مجرد أداة حية، حيوان حمولة عنيد وأحمق. على العكس من ذلك، لاحظت أنه كان حكيمًا وحريصًا، يلاحظ جيدًا البيئة والتضاريس التي نسيرُ فيها، ولكن أيضًا الأشخاص والحيوانات الذين نقابلهم في الطريق. لقد فهم أننا في خطر، وتواصل معي من خلال لغة الأذن؛ فعندما كانت أذناه متوجهتين إلى الأمام كان هذا يعني أنه يستمع إلى ما أقوله. أما إذا كانتا إلى الأمام ولكن رأسه منتصب فكان هذا يعني أنه خائف، وإذا كانتا إلى الخلف فهما ترمزان إلى رغبته في اللعب، لكن لو كانتا إلى الخلف مع الأسنان إلى الأمام فهذا يعني أنه غاضب. كان لدى «بابا» القدرة على فصل أذنيه إحداهما عن الأخرى؛ مما يُمكِّنه من عزل صوتين في وقتٍ واحد، على يساره وعلى يمينه، وكان هذا الأمر يجعل هيئته مضحكة في بعض الأحيان.

لم يكن لديَّ أي مشكلة في أن أجعله يطيعني، ولكن في كل مرة كان لديَّ انطباع بأنه يمتثل لأوامري لإسعادي فقط؛ حيث كان جليًّا أنه لا يهابني؛ فلم أقم بضربه قط، ولم ألمسه إلا للرَّبْت على ظهرهِ. كان «لبابا» شخصية مميزة على رغم كونه حمارًا، كان يفكر أكثر مما يبدو عليه، وكان دليلي على الطرق وحارسي، كان أول كائن حي يهتم بي حقًّا ويلعب معي، كان يدفع بشفتيه الكبيرتين الحوض الذي يُجلسني فيه والداي لغسلي عندما كنت صغيرة، وكان ينتهز الفرصة للَعْق الماء محدثًا أصواتًا عالية ورذاذًا؛ مما كان يجعلني أقهقه بشدة.

كان «بابا» شرهًا بشكل لا يُصدَّق؛ فكان يأكل كميات كبيرة من جميع أنواع الأعشاب، حتى السيئة منها، ثم يطلب بعدها شرب لترات من الماء! كان أكولًا أيضًا، كان يعشق أن يعَضَّ بأسنانه الكبيرة -التي تبتسم لي- قطع الخبز الصلبة جدًّا التي كنت أحفظها من أجله. وفي المساء، كان يستسلم للتنظيف بالفرشاة والتدليك ويُهَمْهِم مستمتعًا. كنت فخورة -بقدر ما كان هو فخورًا- بشعره الجاف اللامع، وكنت أغمره بالقبلات. نعم، أحب «بابا» ولا أشعر بأي خجل من الإفصاح بذلك.

كنا نسير منذ عدة أيام حينما توقف فجأة ورفض المضي قدمًا. تحدثت إليه عبثًا، واحتضنته، ثم شددت حبله، دون جدوى! كنا نقترب من قرية الجميز. كانت أذناه إلى الأمام ورأسه مرفوعًا إلى السماء. أخذ ينهق ويُقوس ظهره، وثبت حوافره الأربعة في الأرض، ورفض المضي قدمًا. قررت مواصلة رحلتي وحدي. كنت أعرف أنه سيتبعني عاجلًا أم آجلًا. مشيت بضع مئات من الأمتار وما رأيته أذهلني.

كانت الحقول قد اختفت، وكذلك أوراق نخيل التمر. لم تكن هناك أي نباتات أو زهور برية أو أعشاب

ضارة. لم يعد للون الأخضر وجود. لقد أضرمت النيران في كل شيء. مشيت على الأرض المغطاة بالأغصان المتفحمة التي كانت تتكسر وتتحول إلى رمادٍ تحت أقدامي. تبعني «بابا» مترددًا في كل خطوة. لقد رأى ما لم أره، فهذه الأغصان كانت في الحقيقة آلافًا من الجراد المتفحم والملتف حول بعضه البعض مُكونًا بساطًا هائلًا من الحشرات. بدأت أصرخ في رعب وشعرت بخطْم «بابا» الدافئ على جانبي. جاء كلبٌ أعجف ليتجول بالقرب منا. كان يعرج، وكان لديه جرح رهيب في جانبه. التهم الخبز الجاف الذي أعطيته إياه، ونظر إلينا بعينيه الواسعتين الحزينتين. اسْتَصْحَبَنا إلى القرية. كانت بعض أبواب الأكواخ مفتوحة، وعندما كنت أغامر بالنظر إلى داخلها كنت أرى تَلًّا من الحشرات الغازية، بعضها لا يزال يتحرك. هل التهموا جميع السكان؟ هذا التصور المخيف أصابني بالرعب. كان وصولنا قد أثار فضول البعض؛ مما دفعهم إلى المجيء؛ كائنات هزيلة لم يتبقَّ لديها من صفات بشرية سوى نظرة توسل وأيادٍ متلهفة على تجريدنا من الخبز والفواكه والخضراوات التي بقيت في سلال «بابا». سدد لهم، هذا الأخير، ضربات قوية بحوافره لتجنب أي هجوم من جانبهم.

عثرتُ بسهولة على منزل أختي «ميريت» المُجاور للمخبز. كانت ستائره المصنوعة من الخوص منسدلة وقامت العديد من الحشرات، الراقدة على الأرض والمكومة في تلال، بالتهامها. لم تنطق ببنت شفة، لكنها عانقتني بقوة بذراعيها النحيلتين ولمرات عديدة، لدرجة أنني اعتقدت أنها لن تنكسر هي، بل ستسحقني أنا. أصرتْ على أن يدخل «بابا» أيضًا إلى المنزل. أوضحت لي أنه كان معُرضًا لخطر التهجم عليه من قِبل الجياع الذين كانوا لا يزالون يحومون في القرية، فهؤلاء لم يأكلوا اللحم أو طعامًا مغذيًا منذ أسابيع عديدة؛ مما جعلهم عدوانيين، والبعض قد جُنَّ جنونه. لقد كنت غبية حقًّا عندما سمحت بسرقة زادنا. لم يكن لدى «ميريت» ما تقدمه لنا سوى الماء الساخن المنقوع فيه بعض الجذور. كانت وحدها مع صغارها الثلاثة الذين ينامون على كومة من الخرق. كان زوجها «بدجا» قد عقد العزم على تركهم بحثًا عن عملٍ في إِنِبْ-حِدِجْ. أعربت عن حيرتها؛ لأنه لم يأت إلينا. وأخيرًا أخبرتني بما حدث للقرية. كانت قصتها تشبه قصة نهاية العالم.

♀

كما تعلمين يا «حنوت-سن»، كنا جميعًا نعرف تلك القصص عن الجراد الغازي التي كان يرويها الكبار في جلسات السمر. لم يكن أحد يصدقهم حقًّا، وكنا نعتقد أنهم يبالغون ويستمتعون بإخافتنا. لكن ما كانوا يحكونه -أو ما تبقى بعد مروره في ضباب الذكريات البعيدة- كان أقل بكثير من الحقيقة. تقع قريتنا في مُنخفض يحتفظ بالحرارة والرطوبة. ومع ذلك، في الآونة الأخيرة سقطت -على غير العادة- أمطار نافعة على حقولنا وفي الواحة، لدرجة أن الآبار فاضت، وأعقب البرودة أيام من الحرارة الشديدة. هذه هي

الظروف المثالية التي تجعل الجراد يظهر وينتشر. إنه ليس خطرًا عندما يكون معزولًا، ولكن عندما يتجمع في أسراب يصبح جيشًا حافلًا لا يشبع ويلتهم كل شيء في طريقه. لكِ أن تتخيلي أن هذه الحشرات عندما تبلغ تنمو لها أجنحة وتبدأ في الطيران مثل الطيور الصغيرة الحجم. رأينا سحابة سوداء ضخمة وصاخبة تهبط فوق القرية. كانت كتيبة منظمة حقًّا، سرعان ما تبعتها كتائب أخرى تركض في كل مكان وتتسرب حتى إلى داخل المنازل، في أصغر فجوات الأثاث أو الحصير أو السلال. كانت الأمهات يخشين أن تلتهم هذه الوحوش أطفالهن؛ فهي ذات أرجل وفكين لم تستطع أي ناموسية أن تمنعها من الدخول وأن تحبسها بالخارج.

حسَّ الجراد كل شيء وجده في طريقه. انتشرنا جميعًا في الحقول لتخويفه عن طريق الدوران وعمل حركات دائرية بأذرعنا. أخرج أهل القرية الصنوج والدفوف؛ لأن هذه الحيوانات لا تتحمل بعض الذبذبات مما يدفعها للهرب. لكن لم ينجح أي شيء معه. وحتى نمنعه من مهاجمة الصوامع ومخزون الحبوب لدينا كان علينا أن نعقد العزم على إشعال الحرائق في كل مكان حول القرية وحتى في بقية محاصيلنا بحيث يتم تحميصها في نفس الوقت مع الجراد. كان من المفترض أيضًا أن تدفعه رائحة الدخان الكريهة إلى الرحيل، لكن لديه دروع قشرية مقاومة للغاية وقدرة على التكاثر بسرعة مذهلة. لم ننجح في القضاء عليه. ولكي نطعم أنفسنا قمنا أولًا بشَيِّ الماعز والأغنام، فعلى أي حال لم يكن لدينا علف لإطعامها. ثم شوينا دجاجنا حيث لم يعد لدينا حبوب لتغذيته. وأخيرًا، كلابنا وقططنا. حتى إنه تفتق ذهننا أن نأكل الجراد الذي كان طعمه لذيذًا جدًّا وهو مشوي. لقد كان يلتهم بعضه البعض أيضًا عندما لم يتبق شيء يؤكل.

كنا قد أرسلنا رسلًا إلى أقرب بلدة لطلب المساعدة من «إيكر» حاكم المقاطعة، ولكن لم يعد أحد. ثم أرسلنا وفدًا من النساء إلى معبد الإله «رع» في منطقتنا. لم يداهم الجراد لا حرم المعبد
ولا مخازنه العامرة بما لذَّ وطاب. كان أمرًا طبيعيًّا! لأن المعبد وملحقاته يتمتعان بالحماية الإلهية. حرص الكهنة -بناءً على أوامر الحاكم- على الإبقاء على مخازن الحبوب الخاصة بهم، وبساتينهم وحدائقهم مغلقة. أجبرونا على العودة من حيث أتينا كما لو كنا أشرارًا خطرين. على الرغم من أنه تم إنقاذ ممتلكاتهم بفضل الحرائق التي أشعلناها والتضحية بقريتنا. ثم قررنا أن يذهب جميع الرجال القادرين إلى العاصمة للبحث عن عمل، أو حتى المساعدة. فضَّل البعض الذهاب إلى أسرهم في دلتا النيل، مع زوجاتهم وأطفالهم، حيث كل شيء متوفر ومتاح؛ لهذا السبب لن تَجِدي هنا إلا أولئك الذين لم يكن لديهم خيار آخر سوى البقاء؛ كبار السن، والمعوَّقين، والنساء، والأطفال.

♀

كان لديَّ حل لمعضلات كثيرة؛ بفضل سوار التاجر الكريم الذي أعطيته للكاتب المحاسب في صوامع الحبوب في المقاطعة؛ ظهر فجأة وبمعجزة الخبز والجعة والفواكه والخضراوات واللحوم المجففة والأسماك المملحة والحيوانات ذوات الأربع: الماعز، والأغنام، وبقرتان، وحمار، وخصصت استحقاقات أخرى للقرية. تلقى السكان إزارات، وسترات، وأقمشة جديدة، ونطرونًا للاغتسال. جاء متطوعون من النجوع المجاورة التي لم يدمرها غزو الجراد لحفر تجاويف عميقة دفنوا فيها أكوام الحشرات المتفحمة. قالوا إن تلك الحشرات ستكون أسمدة ممتازة للحصاد المقبل. وجاءت المرضعات لإرضاع الأطفال؛ لأن ضُروع الأمهات قد نَضَبتْ بسبب سوء التغذية. بُعثت القرية من جديد من رمادها، حتى إن حاكم المقاطعة «إيكر» -هذا المسئول الكبير الذي كان منوطًا به التنظيم الإداري والاقتصادي للمنطقة- ظهر بنفسه. كان يريد إجراء مسح للقرى التي لم ترسل عمالًا للعمل في أراضي التاج أو مزارع المعابد لعدة أسابيع. كان هناك نقص حاد في الأيدي العاملة. لقد استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتفاعل ويدرك هذا الحاكم أن الفلاحين لا يأتون. وكيف تجاهل هذا الحاكم صاحب النفوذ الكبير والعالم ببواطن الأمور، لفترة طويلة، المحنة التي كانت تمر بها القرية؟ وقد أُرسلت إليه رسلٌ، وذهبت مجموعة من النساء إلى بوابات معبد «رع»، يتضوَّرن جوعًا ويطلبن المساعدة. فلماذا لم يحرك ساكنًا؟ ألم يستخدم القرية كدرع بشري لحماية معظم المنطقة التي كان هو مسئولًا عنها؟ لقد كان على حق؛ لأن أهل القرية قد قضوا أخيرًا على غزو الجراد بالتضحية بأراضيهم ومنازلهم وحتى أسرهم. حذرتني «ميريت» من إذاعة تحليلي الشخصي للوضع والبوح به على الملأ؛ لأنها لا تريد أن تقع في مشكلة.

إذا كان «إيكر» قد تحرك في ذلك اليوم على كرسيه المحمول، فلم يكن ذلك احتفاءً بالناجين القلائل من هذه المجاعة الرهيبة، من النساء والأطفال وكبار السن. كان مدفوعًا بالفضول والبحث عن المصلحة. أراد أن يعرف من هي صاحبة الأسورة الاستثنائية التي قبلها موظفوه مقابل المساعدات الغذائية المتأخرة. أراد أيضًا التحقق مما إذا كنت أمتلك كنوزًا أخرى يمكن أن يستولي عليها. لكن هذا الرجل الصغير السمين الذي كان صوته يشبه صوت امرأة قد فوجئ بفتاة صغيرة جدًّا تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا وأختها الكبرى مثقلة بثلاثة أطفال صغار.

عندما أجرى ضباط الشرطة المَلَكية التحقيق في مقاطعة الجميز، كان «إيكر» هو من أبلغ عني. وبعد فترة الفوضى التي واجهتها القرية قال إنه مصمم -باسم الفرعون- على جعل الماعت يعم المنطقة بأكملها، بدءًا من مطاردة جميع لصوص الطرق السريعة.

الفصل الحادي عشر

صُنع الملك

سُجِّل في حوليات عهدي أن أول قرار اتخذته كان تعيين ابن عمي «حم-إيونو» وزيرًا، وهكذا أصبح الرجل الثاني في المملكة ومدير جميع الأعمال الملكية؛ ممَّا مهَّد لقراري الثاني: بناء مجمعي الجنائزي. وأخيرًا، كان قراري الثالث هو إنشاء عاصمة جديدة على الفور، سأحكم مصر، من الآن فصاعدًا، من الجيزة. ولمَّا كانت الحاشية حريصة على مصدر دخلها وعلى المناصب الفخرية واقتناء كل ما هو حديث؛ فقد تبعتني.

وحتى أكون صادقًا -أشعر بالخجل من كتابة هذه الكلمات اليوم؛ لأن هذه الحقيقة تجعلني قائدًا مزاجيًّا وغير ناضج- فإن قراري الأخير لم يكن نتيجة فكر سياسي، بل أملاهُ عقل مُحب. إذا كنت قد أردت الانتقال في أسرع وقت ممكن؛ فذلك لأنني رغبت بشدة أن أعيش كما يحلو لي إلى جوار «حنوت-سن». في ذلك الوقت، كان عليَّ مواجهة تحديين متعارضين تمامًا؛ الأول: فرضته عليَّ هذه الفتاة الصغيرة التي لا تُقاوَم ذات الأسنان المُتفلجة والتي وقعتُ في حبها بشكل جنوني. والثاني: من قِبل أمي التي كانت صوت العقل.

بمجرد أن علِمتُ أن أجهزتي السرية قد عثرت أخيرًا على «حنوت-سن»، أمرتهم بإحضارها على وجه السرعة إلى القصر، إلى جناحي الخاص. كان «برني-عنخو» متواطئًا معي وكان هو الذي أعدَّ الأجواء، بما في ذلك إضاءة القاعات التي ستستقبلها. كنت راغبًا في ترويضها مثل تلك الغزلان الصغيرة التي اختطفتها من الصحراء وأطعمتها في حديقتي. كانت الغزلان رشيقة وخائفة ولا تزال محتفظة برغبتها الفطرية في الفرار. كنت أعرف أن «حنوت-سن» ستُعجب بجمال القصر وفخامته. أُريدها أن تنبهر فقط، لا أن تُصدم.

تأنقت بأرقى ما لدي: قطعة قماش مطرزة بخيوط ذهبية، وصندل متجانس معها، وحزام من الأحجار الكريمة، وصدرية ثقيلة تحيط بحلقي وصدري، عليها اسمي المحفور المحمي في خرطوشة، وكان يعلو نقش للإله «رع»، الماجد في قاربه الشمسي تحت «النِّمِس»، غطاء الرأس الفرعوني، المُثبت فوق رأسي بتاج انبثق منه ثعبانان حاميان، كنت قد رسمت عيني باللونين الأخضر والأسود. كان على ساعدَيَّ ومعصمَيَّ أساور عريضة مصنوعة من الذهب والفيروز. أخذتُ أحوم حول جناحي الذي تفقدته عدة مرات للتحقق من تنسيقه وترتيبه. أردت أن يكون كل شيءٍ على أكمل وجه. تم إسدال الستائر بينما ألقت مصابيح الزيت بضوءٍ رائع على الأشياء وعلى الأثاث مما جعلها تتجسد كظلال شاعرية عظيمة تتراقص على الجدران. كان السرير مغطًّى بأنعَم الوسائد وحُرِق البخور في كئوس كبيرة من المرمر. كانت الزهور في المزهريات وجلود النمور النوبية الكبيرة مبسوطة على الأرض. كل هذه الأشياء ستشاركني قريبًا عشقي الذي سأبوح به

لـ«حنوت-سن». توَلَّدَ بداخلي شعور بالإثارة لم أعشه قط من قبل، من جراء هذا الانتظار القلق والطويل. كلما طال الانتظار، تخيلت السعادة الهائلة التي ستسفر عنه وسأنعم بها.

لم يكن لديَّ خيار سوى اتباع رجال الشرطة الملكية. ربما كانت عائلتي على حق: كان التاجر الوسيم مجرد بلطجي وساعدته بحماقة في إخفاء مسروقاته. يا له من سوء فهم بغيض! كان من الواضح أنني كنت أُعتبر شريكته! إلا أنه لم يتوقع ما فعلته بهديته، ولا بد أنه مُنزعج بشدة في هذه اللحظة. هل كان ينوي الانتقام من عائلتي؟ وهل اعتُقِل واستُجوِبَ وسُجِنَ؟ القسوة التي تعاملت بها الشرطة معي جعلتني أعتقد أنهم سيأخذونني إلى السجن مباشرة. وافقوا على السماح لـ«بابا» بمرافقتي فقط من أجل إعادته إلى والديَّ اللذين اتهماني بسرقته منهما. كان من غير المُجْدي لي أن أخبرهم أن «بابا» كان فعليًّا حماري أنا. فعندما وُلِدَ كانت أمه، أتان عائلتنا، قد رفضته تمامًا ولم ترغب في إطعامه، بل كانت تعضه وتركله بحوافرها. كان لا بد من فصلهما، وتُرِك الجحش وظنوا أنه مات. كنت أنا من قام بإطعامه أربع مرات في اليوم بواسطة قِربة كنت قد أحدثت بها ثقوبًا صغيرة لتسهيل عملية إرضاعه. كان أكولًا ويستهلك أكثر من ثلاثة لترات من حليب البقر يوميًّا. في كل مرة كنت أذهب فيها لسرقة طعام لـ«بابا» من أحواض الحوزة الزراعية التي كان يعمل فيها والدي، كنت مدركة أنه في حالة إدانتي كنت سأتلقَّى عددًا كبيرًا من ضربات العصي المخصصة للُّصوص، ناهيك عن وصمة العار التي ستصيب عائلتي. لم يتم القبض عليَّ قط، وكنت مقتنعة بسذاجةٍ أنه في حال القبض عليَّ سيعفو عني القاضي؛ لأن جريمتي لم يكن لها غرض آخر سوى إنقاذ حياة! عندما أصبح «بابا» حمارًا يتمتع بصحة جيدة أعاده والداي إلى الإسطبل. بعد ذلك بوقت قصير، ماتت أمه الأتان القاسية من جراء الضربات المفرطة وغير المحسوبة التي وجَّهها لها أخي «بانب».

عند حلول الليل أقامت الشرطة مخيمًا صغيرًا، وتم تخصيص خيمة لي، فرشوا فيها الحصير والوسائد وتركوني بعد أن أطعموني وجبة بسيطة وقيدوا يدي. بدا «بابا» أوفر حظًّا، حيث شارك الحمير، التي شكلت قافلتنا، في علفها، لكنه حاول عدة مرات إغواء أتان متمنعة؛ مما جعله يتعرض للضرب والعزلة والتقييد بدوره.

في الليل كنت أسمع الريح تهب والحيوانات ترعى. استمعت أيضًا إلى الصمت. كانت هذه هي المرة الأولى التي أنام فيها وحدي. منعني هذا الهدوء من النوم، فكنت معتادة، طيلة حياتي، على العيش في اختلاط عائلي؛ حيث الشخير، والأنفاس التي تلهث فجأة، والجشاء، والضراط، والهمسات. الصمت وتَّرني وكلما أغمضت عيني وفي اللحظة التي كنت على وشك أن أنام كنت أرتجف فجأة في حالة تأهب. كنت أراه جالسًا

فوق فراشي وينبعث منه ضوء شمسي

في منتصف الليل. تذكرت بوضوح تام عينيه السوداوين مثل البازلت، وتذكرت بالأَخَصِّ يديه الكبيرتين العريضتين اللتين أمسكتا بمعصمي وتركتا بصماتهما. كل ليلة كنت أتوق إلى تلك الأيدي على بطني، على ثديي، على عنقي. كل ليلة كانتا تداعبانني، تنحتان لي جسدًا مرغوبًا فيه. كان قلبي يخفق بشدة وكأن في بطني مستعمرة من الفراشات.

سلموني إلى قزمٍ من خلال باب خلفي. تابعت خطواته القافزة عبر ممرات لا نهاية لها، مضاءة بمشاعل ضخمة معلقة على الجدران. دلفنا من خلال فجوة متعرجة إلى حديقة مثيرة للعجب، لا يوجد بها سوى أشجار وزهور ذات رائحة طيبة، أنواع لم أكن أعرفها، أنا التي أدَّعي معرفة جميع النباتات على ضفاف النيل والرق المحلية. كانت نباتات مهيبة ومُعتَنًى بها عناية فائقة؛ فلا توجد بها أية أعشاب ضارة ولا أصغر ورقة برسيم. لاحظت نبات الحوذان الأزرق الضخم، وزهورًا غير معروفة ذات لون أحمر قاتم وتبدو كما لو كانت بتلاتها مجعدة، ومجموعات عنقودية من الزهور ذات اللون الوردي الصارخ. كم دُهشت عندما رأيت في هذه الغابة الاصطناعية التي تجلت أمامي حيوانًا غريبًا يحمل غابة فوق رأسه! عبر بجلالٍ وضجيجٍ البركةَ الكبيرةَ التي تم حفرها هناك. أتتني غزلان ذات رموش طويلة لأُربت عليها. كانت جميعًا مستأنسة وترتدي قلائد مميزة. التفت القزم إليَّ وطلب مني ألا أتأخر وسبقني إلى غرفة فسيحة وشاسعة للغاية بها أعمدة وسقف من الخشب الثمين. أهذا هو الترف إذًا؟ تلك الجداريات، بلاط الأرضيات اللامع، ذلك الأثاث الفاخر المطلي بالذهب، هذه الصناديق المطلية والمنحوتة بدقة، هذه المصابيح المرمرية، هذه المزهريات الفضية؟ لم تكن هذه نهاية المفاجآت بالنسبة لي.

تركني القزم بين أيادي ثلاث من الشابات النوبيات المدربات. حدَّقن فيَّ وهن يضحكن، شعثن شعري فبدا كسبيب الفرس، اصطحَبْنَني إلى غرفة مغطاة بالكامل بألواح نحاسية مكَّنتني من رؤية انعكاس صورتي عليها بوضوح كما في مياه النيل. كان هنالك حوض محفور في وسط الغرفة. مزقن سترتي المليئة بالثقوب وألقين بها في سلة كبيرة، ثم أمَرْنَني بالنزول في ماء الحمام الدافئ والمُعطر والدُّهني. ضحكت بصوتٍ عالٍ: هل كانت هذه هي العقوبة المخصصة لي؟ لا بد أن هناك خطأً بخصوص هويتي. انغمرتُ في الحمَّام بكل سرور. قُمن بدعك جسدي باللوف، وشطف شعري المتشابك، وفركي في مناشف كبيرة من الكتان الأبيض. وضعنني على حصيرة مريحة وقمن بتنظيف جسدي من الشعر الزائد من رأسي إلى أخمص قدمي، وكن يتوقفن لبُرهة كلما بدأت في الصراخ من الألم. جاءت امرأة سمينة في سن غير محددة لتدليكي بمراهم دهنية. سكبت بضع قطرات من الزيت على شعري ودلكت فروة رأسي. كان شعورًا لذيذًا لدرجة أنني كدت أغفو! لقد قامت بجدْل شعري ببراعة، وبعد ذلك، ودون استئذاني، قصت حوالي عشرة سنتيمترات

من أطرافه. كانت النوبيات قد وضعن على مقعد من خشب الأبنوس سترة طويلة وشفافة ذات ثَنْيَات مصنوعة بشكل جميل، وصندل من الجلد الرقيق. لَفَفْتُ حول نفسي أمام المرايا النحاسية الكبيرة وأنا في قمة السعادة والفرح لرؤيتي نظيفة وجميلة بهذا الشكل. بدا أن ابتهاجي أزعجهنَّ. وضعن أصابع السبابة على شفاههن وأعَدْنَني إلى القزم.

أعتقد أنني كنت أعرف منذ البداية من يكون. هو انبثاق إلهي بالتأكيد وليس تاجرًا. حتى أغنى رجل على وجه الأرض لم يكن لديه ثقته، وهيبَته، وجاذبيته، وحضوره. كنت أعلم أنه كائن سامٍ، ولكن الآن بعد أن رأيته أمامي، وبعد أن استبدل بهيئة تاجر الأقمشة سارق القبلات تلك الخاصة بالفرعون، شعرت الآن بأنني أذوب وقواي تخور. عيناه، يداه، كما في أحلامي! سرعان ما سيداعبني، ويرغمني، ويأمرني دون أن ينطق بكلمة واحدة. فلقد وافقت منذ فترة طويلة على كل ما سيطلبه مني، وحتى ما لن يطلبه.

– السيد... سيدي.

♀

لم أقم بفعل شيء كهذا من قبل: أن أحبس نفسي ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ مع امرأة. منعت الجميع من دخول جناحي الخاص، حتى «برني–عنخو» الذي استاء للغاية. لقد أوقفنا الزمن. وكما هو الحال في الأحلام الشهوانية، عشنا على الحُب والفاكهة والمياه العذبة التي استخرجناها من بئر في حديقتي الرائعة. كنا نسبح في البركة ونسترخي على العشب. كنا ننام متعانقين أو بوضع عكسي على سريري الكبير الذي بدا كأنه خاض حربًا. لم يكن هناك ركن لم يشهد قبلاتنا أو عناقنا. لم تكن «حنوت–سن» الفتاة الصغيرة الخائفة التي كنت أخشاها، ولكن أرغب أيضًا فيها. كنت معتادًا في الحب –أو ما كنت أسميه «الحب» قبل أن أعرفه حقًّا– على أن آخُذ وأن أرمي. لقد جعلتني أُدرك أنه يمكنني أيضًا أن أعطي وأن أُشارك. كانت الشخص الوحيد الذي قرر أن يتحدث معي على قدم المساواة باستخدام كلماتها الخاصة، البسيطة والصادقة والمباشرة. معها، كنت بالفعل ملكًا عاريًا بمعنى الكلمة. لم أعهد قط مثل هذا الوضوح أو الصفاء في شخص في هذه السن الصغيرة. سمحت لها بالقول والفعل تقديرًا واحترامًا مني لكونها شخصًا حسَن النية أخبرني بصراحة –أخيرًا– ما يظنه بي. لم أكن لأسمح أبدًا لـ«برني–عنخو»، الذي وثقت به، باختراق العالم الواسع لخصوصيتي، ولا حتى أيٍّ من النساء في حريمي؛ فلا الدور الذي هُن مكلفات به ولا حتى آداب السلوك يسمحان بذلك. و«ميريت إت إس» كانت مجرد رحم يتم تلقيحها وكانت هي نفسها تتصرف على هذا النحو.

كان الأمر مختلفًا تمامًا مع «حنوت-سن». شاهدتها تندهش من كل ما كنت قد سئمته. كانت تُلامس الأشياء كما لو كانت على قيد الحياة: ملعقة أحمر الخدود على شكل سبَّاحة مدت ذراعيها داخل الموجة، ولوح خشبي صغير لطحن مساحيق التجميل على شكل غزال صغير، وصندوق من خشب الأبنوس مُزَوَّد بدرج سري. هي وحدها التي يمكن أن تضع فوق رأسها تاجيَ المقدس ذا الثعابين الذهبية وترقص أمامي وهي عارية تمامًا. في وقتٍ لاحقٍ أصرَّت على أن أُعلمها لعبة «سينيت» وهي لعبة تشبه الشطرنج. كانت تعبث بالبيادق العاجية لساعات قبل أن تحركها. كان على الفائز أن يأمر الخاسر بالقيام بمهمة. كنت غالبًا ما أتركها تفوز مما أزعجها! كانت لعبة أطفال، لكننا فرضنا العديد من الرهانات التي لم تَمُتَّ بِصِلة لبراءة الطفولة. كانت «حنوت-سن» شهوانية بدرجة كبيرة، كما كانت تتمتع بروح دعابة وَدود تُثيرني. لم يكن لديها أي حياء، بل على العكس من ذلك، أصرَّت أن تشرح لي الأشياء التي لم يعرفها الأولاد. وصفت لي ما الذي شعرتْ به بالتفصيل عندما ضغطت، هنا أو هناك، أو عندما وضعت شفتي هنا أو هناك، وعندما لامستُها في مناطق متفرقة من جسدها.. كرَرَتْ هذه اللمسات على جسدي المستسلم لها وسألتني بحماس: «ماذا عنك؟ ماذا عنك؟» كانت متحمسة لفكرة أن ملذاتنا المشتركة يمكن أن تكون بنفس القدر من الشدة على الرغم من كونها، بلا شك، مختلفة تمامًا. خاب أملها وعبست بشكل رائع لأن لغز المتعة هذا لن يتم حله أبدًا.

عندما أصبح من الضروري إعادة فتح ستائر جناحي على الحياة الحقيقية قلت لها:

- «حنوت-سن»، أريدكِ أن تبقَي معي!

- أوافق، بشرط أن أعيش معك في هذا الجناح، وأن يتم إحضار «بابا».

- لا تكوني طفلة! آداب السلوك التي انتهكتِها للتو تمنعني من مشاركتك نفس الغرفة في القصر. لكنني جاد: أريدك أن تأتي وتعيشي في الحريم، لتكوني محظيتي!

- محظيتك! لكنني لا أُجيد القراءة أو الكتابة. بشرتي سمراء من أشعة الشمس. لا أعرف شيئًا عن آداب سلوك القصر. سأكون أضحوكة جميع السيدات النبيلات اللواتي تأويهن هنا وتباشرهن. علاوة على ذلك، لا أريد أن أصبح واحدة من ضمن محظياتك.

- أنا لا أفهمك يا «حنوت-سن»! ماذا تريدين؟

- «أريد ما هو أكثر يا «خوفو»!

♀

- ماذا؟ أنت مُغرم؟ هل هذه مزحة يا بُني؟ لم أضحك بهذا القدر منذ زمنٍ بعيد! هل سبق لك أن رأيت

فرعون وقع في الحب؟ هل تعتقد أن والدك، سنفرو، كان في حالة حب مرة واحدة في حياته الماجنة؟ وأنا، هل تعتقد أنني كنت أحب والدك؟ أو أن أختك «ميريت إت إس» تحبك؟ كل هذا قمة السخرية! يا «خوفو» المسكين، ليس هناك وجود للحب، إنه اختراع للعامة؛ لإبقائهم مشغولين والسماح لهم بكسر رتابة حياتهم. إنها، في أحسن الأحوال، شأن شاعر!

– لم آتِ يا أمي لنتباحث في أمر الحب. لقد جئت فقط لأبلغك أنني قررت أن تسكن «حنوت–سن»، الشابة التي أحبها، في الحريم بما أن آداب السلوك تمنعها من البقاء معي في القصر.

– ومن تكون «حنوت–سن» هذه؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم في الحاشية.

– إذا كنتِ مصممة أن تعرفي، فهي فتاة فلاحة!

– هل قررتَ أن تجعلني أموت اليوم؟ فتاة فلاحة في الحريم؟! هذا مستحيل! البروتوكول يحظر ذلك. الحريم مؤسسة تم إنشاؤها حصريًّا لاستقبال الشابات من العائلات النبيلة والأميرات الأجنبيات المرسَلات كهدايا دبلوماسية. متعلمات، يمكنهن القراءة والكتابة والرقص والعزف على آلة موسيقية والنسج والتطريز. عندما يتعلق الأمر بحلب الأبقار، لدينا كل ما نحتاجه على أرضنا. لن تطأ قدم امرأة فلاحة الحريم ما دُمتُ على قيد الحياة، هل تسمعني جيدًا؟

– أنا الفرعون، وإذا أردت فيمكنني تغيير قوانين حريمك. إذا أردت فيمكنني عزلك من منصبك كمديرة وتعيين شخص آخر بدلًا منك!

انتابتني إحدى نوبات الغضب الشهيرة التي لا أستطيع السيطرة عليها. أطحت بكل ما كان في متناول يدي، خاصة مجموعة من المزهريات المصنوعة من الأحجار الصلبة والمرمر، كانت تحبها والدتي. وصفتها بأنها امرأة عجوز تشعر بالمرارة والإحباط وفاتتها الحياة لأنها باعترافها لم تعرف الحب. أعتقد أنني أخبرتها أنها كانت متشبثة بالماضي بينما كنت أمثل جيل الشباب، في آخر الأمر قلت لها أشياء غبية وقاسية بلا مبرر. جاءت خادمتها النوبية بمكنسة ومجرفة. عندما رأت مدى الضرر الذي أحدثتُه، انفجرت في البكاء. كنت أسمعها تنخر وهي تلتقط الحطام؛ مما أثار غضبي أكثر.

– اعلمي يا أمي أنه لا أحد يقف في وجه الفرعون. سأذهب في التو إلى مكتبي لأرسم مع المهندسين المعماريين مدينتي الجديدة. سيطلق عليها اسم «عَنْخو خُوفُو» (يحيا خوفو!) وسأعيش هناك كما يحلو لي.

– لن تطأ قدمي هذه المدينة أبدًا! لقد ولدتُ في «إِنِبْ–حِدِجْ» وسأموت فيها! إنها مدينة السلالة الحاكمة والتاريخية لجميع الفراعنة، المكان المقدس الذي يتوَّجون فيه. في ممفيس سنقوم أنا وأختك بتربية أطفالك، أولياء العهد، «كاوعب» وأصغر مولود لك «چدف رع»، وفقًا لتقاليد الأجداد.

بالإعلان عن إنشاء هذه المدينة الجديدة، لمجرد نزوة غرامية، أصبح لديَّ للتو حدس سياسي من شأنه أن يعزز سلطتي. كنت أغادر «إنِبْ-حِدِجْ»، بحاشيتها التافهة، ومستشاريها الهَرِمين الذين أرشدوا والدي قبلي، وأمي المتطفلة، وأختي وزوجتي المتملكة، ومحظياتي الجشعات الباحثات عن المادة. كنت ذاهبًا لتنظيم مركز إداري جديد وحكومة جديدة من أجلي أنا وحدي. كنت سأُحوِّل جُزءًا من ثروة «إنِبْ-حِدِجْ» الهائلة لصالح «عنخو خوفو». وأخيرًا، سأحدد لنفسي موقعًا استراتيجيًّا على هضبة الجيزة، في مقابل مدينة الشمس، إيونو.

الفصل الثاني عشر

«عنخو خوفو».. فليَحْيا خوفو!

إن الحب يعطي أجنحة وأفكارًا! وزاد من طاقتي وقوتي وخيالي عشرة أضعاف. قمت بوضع استراتيجية فعالة مع «حم-إيونو» و«عنخ-خاف»، ألا وهي بدء عدة مشاريع في آنٍ واحد. وسرعان ما ضممنا إلينا فرق العُمال الذين كانوا لا يزالون يعملون في موقع دهشور الذي تركه والدي، سنفرو، غير مكتمل. كنا نعلم من التجربة أن أهم شيء هو الخدمات اللوجستية. عدد قليل نسبيًّا من الرجال الأَكْفاء والمؤهلين سيكون كافيًا للبدء، بشرطٍ واحدٍ: ورود المواد الخام والمواد الغذائية دون انقطاع.

ستكون مسئولية «عنخ-خاف» ضمان النقل المنتظم للإمدادات عن طريق النهر. لقد كان مهندسًا ذا شخصية عملية وواقعية، أُعجبتُ بإبداعه وكفاءته؛ لذلك عينته مديرًا للميناء المستقبلي للمدينة وجميع بنيتها التحتية. كنت سعيدًا بمدى تقدير «حم-إيونو» له أيضًا؛ فمن غير المعقول أن يكون في مواقعي مهندسان معماريان غير متوافقين.

في المقابل، أُوكِل إلى «حم-إيونو» مهمة بناء المباني اللازمة في أسرع وقت ممكن للعكوف على إشغالنا الرسمي للمباني، فتم بناء أول مكاتب للتصميم، وأول مهاجع للعمال، بشكل بسيط، بالطوب اللبِن المُسقَّف بأوراق النخيل. وأُنشئ أيضًا مطعم تحت عريشة مصنوعة من قُضبان الخيزران، وبالقرب منه، كما تم تجهيز مخازن لتخزين المواد الغذائية، وصوامع لتخزين الحبوب، ومستودعات لحفظ جِرار اللحوم والأسماك المجففة، وقوارير الجِعَة، وأقفاص الخضار، والفاكهة. كما أقمنا، سريعًا، مصنعًا في الموقع لإعداد الآلاف من الطوب اللبِن اللازم لتشييد باقي المباني.

تم، في وقتٍ قياسيٍّ، إنشاء الميناء، ومكاتبه المحاسبية، وهناجر التخزين، وورش التصنيع الخاصة به، وأيضًا القصر، والمباني الملحقة به، ومساكن الحاشية. ثم عكفتُ على تشييد مدينة رحبة ذات طرق وشوارع واسعة تتقاطع بزوايا قائمة وفقًا لنقاط استناد دقيقة، على النقيض تمامًا من أزقَّة ممفيس الضيقة والملتوية والقذرة.

كنت أول ملك يعيش حياة الطبقة الوسطى، في منزل كنت أقوم بتوسعته باستمرار والذي أصبح اليوم قصرًا حقيقيًّا به قاعة استقبال، وقاعة احتفالات، ومكتبة، وساحات، وحدائق داخلية. لقد تخلصت من آداب سلوك البلاط الملكي الخانقة. لم أعد أستطيع تحمُّل أن يساعدني، طوال الليل والنهار، لواء من الخدم على النهوض، واللباس، وتصفيف شعري، وتَدْرِيم أظافري، وحلاقة ذقني، وتزييني بالجواهر، وانتعال

صندلي، وتقديم الطعام أو الشراب لي، ثم التدليك، والاغتسال، ووضعي في السرير لأنام، واستباق كل رغباتي باستمرار. كنت أعرف جيدًا المراد من وراء كل هذه الشعائر؛ كان ذلك لإعطاء الانطباع بأنني شخص عظيم وسامٍ عن الآخرين، خارق للطبيعة، شخص تتم خدمته بنفس التفاني والورع الذي تُخدم به التماثيل الإلهية. ويلٌ لمن يلمس الشخص الملكي! اعتاد الفراعنة على ترهيب أفراد البلاط والسيطرة عليهم من خلال تعقيد المراسم والمبالغة فيها؛ فقواعد المراسم، في الواقع، كانت لتحديد التسلسل الهرمي الوظيفي لكلٍّ منهم. رأيت أن هذا النظام قد عفَّى عليه الزمن؛ لأنه لا أحد ينخدع به حقًّا! وأردت تخفيفه من خلال منح امتياز مجاورتي للمخلصين الحقيقيين فقط. ومنذ ذلك الحين توقفت عن افتعال شخصية ذات واجهة صارمة، جادة، سلطوية، ومتكبرة. تمكنت أخيرًا من المزاح والضحك دون قيود. استفدنا، أنا و«حم-إيونو»، من هذه الخطوة المفاجئة لإعادة هيكلة جزء من الإدارة، فكان هناك فائض من الوزراء والمديرين لهذا أو ذاك، والكثير من الواشين والمنافقين المتمرغين في الترف والكسل، وهي ظروف مواتية دائمًا للفساد والتآمر.

لم تكن رواية «حنوت-سن» عن المجاعة الرهيبة التي ضربت قرية أختها، ضحية غزو الجراد، أمرًا عاديًّا. كان الفلاحون يتضورون جوعًا حتى الموت في مصر، تحت سَوْط حاكم محلي جائر، وأنا، الفرعون، لم يتم إبلاغي! هناك إذًا قوة مضادة كامنة في المقاطعات، بدعم من حكَّام من نوعية «إيكر». بعد التحقيق، اكتشفت أن هذا الرجل صاحب الأمر والنهي في منطقته، يشغل وظائف مهمة في المعبد المحلي المخصص للإله «رع»، كما كانت لديه مسئوليات إدارية ثقيلة، فكان يُشرف في الوقت ذاته على استثمار الأراضي الكهنوتية والأراضي الملكية حيث كانت الزراعة المكثفة للحبوب وتربية الماشية متميزة. دفع للمعابد والتاج حصة من الحبوب واحتفظ بالباقي لاحتياجاته الشخصية ودفع أجور الفلاحين الذين وظفهم. وتعيَّن على هؤلاء الفلاحين أن يتقبلوا انخفاض رواتبهم منذ أن تم استئجار أسرى الحرب والمجرمين، ولكن أيضًا الأرامل والأيتام والمسنين، للعمل بنظام اليومية. كانت حلقة مفرغة. والعمل في المؤسسات لعدة أشهر حرَمَ الأسرة، مهما كانت صغيرة، من قوتها العاملة. لم يكن لدى عائلة الفلاح سوى حصص الإعاشة للبقاء على قيد الحياة مقابل العمل الذي ينجزه، وعندما لم تعد كافية كان لا بد من اقتراض كيس إضافي من القمح أو الشعير بمعدل ربوي ضخم، حتى يصبح الدَّيْن كبيرًا لدرجة أنه لم يعد من الممكن سداده أبدًا.

شكَّل الفلاحون الجزء الأكبر من شعبي مع طيف اجتماعي تراوح بين ملاك الأرض الأغنياء إلى الأقنان الذين لا يملكون شيئًا ويعملون من أجل الآخرين. كان دوري الأساسي هو إرساء الماعت بشكل دائم؛ لذلك كان عليَّ أن أمنع أي شكل من أشكال عدم المساواة. إذا كنت قد أعطيت الأرض وأعفيت المؤسسات أو حكام المقاطعات من دفع الضرائب؛ فيمكنني بسهولة العدول عن قراري. لا شيء يمنعني من استعادة

الأراضي التي تم توزيعها بسخاء وبشكل عشوائي، ولا من إقالة كاهن أو مسؤول كبير غير أمين.

سلَّم رُسلي الملكيون مرسومًا إلى «إيكر» وضع حدًّا لطغيانه في مقاطعة الجميز. تم عزله من منصبه كحاكم للمقاطعة، ومن وظيفته ككاهن في حرم «رع». اضطر إلى دفع غرامة كبيرة في صورة احتياطي من القمح للقرية التي لم يساعدها، وأن ينظم على نفقته الخاصة إعادة بناء وترميم جميع المباني التي تم التخلي عنها أو حرقها أثناء غزو الجراد. وبناءً على تلك الأعمال تصبح تلك النقوش الكاذبة لسيرته الذاتية المثالية التي كان قد نقشها بالفعل على جدران مقبرته ذات معنًى حقيقي ودالة على صدق فاعلها:

«أعطيت الخبز للجائع، والماء للظمآن، والملابس للعاري...».

منذ أن عَلِمتْ «حنوت-سن» أن ملكة بلاد بونت كانت تركب حمارًا -وهو أمر لم يكن ليفعله مصري أبدًا- تشجعت على ركوب حمارها «بابا» في الأماكن العامة. تجولت في موقع البناء معه وكانت تتدخل في أدق التفاصيل. كانت على وشك أن تتجرأ عليَّ وتعطيني دروسًا في الهندسة المعمارية! هل حفرنا ما يكفي من الآبار للمياه العذبة لتوفير اللازم من مياه للشرب وللدواب وللغسل؟ ألم تكن الأروقة التي بنيناها لينام فيها العمال ضيقة للغاية؟ لماذا لا نمنحهم مساحة على شرفة السطح حتى يتمكنوا من النوم تحت النجوم والشراب وتناول الطعام والدردشة؟ كان «خوفو» ينظر إليها وهو مستمتع. سمح لها بالقول والفعل. كان يعلم، مثلي، أن اهتمامات العُمال وعُمال اليومية لن تتجاوز الخبز والقدر والجدران الأربعة التي ستحميهم أثناء نومهم. استغلت الفلاحة ذكاءها لتوظيف والِديها -وهما سِكِّيران سيِّئا السمعة- في مصنع الجِعَة في ترسانة بناء السفن، فقد كانا يشربان مقدار ما كانا يقدمان من أباريق الجِعَّة! انضم أحد إخوتها إلى مُربي الماشية والدواجن التي تتم رعايتها في الموقع لتوفير جزء من الطعام، بينما أصر أصغرهم على أن يصبح عاملًا في موقع البناء. أما الأخ الأكبر، سليط اللسان ويُدعى «بانب»، فقد وجد وظيفة وضيعة في مكتب مراقبة المواد الخام غير الغذائية، في حين انضم صهرها وأختها «ميريت» إلى فريق الخبازين الذين صنعوا جميع أنواع الخبز والكعك. وكانت «حنوت-سن» قد وظفتْ فتيات صغيرات من قريتها لجلب المياه العذبة والوجبات الخفيفة للعمال خلال النهار، وعيَّنت العديد من الغسَّالات لغسل ملابسهم وأغطيتهم. تدخلت في كل شيء. طلبت مدرسًا خصوصيًّا ليُعلمها القراءة والكتابة. لقد برعت، كما قيل، في فن الهيروغليفية، الذي مارسته كأفضل الكتبة المتمرِّسين. أظن أنها على علم بما في الملفات السرية للغاية، وأن لها الكلمة الأخيرة في الشئون المهمة للدولة، عندما تختلي بالفرعون.

كان «عنخ-خاف» أقل انتقادًا مني. أوجد للفلاحة أسبابًا وجيهة، ورأى فيها حِسًّا سليمًا وسحرًا وتعاطفًا ولطفًا، وهو أمر نادر للغاية في البلاط. كان يعتقد أنه من المنطقي بالنسبة لها حماية عائلتها من خلال منح الجميع وظائف دائمة. ألم يتصرف النبلاء بنفس الطريقة مع أقاربهم لدرجة أنه على مر الأيام أصبحت هناك منظمة حقيقية من العائلات الكبيرة داخل السلطة؟

وفي مقابل ذلك كان «خوفو» في حالة مزاجية ممتازة. لم تُصِبْهُ أي من نوبات غضبه الشهيرة منذ فترة طويلة. بدا متقبلًا وتصالحيًّا وصبورًا. كُنت آمل أن يمنحني انشغاله مع فتاته الفلاحة مساحة من الحرية وبالتالي يُمكنني من استثمار وتسخير أصالتي وإبداعي في تصميم المدينة الدبلوماسية الجديدة التي يتوسطها القصر الملكي وجميع مؤسساته: مخزن الغلال، والخزانة، والأرشيف، ومكاتب الكتبة. أصر «خوفو» على بناء معبد الوادي في وقت متزامن مع بناء المَرسى الخاص به. سيكون هذا هو العنصر الأول في مجمعه الجنائزي. وأمر بأن تكون الأرضية مصنوعة بالكامل من البازلت الأسود، وهو اللون الرمزي للبعث. ما عُدت أنام، رسمت تصميمات، وأشكالًا هندسية، وأجريت حسابات معقدة، في رأسي، وعلى الرمال، وعلى أوراق البردي. كان «خوفو» يومئ برأسه أو يشطب ويُعدِّل لدرجة أن الرسم يبدو غير مفهوم، فكنت أبدأ من جديد. أنا مصمم معماري ورجل مكتب يعمل في الظل ويُبدع في الهدوء. أنا لست رجلًا ميدانيًّا، على عكس «عنخ-خاف» الذي كان يسعد كثيرًا لتمكنه من تطبيق التقنيات الحديثة التي كان مولعًا بها. لقد أحسنتُ صنعًا وأنا أدعم تعيينه لدى «خوفو».

كنت مشغولًا في رسم المباني الإدارية المكعبة، والحدائق والساحات المزينة بالنوافير، ومن خلال وضع تصميمات معبد الوادي. لم يكن في ذهني سوى المشروع الحقيقي الذي لن يبدأ قبل مرور عامين كاملين: بناء الهرم الجديد الأملس والأطول في العالم، والذي تبلورت معالمه في دفاتر احتفظت بها سرًّا، سيجعلنا أنا و«خوفو» خالدَيْن على حد سواء. سيكون هذا الهرم مقبرته، لكنه في المقام الأول تحفة فنية رائعة من تصميمي.

كنت أنوي القيام بمهارة بمهام منصبي كمدير ميناء «عنخو خوفو» الذي كلفني به الفرعون. حتى لو ظل النيل ممرًّا مائيًّا على مدار العام، من الجنوب إلى الشمال، مع تيارات مواتية؛ لا يمكن تصور النقل الهائل للبضائع إلا خلال الأشهر الأربعة للفيضان، من منتصف يوليو إلى منتصف نوفمبر. لضمان سيولة النقل كنت قد تصورت تحويل فرع من النهر وبناء قناة صالحة للملاحة، متصلة بهيكل من الأحواض الاصطناعية التي يتم إنشاؤها عند سفح الميناء الجديد ويتم إغلاقها بسد. أثناء الفيضان، ترتفع المياه سبعة أمتار على

الأقل. سيكون كافيًا حينئذ فتح السد بحيث تغمر المياه القناة والأحواض وتسمح -مثل المصاعد الهيدروليكية- بسهولة الوصول إلى مستوى هضبة الجيزة. أما الدخول إلى محيط الميناء فيمكن أن يتم من خلال فوهة ضيقة سيهيمن عليها نتوء موجود بالفعل، وسنزيد من ارتفاعه بواسطة جميع المواد المتبقية بعد حفر البنية التحتية للميناء، وسيكون هذا هو المكان الذي سننشئ فيه مركزًا جمركيًّا وقسمًا للمحاسبة. سيتم تسجيل الصادر والوارد من وإلى الميناء، يومًا بعد يوم وساعةً بعد ساعة. سيتم بناء أرصفة تفريغ البضائع لتفادي التخبط في الوحل، وستسمح المنحدرات بنقل المواد من الميناء إلى مواقع البناء المختلفة.

كنت أعرف كيف أكون مقنعًا. كنت أعرف أيضًا أن الرسومات الملونة بدلًا من التصميمات المُجردة ستفوز بموافقة «خوفو» ومكتب المعماريين. كانوا جميعًا متحمسين لحداثة مشروع ميناء الشحن الذي تقدمت به، وصوَّتوا على ميزانية غير محدودة لتنفيذه.

كان لقائي مع المفتش «مِرِر» حاسمًا في تنظيم الخدمات اللوجستية. كان رجلًا في مقتبل العمر، رياضيًّا، رشيقًا مفعمًا بالحيوية، وله نظرة ثاقبة. كان ودودًا ويتمتع بسمعة ممتازة بين أطقم البحَّارة الذين عمل معهم. تمتع بخبرة فريدة في النقل البحري والنهري. لقد جاب النيل خلال جميع الفصول وحفظ مجراه عن ظهر قلب. شارك في بعثات كبيرة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر للذهاب إلى بلاد الشام في منطقة جُبِيل أو بلاد بونت البعيدة. لقد أتقن تمامًا عمليات إرساء البضائع وتفريغها. كان يُجيد قيادة الفِرق، وإعطاء الأوامر، ولكنه يُجيد أيضًا تلقيها. يعود تاريخ هذا الامتثال للأوامر واحترام التدرج القيادي إلى الوقت الذي كان فيه مجرد ملَّاح. أصبح بعد ذلك مالكًا للسفن يقود أسطولًا مُكونًا من العديد من السفن. كانت سفنه -التي يبلغ طول جناحيها خمسة وعشرين مترًا- تبلغ حمولتها ثمانين طنًّا على الأقل. يمكنها حمل الحجارة أو الطعام أو الرُكَّاب. تتطلب كل منها طاقمًا مكونًا من اثنين وأربعين عضوًا: ثمانية وعشرين مجذِّفًا، وأربعة قائدي دفة، وثمانية بحارة، وضابطين.

كانت خبرة «مرر» لا تُقدر بثمن بالنسبة لي في إعداد جدول تناوب السفن، المرتبط ارتباطًا وثيقًا بفيضان النيل؛ حيث تمكنت من تعظيم استغلال الأحواض الاصطناعية والموسمية التي كنت قد تخيلتها.
لا يمكن نقل المواد الثقيلة إلا خلال الأشهر الأربعة من موسم الفيضان، خصوصًا الحجر الجيري من راو (طرة)، والجرانيت من سِنُو (أسوان)، والبازلت من «بَايِمْ» (الفيوم)، والعوارض الخشبية. كنا قد بدأنا في تخزينها لتزيين القصر وبناء المعبد في وادي خوفو. خلال هذه الفترة أيضًا تمكنَّا من توظيف الآلاف من الفلاحين العاطلين في جميع أنحاء البلاد. فبدلًا من التسكع في قراهم انجذبوا للعمل بسبب قرب مواقع البناء من «إِنبْ-حِدِجْ» (ممفيس)، مدينة جميع الملذات، وكذلك بسبب الأجر الكبير الذي تلقوه مقابل عملهم. عندما توقف الفيضان، في شهر نوفمبر، كان لا يزال بإمكاننا التنقل في القنوات التي احتبست بها

المياه؛ وذلك بفضل شبكة من السدود. سمح لنا ذلك بتوافر إمدادات الأغذية على مدار العام، خاصة من المزارع المزدهرة في الدلتا.

♀

أنا في وضع يتيح لي معرفة مدى سرعة زوال آخر الصيحات في عالم الأزياء؛ فأنا، «نفرت-إيابت»، من كانت تبدؤها! ولكن من كان بإمكانه أن يتوقع ذلك التحول والانقلاب الذي اجتاح الحريم؟

منذ أن اتخذ «خوفو» امرأة فلاحة زوجةً له وأسَّس مدينة جديدة للعيش بها مع حبيبته؛ أصبحت سيدات الحاشية لا يقسمن إلا بالمباهج الزراعية. صِرْن فجأة متحمسات للفلاحين والبسطاء الذين يعملون في أراضي الحريم. أثْنَين عليهم بألف صفة حميدة، وجعلن لهم ألف ميزة يُحسدون عليها. كنَّ مهتمات جدًّا بمصير هؤلاء، ليهنئن أنفسهن أيضًا على الإفلات من مصير مشابه بفضل نشأتهن المميزة. اكتشفن الملذات الريفية التي كنَّ يحتقرنها حتى تلك اللحظة، واستمتعن بزيارة مزارع الحريم المُعقمة نسبيًّا. انبهرن بمزرعة الدواجن، وحظيرة الخنازير والإسطبلات أكثر من انبهارهن بحديقة الحيوانات الخاصة بالفرعون؛ فقد كان من الممكن لهن مداعبة الحيوانات الأليفة وإطعامها، واللعب مع صغارها، بينما تظل الحيوانات البرية مفترسة وخطيرة. أصبحت عملية حَلْب الأبقار استعراضًا شيقًا بالنسبة لهن، وكنَّ سعيدات بأخذ البيض -الذي وضعته الدجاجات أمامهن- في سلال جميلة ملفوفة بشرائط، كما قمنَ بتنظيم نزهات في الهواء الطلق ورَقَصنَ بأناقة الرقصات الحتحورية في غابات البردي حيث كان يأتي بعض الرجال الوقحين من العامة لإغوائهن. من خلال ارتداء سترات بسيطة من الكتان الخشن، وصنادل من البردي المجدول، والتزيُّن بقلائد من الزهور الطبيعية بدلًا من المجوهرات باهظة الثمن؛ اعتقدن أنهن تحررن من نير آداب سلوك البلاط، وعدن هكذا إلى مصدر المباهج الأصيلة، من خلال تبجيل الطبيعة. ألم يكن «أوزوريس»، قبل أن يصبح إله الموتى، حامي النبات؟ ألم يُعلِّم الناس الزراعة؟ الاقتراب من أشياء الأرض بدا لهن أمرًا أساسيًّا، وبدون خوف من السخرية أو من رائحة الروث، أرادت سيدات الصفوة امتلاك حمار، أو حتى ركوبه، على غرار الملكة الجديدة!

ابتدعت تلك الحمقاء «حنوت-سن» -عن غير قصد- هذا النوع الجديد من التحذلق والغطرسة والتغندر في الملبس، وقضت على عملي كمهيمنة على اتجاهات آخر الصيحات في عالم الأزياء بين نساء الحاشية. كادت تقضي عليَّ تمامًا. لقد اضطررت إلى عمل تشكيلة ريفية جديدة من التطريز والمجوهرات باهظة الثمن لاقت نجاحًا ضعيفًا.

لم تُقدم «ميريت إت إس» أي عون لي. كانت غارقة في حزن أحمق، بلا حراك ويائسة. لم تفهم كيف يمكن لامرأة فلاحة بسيطة أن تحل محل أميرة حقيقية في قلب «خوفو». بكت ليلًا ونهارًا وملأت جوفها بجميع أنواع الطعام مع ميل لكعك العسل.

الفصل الثالث عشر

غيرة «ميريت إت إس»

لم تفلح النظريات المثالية لأمي في مواساتي. نعم، كانت كلتانا تعلم أن تعدد العلاقات الجنسية للفرعون شيءٌ متأصلٌ في تكوينه. يجب عليه، كإله خالق، إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال. كان «الحريم» مليئًا بالنساء المكرَّسات لهذا الغرض. يمكن للملك، مثله مثل أي رجلٍ آخر، أن يُضاجع من يشاء من النساء من خارج مؤسسة الزواج، في الحانات وعلى أراضيه، ويُنجب العديد من الأبناء غير الشرعيين الذين لن يعرفوا والدهم يومًا ما، ولن يصيروا أبدًا أمراء. كنت أعرف أن الخطر يكمن في مكان آخر، يكمن في الخلوة، في الروابط المنسوجة، في التفاهم الذي يبلغ حد التواطؤ، في ذلك المجهول الذي هو الحب. يمكن للمرء دائمًا التحكم في رغباته الجنسية، ولكن لا يمكنه أبدًا التحكم في مشاعره.

أبلغتني «نفرت-إيابت»، التي كان لديها جواسيس في هضبة الجيزة، أن «خوفو» و«حنوت-سن» لا يفترقان أبدًا، بل إنهما يتشاركان، على عكس ما يفرضه سلوك الآداب الملكية، نفس المسكن في «عنخو خوفو». أدركتُ حينها أنني في خطر فقدان أخي وزوجي إلى الأبد.

اجتاحني ألمٌ وطرحني أرضًا مثل مياه الطوفان عندما تكون شديدة القوة؛ فإنها تدمر الأرض، وتدفن القرى المبنية من الطوب اللبِن، وتغزو الإسطبلات، وتُغرِق الحشرات والماشية على حدٍّ سواء. كيف أُسمِّي هذا الجرح الغائر الذي أصاب عميق وجداني والذي شعرت به دون أن أتمكن من رؤيته؟

خلال النهار، كنت أنصرف إلى جميع أنواع الأعمال التي من شأنها شَغْل انتباهي. كان عليَّ أن أبدو في حالة جيدة أمام أمي، وخادماتي، ووصيفاتي، أو حتى أبنائي. لكن الألم كان لا يزال كامنًا، ألم كليل، ولكنه متربص بي. أما ليلًا عندما أختلي بنفسي، فكان الألم يتفجر بداخلي. وفي أوج همي كنت أحاول أن أتخيل غريمتي. هذه المرأة التي لم أكن أعرفها تمكنت مني تمامًا، غزت جسدي ورأسي. فلاحة قذرة جاهلة، تعيش هي وعائلتها في مخالطة شنيعة وسط الماشية، امرأة انتهازية، محتالة، وساحرة مُشعْوذة، غالبًا ما أصبحت ملكة من خلال الاستخدام الدنيء لسحرها. أردت أن أعرف كل شيء عنها: لون شعرها وعينيها، محيط خصرها، نهود ثدييها، طول ساقيها، عرض أردافها. كنت أعيد تكوين جسدها مثلما في لعبة الصور المُتداخلة. كنت

أتخيل مشاهد جنسية، وقبلات وأحضانًا. هل لديها القدرة على الشعور بالمتعة؟ هل لديها القدرة على الإمتاع؟ اكتشفت أشياء اختلقتُها في خيالي جعلتني أعاني. انتهى بي الأمر إلى الاستمتاع بشكل سادي بتعذيب نفسي ثم الهروب إلى البكاء الحاد. تساءلت أيضًا عن مشاعري، هل كنت أحب أخي؟ هل جرح قلبي أم جرح كرامتي؟ لم أستطع أن أُحدد.

عندما كلف «خوفو» العديد من الفنانين الرسميين بإعداد نموذج مُجسم لعرض الأملاك الملكية على شكل رموز أنثوية لتزيين معبد الوادي؛ ترددت شائعات بأن وجوه هؤلاء الشابات اللائي يحملن سلال الفاكهة كانت تُصور الملكة الجديدة. ثم اعتدت، أنا التي لم أكن شغوفة بالفن، على التجول في ورش الدولة التي لم تنتقل بعدُ إلى العاصمة الجديدة. وهكذا وجدت نفسي وجهًا لوجه مع جسد غريمتي؛ على لوحة من الحجر الجيري الناعم المغطى باللون الأحمر، ظهر لي قوامها، مُصورًا من الجانب، وفقًا للقانون الرسمي للدولة الذي يحدد طرق وفنيات التصوير. بدت رشيقة وجميلة للغاية، جبهتها منتفخة، أنفها أخنس، عينها كعين غزال، فمها مكتنز، لدرجة أنني بكيت طوال الليل وأنا أحشو جوفي بكعك التمر.

- «الغيرة! أنت ببساطة تشعرين بالغيرة»، هكذا أَقرَّت «نفرت-إيابت»!

- غيرة؟ إذن أنا في حالة حب؟

- كلا! لا تخلطي الأمور! أنت تشعرين بالغيرة وهذا يكفي!

شعرت بالخجل عندما أدركت أنني استجبت لمثل هذا الشعور الوضيع. ليس جديرًا بملكة أن تحط من قدرها. ومع ذلك، كنت مؤمنة بأن هناك طريقة ما للاحتفاظ بـ«خوفو»، أو حتى استعادته، عندما جاء إلى إِنِبْ-حِدِجْ لزيارة والدته وأبنائه.

- «بالفعل، هناك طريقة -قالت بتهكم «نفرت-إيابت»- ألا وهي الجنس».

ثم تفتق ذهني عن خطة كانت من أكثر الخطط حماقة وإهانة على الإطلاق؛ ذهبت إلى الحريم، الوكر الأعظم للبغاء، لإجراء تحقيقي. طلبت أن تعلمني المحظيات فن الإغواء والشهوة، ليس لتجربة الأحاسيس، فهي لم تكن تعنيني؛ ولكن لمعرفة الإيماءات، والكلمات التي من شأنها إثارة غرائز الرجال. فزعت لاكتشاف أن لكل منهن خصوصيتها؛ من قوام، ورائحة مميزة، وشعر مختلف، وبشرة ناعمة ونَبْرة صوت خاصة. كان لكل منهن إمكانات مثيرة مختلفة تمامًا عن غيرها ومعقدة للغاية. لم تكن طقوس الحب هي الحركات الآلية الصامتة التي عرفتها؛ بل على العكس من ذلك، كان مجالًا شاسعًا من التنوع والوتائر المختلفة. تحدثن معي عن العفوية والشراهة والطمأنينة وإطلاق العنان للأحاسيس وفقدان الوعي المؤقت من فرط اللذة والمداعبات والجماع. اكتشفت أن المحظيات يعانين من الشعور بالوحدة بقدر ما أُعاني؛ كنَّ

يشعرن بالملل وينتظرن بفارغ الصبر عودة الفرعون. كنَّ بحاجة إلى الحنان ولمسات الحب التي تجلب النشوة وتنقلهن -كما أكدن- إلى عالم خيالي ورائع.

تسببت هذه الزيارة في حيرتي وحزني في نفس الوقت. جعلت من نفسي أُضحوكة وأهنتُ نفسي. ما زلت أسمع ضحكات بعضهن بعد أن غادرت. جسدي المشوه بسبب الحمل والشره المرضي لن يكون أبدًا سوى حصن يتصدى للرغبة.

بينما كنت منزوية أتفكر مليًّا في محنتي؛ أعلن الرسل الملكيون في جميع أنحاء البلاد عن مولد أمير جديد: «خفرع»، ابن «خوفو» و«حنوت-سن».

يا بُني، لقد ولدتَ في قصر «عنخو خوفو»، في غرفة الولادة، كأمير ذي دم ملكي. لم أكن أتخيل أن يمكن لرضيع أن يشبه والده إلى هذا الحد! كانت لديك نظرة ثاقبة، وبأنفك اعوجاج بسيط، وشعرك أسود كشعر حبيبي. شعرت بالارتياح لمعرفة أنك لن تكون فرعون أبدًا. ستكون بالتالي رجلًا حرًّا. قامت أختي «ميريت» أثناء الولادة بمساعدة السيدة «بسشيت»، وهي ممرضة رأيتها في موقع البناء، كانت تقدم الإسعافات الأولية للعمال الذين يُصابون، كما كانت قادرة حتى على علاج الكسور. عملت كقابلة لزوجات القرويين. كانت قد تعلمت مهنة الطب من والدها الذي كان أحد جراحي الفرعون «سنفرو»، ولكن نظرًا لكونها امرأة؛ لم تتمكن من مواصلة ممارسة المهنة في البلاط. لقد أُعجبت بتفانيها ومعرفتها الواسعة، فعيَّنتها مشرفة على الطبيبات في العاصمة الجديدة.

لقد رفضت ببساطة أن أتركك بين أيادٍ غريبة عنك، رغم أنها أيادٍ أمينة، لمربيتين محترفتين. ستكون موجودة في حالة ما جفَّ حليبي. لقد قررتُ أن يتم إطعامك وتربيتك حصريًّا من قِبَلي ومن قِبَل خالتك «ميريت» التي أصبحت مربية ملكية. كان القزم «برني-عنخو» قد اعتبر نفسه أيضًا مربية، وكان يقفز من الفرح حول جسدك الصغير الذي سمحتُ له بحمله؛ مما أثار استياء والدك عندما اكتشف ما أسماه «فوضانا». أخذك بين ذراعيه، وبينما كان يحملك عاليًا إلى السماء وأنت تحدق فيه بعينيك الصغيرتين المدهوشتين؛ أطلق عليك اسم «خفرع»، الذي يعني «الإله رع يقوم». بمجرد السماح لي بالظهور مرة أخرى في الأماكن العامة أقام «خوفو» وليمة؛ احتفالًا بميلادك، استمرت عدة أيام. دعا زوجته الأولى «ميريت إت إس» ووالدته وأولياء العهد الأمراء أبناءه. كلتاهما أرجعت رسل «خوفو» دون فتح برقيته. اختار تجاهل الإهانة، أراد فقط أن يكرس نفسه لفرحة الاحتفال بميلادك، الذي اتخذه أيضًا مناسبة لإطلاق عاصمتنا

الجديدة دوليًّا؛ فقد جذبت الفضوليين بحداثتها ومنازلها متعددة الطوابق وحدائقها وميناؤها الضخم الذي به مرفأ وسد.

أظهر «خوفو» تفوقه وسلطته الجديدة أمام نبلاء المملكة، خاصةً أمام السفراء الأجانب الذين عقد معهم تبادلات تجارية. لقد نظم لضيوفنا رحلات صيد مثيرة وممتعة، حيث تم اصطياد أسماك البلطي بحجم خنزير صغير، ومطاردات خارجة عن المألوف لاصطياد الأسود حيث يمكن لكل صياد قتل أسده. كما نظم مبارزات بحرية، ومسابقات الرماية بأسلحة جديدة أشرف على تصنيعها، وسباقات الجري. في كل مرة أراد شخص من الحضور التنافس معه في اختبارٍ ما؛ خسره! يمكنني أن أكون فخورة بزوجي. لقد كان رياضيًّا حقيقيًّا تدرب يوميًّا، بنكران ذات، على التفوق على نفسه. خلال الاحتفالات قدم أفضل الموسيقيين العروض الموسيقية، وبرعت الراقصات الأكثر رشاقة، وقام البهلوانات بأداء عروض خيالية، وشارك أيضًا المشعوذون، وأكلة النار، والقرود المُدربة التي ترتدي الملابس. كانت حيل «چدي» السحرية هي الأكثر نجاحًا بالطبع.

♀

كان دوري في بلاط «سنفرو» مجرد التسلية. الشخص الذي جعل الطيور تظهر وتختفي في داخل وشاح. الشخص الذي يُدخل حلقات نحاسية في بعضها البعض ويفصلها بمجرد النفخ عليها. الشخص الذي يستطيع تمرير كرات نحاسية من خلال صينية طاولة خشبية. الشخص الذي يمكن أن يأمر النرد بالخروج بهذا الرقم أو ذاك. الشخص الذي يقذف في الهواء بالكُرات ويمسكها من جديد محدثًا دائرة دوارة، فيقذف بكرتين، ثم ثلاث، ثم أربع، ثم بالكثير لدرجة أن العين لم تعد قادرة على عدِّها. لقد فهم «خوفو» -الذي كان يتمتع بحس سياسي قوي- جيدًا كيفية الاستفادة من العروض البهلوانية التي كنت أقدمها، حيث كانت يمكن أن تخدم دعايته السياسية، بدءًا من ظهوره العلني. كان دائمًا منتبهًا للنصائح التي أقدمها له حول طريقة الوقوف أو التعبير عن نفسه، فسرعان ما أدرك أن لغة الجسد كانت في بعض الأحيان أكثر أهمية من الكلمات المنطوقة. كيف يمكن تحويل انتباه الجمهور وكيف يمكن جذبه، كان حريصًا على تقليص الخطب الفخمة والقديمة التي كتبها هؤلاء المستشارون في الأصل من أجل إرضاء أنفسهم. انتهى به الأمر بكتابة خُطبِه بنفسه، كان يكررها بانتظام قبل إلقائها، بالأخَصِّ، أمام وزرائه. لم يكن يريد أن يكون شرعيًّا بالوراثة وحدها أو بالكذب بشأن ألوهيته، أراد أن يكون قائدًا معترفًا به ومقدرًا. «راعي قطيعه»، كان يحب هذه الصورة، ربما لأنها لم تكن في النهاية جذابة لتابعيه.

لاختتام احتفالات ميلاد «خفرع» قمت بتصميم استعراض حاز دهشة وإعجاب الجميع.

– «ها هو (چدي)، أعظم ساحر في العالم!» أعلنت راقصة شابة جميلة. يأكل خمسمائة رغيف خبز يوميًّا ويشرب مئة إبريق من الجِعَة. بفضل هذا النظام الغذائي بلغ من العمر مئة وعشرة أعوام لكنه يبدو كما لو كان في الثلاثين من عمره!

تقدمت مرتديًا سترة مصنوعة من أشرطة جلدية ذهبية. كنت ممسكًا بطوق أسد عجوز بدا شرسًا لكنني استأنسته مثل الكلب. لم يكن هو أبرز ما في العرض، ولكن موكب من الإوز الصغير الجميل الذي كان يزبطَ بداخل قفص خشبي مثبت أمام المسرح. كنت أحررها ثم أقطع رُءوسها واحدة تلو الأخرى. ويقوم قزمٌ مبتسمٌ بحشر الرءوس المقطوعة في سلة. لكن الإوز استمر في التقدم، مفاجئًا الجميع، متجهًا نحو يمين ستارة كنت قد فردتها له. أطلق مساعدي المختبئ خلف الستارة مجموعة أخرى من الطيور الحية التي ظهرت على الجانب الأيسر من المسرح. جاءت تتبختر في لا مبالاة أمام الجمهور المذهول لرؤيتها وقد بُعثت من جديد. ومن المفارقات أن هذه الفقرة كانت تلك التي تطلبت أقل جهد لإعدادها. كنت لا أستخدم في هذه الحيلة سوى الخاصية الفسيولوجية التي تمتلكها الطيور في مواصلة المضي قدمًا لفترة من الوقت بعد قطع رأسها. جئت لأُحيِّي الجمهور وسط تصفيق مدوٍّ، حتى إن البعض انتهى به الأمر بتحطيم المقاعد التي كانوا يجلسون عليها من فرط الحماس!

«يعيش حورس «الذي يضرب»، «من يحفظه خنوم»، من يظهر كالشمس «رع»، ذو الهيبة القوية، من غزا جميع البلدان بقوته، ملك مصر العليا والسفلى، «خوفو»!».

لا أحد يستطيع أن يضاهيه في سباق العَدْو، ولا أحد لديه قدرة على التحمل أكثر منه في التجذيف، ولا أحد لديه مهارته في جذب القوس، وسهمه هو فقط يخترق، في المنتصف، هدفًا نحاسيًّا سميكًا...».

هذا مقتطف قصير من اللوحة التذكارية التي أمرت بإقامتها في حرم معبدي في الوادي والتي كانت تتلقى كل يوم قرابين العبادة التي تقدم للفرعون خلال حياته. استغللت الاحتفالات بميلاد «خفرع» لإقامة محاكاة مبكرة لاحتفالات عيد «سد»، هذا الاحتفال الذي كان يقام كل ثلاثين عامًا، وحيث أعاد الفرعون التأكيد على سيادته وقوته من خلال اختبارات رياضية عالية المستوى. لقد نصحني الساحر «چدي» بهذا التنظيم الفخم الذي كان بمثابة حيلة سياسية أمام ذوي النفوذ في المملكة، وسفراء وملوك الدول الأجنبية الذين تمت دعوتهم. سمح لي هذا التنظيم بإظهار تفوقي كملك مطلق وإضفاء الشرعية على أصلي الخارق من خلال قدراتي الجسدية الاستثنائية. أظهرتني عاصمتي الجديدة كملكٍ مثقفٍ ومستنيرٍ، بينما أظهرتني

زوجتي الجديدة، المختارة من طبقة الفلاحين، كحاكمٍ إنساني وتقدميٍّ؛ وآخر مولود لي «خفرع» جعل منِّي فرعون فحلًا وخصبًا. الاختبارات الرياضية التي فزت فيها جميعًا أظهرتني كقائد حامٍ ومدمر في الوقت نفسه، شخص يعرف دائمًا كيف يدفع قوى الشر والفوضى خارج مصر.

في أرشيف القصر تأكدت من أن أسطورتي الحية مدعومة أيضًا من قبل مؤرخِيَّ. سأدعكم تحكمون بأنفسكم:

«في السباق، تفوق على جميع منافسيه ولم يستطع أحد قط اللحاق به، ولا حتى من قِبل أكثرهم مهارة وأسرعهم. لم يكن هناك رجل واحد يمكنه شد حبل قوسه. لم يكن له مثيل في الصيد. قتل سبعة أسود بمفرده وعاد بقطيع مكون من اثني عشر ثورًا بريًّا. هذا دون أدنى مبالغة!».

لكن في بعض الأحيان يتصرف المرء دون التنبؤ بعواقب أفعاله. أُجْهِضَت كل جهودي الدعائية لأنني أردت توجيه ضربة لشخصية ماهرة مثلي تمامًا، أتحدث عن «چدي».

على عكس الجمهور، لم ترُق لي فقرته الأخيرة حيث قطع رأس الإوز ثم أحياها. كنت أرى أن اللجوء إلى الخدع السحرية يُعَد تدنيسًا للمقدسات يريد بها «چدى» أن يبدو كإله خالق. الحياة والموت ليسا أمرين تافهين لتركهما بين يدَيْ ساحر. شكرت «چدي» علنًا وكافأته بألف رغيف وألف قارورة جِعَة وأشياء كثيرة طيبة من المطابخ الملكية، ثم أردت أن ألقنه درسًا:

– هل في استطاعتك يا «چدي» تكرار هذه التجربة على إنسان؟ أسير حرب على سبيل المثال؟

اعتقدت أنه سيَرتبك ويُجيب بشيءٍ مثل: هذا مستحيل يا مولاي! وحده إلهٌ خالق من يقدر أن يقوم بتلك المسألة!

لكن «چدي»، الماكر مثل الثعلب، أجابني كاذبًا:

– يمكنني، يا مليكي، لكن ارتكاب فعل مماثل على إنسان يُعد انتهاكًا للحرمات!

انتهز معارضِيَّ المتربصون بي –وعلى رأسهم «رع–نفر» الكاهن الأكبر لإيونو– الفرصة لتشويه سمعتي. لقد حرَّفوا معنى كلامي. أعلنوا أنني فرعون قاسٍ لا يحترم حياة الإنسان. والأسوأ من ذلك، زعمهم أنني لم أتبع مفهوم الماعت عندما اقترحت مثل هذا التحدي على الساحر.

♀

اغتظتُ وأنا أرى الحياة الاجتماعية تنتقل تدريجيًّا إلى «عنخو خوفو» بينما كان عليَّ أن أبقى منعزلة في

«إنِبْ-حِدِجْ» بجوار هاتين الملكتين البائستين، بسبب ألقابي. لطالما أحببت الرفاهية وكل مُحْدَث مثلما يُحب النحل العسل. لم أُطق صبرًا ألا أكون جزءًا من كل تلك الحفلات الباذخة التي يهرع إليها المتأنقون المهندمون والعلماء والأزواج المستقبليون المُحتَمَلون الرائعون. كان جمالي يتلاشى بسبب فقداني لمعجبِيَّ. كنت مُعرَّضة للعيش على هامش الحياة بقية عمري. وهذا أمر لا يطاق!

«قلت لـ«ميريت إت إس»: يجب أن تتوخي الحذر الآن بعد أن أنجبت الفلاحـة طفلًا ذكرًا»، أنا لا أرى قيمة كبيرة لأبنائكم، أولياء العهد، «كاوعب» و«چدف رع»، ولا حتى لك!

هكذا نجحتُ في غرس الخوف والرغبة في الانتقام في عقل «ميريت إت إس» المريض. رأيت أن الوقت قد حان للانتقال إلى المرحلة التالية.

الفصل الرابع عشر

«مد الحبل»

بدأ العد التنازلي. في غضون شهر، بالتمام والكمال، سيذهب الفرعون مُحاطًا بأبهة كبيرة في حشد باذخ مَهيب إلى هضبة الجيزة لإقامة طقس «مد الحبل»، وهو عبارة عن تمديد الحبل الذي من شأنه أن يحدد المحيط الدقيق لهرمه المستقبلي. كنا جميعًا ننتظر هذا الحدث، العمال والطهاة والخبازون أمثالي. ستكون إحدى أجمل احتفالات العام التي تتم فيها –ولأول مرة– دعوة جميع سكان الجيزة والمنطقة المحيطة بها، بل وأيضًا دعوة جميع المصريين. أكدت لي زوجتي «ميريت»، التي تُقيم إقامة جزئية في القصر مع أختها «حنوت–سن» وابن أختها «خفرع»، أنه سيكون حدثًا سيظل في الذاكرة بعد ألف عام! نظم القصر وليمة لا تُنسى وقام بتوزيع كميات كبيرة ومجانية من الطعام على جميع المشاركين. تم إنشاء أكشاك الحلويات والهدايا التذكارية على طول نهر النيل للترحيب بالمتفرجين. حان الوقت للبدء! ليس لصنع مئات الكعك المصبوب على شكل حيوانات، أو أسماك، أو أبقار، أو طيور، أو قطط، أو مئات الأشكال الأخرى، محشوة بالعسل أو التمر أو التين، لا؛ لقد حان الوقت بالنسبة لي لبدء مشروعي العظيم: مشروع قوالب الكعك التي ستحمل اسمي: «بِدچا».

قبل أن يلتهم الجراد قريتنا بالكامل كنت قد جربت تقنيات مختلفة لصنع الخبز على نطاق واسع، كما اختبرتُ أيضًا أخلاطًا من الدقيق الخاص تضمَّن فترة صلاحية ممتدة. وقد طالب بذلك –على وجه الخصوص– البحارة الذين يركبون البحر ولم يتمكنوا من الحصول على المؤن بانتظام لإبحارهم على طول الساحل. منذ إقامتنا بمعجزة في الجيزة والتبدل المُذهل لحالنا عملت بحماسة ونشاط في مخبز الدولة الذي يطعم مجموعة من العمال في مواقع بناء التاج. نَمتْ قرية الحرفيين الدائمين بشكل كبير وتم تحديثها، وأصبح لدينا المزيد والمزيد من الأفواه لإطعامها. لقد تخليت عن مشاريعي الطموحة وبدأت في النوم في رفاهية آمنة لم تكن مناسِبة للإبداع على الإطلاق. شعرت بكامل الارتياح لكوني آمنًا مع عائلتي. تمتعنا بمنزل خاص يحتوي على أربع غرف وفناء، ومطبخ، وشُرفة على السطح، بالإضافة إلى مراحيض خاصة متصلة بالمجاري، وهو ما بدا لنا رفاهية لا تُصدق. تكفلت الدولة بكل احتياجاتنا الضرورية وحتى غير الضرورية. كانت قريتنا النموذجية عبارة عن خلية نحل حصلت –بالإضافة إلى طعام متنوع وفير– على جميع أنواع المنتجات: الكتان، والمراهم، والوقود للطبخ والتدفئة، والزيت والفتائل للمصابيح، والفخَّار، والسلال، والصنادل. بالإضافة إلى ذلك تلقينا مكافآت وفيرة.

– لم أعد أعرفك –قالت لي «ميريت»– لقد أصبحت متبلدًا وأحمقَ!

كان هذا الأمر عارًا على الخباز، أعترف بذلك.

عند الإعلان عن هذا الاحتفال عُدت مُجددًا لاستغلال أيام العُطلة في تجربة تقنية الطهي في قوالب عملاقة الحجم، كنت قد تمكنت من صنع نموذج أولي واحد فقط منها، لكنه لم يحظ برضائي. لم يكن قالب «بدچا» مثاليًّا بعد. ولكن على عكس زملائي ورؤساء العمال ومشرفي المخابز؛ كنت أحتفظ -بحرص شديد- بأجْوِلة القمح التي حصلت عليها كعلاوة على راتبي. كنت في حاجة إليها لتمويل تجاربي! أما هم، فقد استبدلوا بها قضبانًا نحاسية، وكانوا يطمحون يومًا ما إلى امتلاك الذهب!

كان لي جارٌ اسمه «كيم»، خزَّاف من الجنوب. اعتاد أطفالنا اللعب معًا؛ مما شجعَنا على احتساء الجِعَة وتجاذب أطراف الحديث. عندما تم بناء الثقة إلى حدٍّ ما بيننا، أفصحت عن مشروعي لهذا الصديق الجديد. لقد رسمت قوالب كبيرة جدًّا بقطر خمسة وثلاثين سنتيمترًا وبنفس القدر من العمق، على شكل مخروطي. كان يجب أن تكون مصنوعة بشكل تقليدي من الطين الممزوج بالقش والرمل لضمان مسامية ممتازة لتسوية الخبيز. كَمُنت الحبْكة -ولكن أيضًا الصعوبة- في الحصول على الكثافة المناسبة لجدران القالب؛ فيجب ألا تكون شديدة السُّمك للسماح بالتوزيع الأمثل للحرارة، ولا شديدة الرقة حتى لا ينفجر القالب أثناء الطهي. كان من الضروري أيضًا التأكد من أن تقعُّر الحاويات يسمح بتكديسها فوق بعضها البعض لسهولة تخزينها، ولكن أيضًا للسماح بتسخينها المُسبق. استمع «كيم» باهتمام. لا أعتقد أنه فَهِمَ جيدًا التحدي اللازم لإنجاح صواني الخبز «بدچا»، ولا فَهِمَ أيضًا أنني لم أعد موظفًا بسيطًا؛ بل أصبحت رئيسًا لعملي الخاص الذي عليَّ تنميته. ستكون التقنية الحديثة للقوالب العملاقة ووصفات الخبز ذات الصلاحية طويلة الأمد، ابتكارًا هائلًا مع إمكانات نمو وازدهار اقتصادي لا مثيل لها.

بدأ «كيم» في التصنيع على عجلة الخزَّاف مقابل شوال من القمح. كان نظام «بدچا» قائمًا على العمل بشكل ثنائي. فكانت الجرة التي تحتوي على العجين تُغطى بوعاءٍ ثانٍ متطابق، يوضع مقلوبًا فوقها؛ مما وفر وأوجد مساحة داخلية بارتفاع سبعين سنتيمترًا، وعندما تنتفخ العجينة وتنتفش ستنتج رغيفًا ضخمًا من الخبز! لن أزعجكم وأخبركم بكل مغامراتنا، لكن اعلموا أننا قمنا بتكسير عدد كبير من النماذج الأولية. ثم حدث ما يحدث للأشخاص المتفائلين والمثابرين: صنع كيم قالبًا ذا أبعاد مثالية وتمكن من إعادة إنتاجه بشكل مماثل.

قبل أسبوع من إقامة الاحتفال، وبفضل مطالبة «ميريت» المتكررة، خصص لنا القصر قطعة أرض شاغرة لنبني عليها مخبزنا التجريبي. بمساعدة عشرات المتطوعين، أقمنا جدران مُنشأتنا بالرمال، والطين، والماء، والأنقاض. قمنا ببناء مدخنة وسلسلة من أربع وعشرين حفرة في الأرض، مليئة بفحم الحطب المُشتعل لغرز قوالبنا بداخلها. قمنا بتركيب طاولة لنضع فوقها الصهاريج الثلاثة التي تحتوي على الماء، والخميرة،

والدقيق اللازم لصنع العجين. وفي مقابلها وضعنا طاولة كبيرة لإخراج الأرغفة من القوالب وتقديمها. جاء عدد كبير من أهالي القرية ليشهدوا طهو باكورة إنتاجنا. قمت، مع متدربيَّ، بتكديس القوالب داخل بعضها البعض لتسخينها مُسبقًا في الفرن، ثم قمنا بتثبيتها في الحُفَر المخصصة لهذا الغرض وأحكمنا إغلاقها بغطائها. استخرجنا من القوالب الأرغفة الأولى تحت هتافات وصيحات الفرح. اضطررنا لتكسير بعض القوالب لإخراج الأرغفة المقرمشة الضخمة من الخارج والممتازة التسوية من الداخل. ضحك الأطفال على هذه المخاريط العملاقة وجاءوا لنقرها بأيديهم الصغيرة الرشيقة. قمنا بتقسيم الأرغفة ووزعناها على جميع معجبينا.

حققت مبادرتنا نجاحًا غير مسبوق. لقد صنعنا الخبز بكميات كبيرة لاحتفالية «مد الحبل». منذ ذلك الحين، وبرعاية القصر، تمكنا من إنشاء العديد من المخابز ذات الإنتاج الضخم. أصبحتُ اليوم مَنْ يُورِّد لجميع العمال -الدائمين والمؤقتين- حصتهم اليومية من الخبز. أنا فخور لأنني كنت قدوة ومثلًا يُحتذى به. جعل والداي أيضًا مصنع الجِعَّة الخاص بهما يزدهر، بعد أن طبقا نموذجًا مماثلًا. استفادا من احتفالية «مد الحبل» لتجربة نموذج من الصهاريج مملوءة بخليط حُلو من الماء والتمر حيث يضعان الخبز ليتخمر قبل سحقه في العصيدة. بِنَاءً على نجاح هذه الجِعَّة الداكنة اللذيذة؛ افتتحا منذ ذلك الحين مصنعًا عملاقًا يتكون من ثماني وحدات إنتاج أو أكثر، مُكونًا من أربعين حوضًا كبيرًا من الفخار؛ مما يسمح لهما بإنتاج ما يصل إلى اثنين وعشرين ألف لتر من الجِعَة! وما لم أكن أتخيله أبدًا هو أنهما توقفا عن السكر يوميًّا للانكباب على التنظيم والتخطيط لمشروعهما الجديد والتفكير في مستقبله.

♀

كان «خوفو» رجلًا في عجلةٍ من أمرهِ. أراد أن يرى كل شيء مكتملًا قبل أن يأمر به. كان علينا أن نفهمه في طرْفَة عين ونستجيب في لمح البصر. كان يُقدِّر المهندسين المعماريين القلائل الذين -مثلي أنا «حم-إيونو»- لديهم القدرة على قراءة أفكاره. كان رُهابه هو الموت قبل أن يتمكن من إتمام مجمعه الجنائزي الذي تتوسطه القطعة المركزية: هرمه الأملس. وعلى غرار ما تم في العاصمة الجديدة «عنخو خوفو» قمنا بإطلاق العديد من مواقع البناء بشكل استراتيجي في وقتٍ متزامن، بدءًا من تخطيط الطريق الهائل الذي يرتفع لأكثر من ثمانمائة متر، والذي من شأنه أن يؤدي من معبد الوادي -الذي تم بناؤه بالفعل على ضفاف النيل- إلى المعبد الجنائزي الذي يطل على الواجهة الشرقية للهرم. تناوبت فرق من الرسامين ليلًا ونهارًا على إعداد الرسومات التخطيطية للزخارف التي ستُحفر في الحجر الجيري الناعم الوارد من راو (طرة)، وستُرسم بالألوان الزاهية. كان من المستحيل بالنسبة لي تحديد حمولة الحجر الجيري من راو (طرة) التي سنحتاجها

لتغطية جميع الأسطح

المرئية، وأيضًا للواجهة الداخلية للطريق الصاعد بأكمله، ولبعض القطع الطقوسية. ونظرًا إلى أن متطلباتنا ستكون هائلة واستثنائية؛ فقد تقرر حفر مكان ثانٍ للتنقيب في الموقع. ذهبنا في استطلاع إلى راو (طرة) برفقة رؤساء المحاجر والمفتش «مِرِر» الذي سيؤمِّن نقل المواد الخام يوميًّا. كانت المحاجر تحت الأرض غائرة داخل أنفاق عميقة، حيث كان العُمال يصدرون ضجيجًا لا يُطاق، ضاعَفه صدى الصوت المتردد عبر الأنفاق. خطُّوا على الحائط حدود الكُتل المراد استخراجها. جلس البعض، بينما ظل البعض الآخر واقفًا، متوازنًا على سقالات يصل ارتفاعها إلى أكثر من عشرة أمتار. في الخطوط التي أحدثوها حفروا ثقوبًا أدخلوا فيها أسافين خشبية يغمرونها بالماء. تسبب التمدد في انفصال الكُتل الصخرية. تأوه الحجر وصرخ تحت ضربات المطرقة قبل أن ينهار بواسطة رافعات كبيرة من الخشب اقتلعته من المحجر. تم تشكيل الكُتل في الموقع ثم تم تنعيمها في الجيزة حتى لا تتضرر أثناء النقل. تطاير غبار ناعم كثيف في الهواء ثم تساقط على الأرض؛ مما جعلها زلقةً مثل الرمال.

كان التنفس شبه مستحيل! مثل العُمال، كان علينا تغطية أفواهنا وأنوفنا وآذاننا في محاولة لحماية أنفسنا من هذه الجسيمات والشظايا. ابيضت أَهدابُنا، ولم نكن نرى سوى ظلال، في مثل بياض الحليب، تتحرك داخل سحابة كثيفة. وأكد الطبيب المناوب في الموقع أن العديد من الرجال يعانون من التهابات في العين، بل وأن البعض قد أُصيب بالعمى، وآخرين أصابهم مرض أخذ ينخر فيهم من الداخل ويدمر رئتيهم. أوصانا الطبيب -بالاتفاق مع رؤساء عمال المحاجر- بمناوبة الأيدي العاملة.

- من الذكاء أيضًا تشغيل محجرين بالتتابع، هكذا علَّق «مرر». سيسمح هذا لقواربي بالتناوب. بينما يقوم أحد المحجرين باستقطاع المواد فإن المحجر الآخر سيقوم بتجهيز المواد الخاصة به لتحميلها على المركب. سنحتاج فقط إلى المزيد من الزلاجات لتحميل الحجر على المراكب. من واقع خبرتي يمكنني أن أؤكد أن سفينة فارغة ستقوم بالرحلة في يوم واحد وسفينة محملة بسبعين إلى ثمانين طنًّا من الحجر؛ أي ما يعادل ثلاثين كتلة، ستقوم بنفس الرحلة في يومين ونصف.

- في النهاية، قال لي «حم-إيونو» مُؤكدًا: لن نحتاج إلى عدد كبير من الرجال! لقد قمتُ بعملية حسابية سريعة. وأضاف متفائلًا للغاية: إذا حافظتم على تقديركم فيما يخص الهرم وحده -الذي يتطلب سبعة وستين ألف كتلة للواجهة- فإن أربع فرق من البحارة ستكون كافية لنقل المواد الخام في غضون عشرين عامًا، وهذا سيمنحنا الحرية في تنظيم النقل عن طريق النيل وسيناء والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وفقًا للاحتياجات الأخرى لموقع البناء.

بدأ العُمال في تسوية جزء هضبة الجيزة الذي سيقام عليه الهرم بفنائه وجداره المُحيط، فلا يمكن لصرحٍ صلب أن يقوم إلا على أساس لا تشوبه شائبة. كما أن المنجمين وعلماء الفلك من معبد «رع» في هليوبوليس كانوا أيضًا بحاجة إلى منصة مسطحة تمامًا لإجراء الرصد الفلكي. ومثلهم أيضًا، المَسَّاحون، يحتاجون لأرضٍ مستوية ليقوموا بغرز الأوتاد التي من شأنها أن ترسم محيط الصرح المستقبلي؛ لذلك لجأت إلى حيلة وهي الاحتفاظ بجزء من حجر القاعدة الأصلي مما سيوفر علينا بعض أعمال التبطين داخل الهرم ويوفر لنا الوقت.

كنت أتطلع إلى يوم الحفل الرسمي لمد الحبل. عندما ينتهي كل من «رع نيفر» الكاهن الأكبر لـ«رع» و«خوفو» من أداء طقوس التأسيس، سأتمكن أخيرًا من مواجهة قدري. هل سأكون مُشَيِّد الصرح الأكثر تعقيدًا والأطول والأكثر روعة في العالم، أم لا؟

♀

كان «خوفو» و«حم-إيونو» وبعض المساعدين والحراس قد رافقونا إلى هضبة الجيزة باحترام قسري. لم يستطع الفرعون أن يحيد عن التقليد الذي يمنحني وحدي سلطة مراقبة السماء المرصَّعة بالنجوم، أنا كاهن هليوبوليس العظيم، وتباعًا، الكهنة الفلكيين. لقد اجتمعنا لتنفيذ العملية الأكثر دقة على الإطلاق: توجيه الهرم المستقبلي وفقًا للاتجاهات الأساسية الأربعة. كان علينا أولًا تحديد جِهة الشَّمال. قضينا ليلتنا في مراقبة «النجوم الأبدية»؛ تلك النجوم المضيئة التي لا تشرق ولا تغرب. فدائمًا ما تكون مرئية في السماء الشمالية ولا تختفي أبدًا تحت خط الأفق؛ لهذا السبب ترمُز النجوم، في النصوص المقدسة، إلى الخلود. بعد وفاته، سينضم الفرعون إلى «أبدية الظهور» في السماء ويندمج في الوقت نفسه مع والده «رع»، الشمس. لم أكن أنتوي ولا توجد لديَّ أدنى نية لتعديل النصوص الدينية كما طالب «خوفو».

كنت قد اخترت أن أضع حساباتي وفقًا لتاريخ الاعتدال الربيعي. في هذا الوقت من العام تشرق الشمس بالضبط في الشرق وتغرب بالضبط في الغرب. في الصباح، قمت بغرز عصًا خشبية في الأرض. استعنت بخيطٍ رصاصي للتأكد من أنها موضوعة بشكل سليم في وضع عمودي. طوال اليوم لاحظت ظلها المتساقط وأمرت بوضع علامات على الأرض لرسم خط يمتد من الشرق إلى الغرب. نظرًا لأنه قد تم بالفعل التعرف على اتجاه الشَّمال بدقة؛ كان من السهل بالنسبة لي رسم خط الشمال / الجنوب المفقود.

في الوقت الحالي كنت أنا «رع-نفر» أهم شخص حي على وجه الأرض. ستسمح حساباتي الذكية بالبدء في بناء أكثر صرح مرغوب فيه في العالم، من قِبل الملك الذي أراد قبرًا مرموقًا، ومهندسه المعماري الذي لم

يعد يطيق الانتظار لوضع الحجر الأول لبُنيان يُعَد برهانًا وشاهدًا على معرفته وعلمه.

اختار «برني-عنخو» -وهو المسؤول عن خزانة ملابسي- زي الاحتفال المكوَّن من مئزر مُطرز بخيوطٍ ذهبية؛ وقلادة صدرية من اللازورد والعقيق مع أساور عريضة متوافقة؛ التاج المزدوج الأبيض والأحمر والصولجان الملكي. ارتديت أيضًا اللحية الاصطناعية وذيل الثور. علمني «چدي» أنه يجب عليَّ دائمًا إيلاء اهتمام خاص لزيي؛ رمز السلطة المطلقة والهيبة والهيمنة. كان يكرر دائمًا: «الجماهير تحب أن تنبهر، الشعب يحب الأُبَّهة». وكان مُحقًّا. حُمِلتُ في محَفَّة إلى هضبة الجيزة، وهتف لي في الطريق حشدٌ من ممفيس أيضًا من مدن وقرى أبعد بكثير. كانت رؤية الفرعون حدثًا استثنائيًّا. سارع الجميع للدنو مني دون أن يجرءوا على لمس المحَفَّة؛ فقد كان معروفًا عني أن الهالة التي تحيط بي تعمل كسلاح خارق للطبيعة من شأنه أن يحظر أي شخص من أن يضع يده عليَّ أو على خاصتي. كان حراسي الشخصيون يحمونني، وكانت الشرطة تتجول في كل مكان وتتفقده. وضعت قدمي على الأرض لأتجه نحو العرش الذي تم وضعه تحت المظلة الرسمية. كانت كل خطوة أخطوها بمثابة استحواذ ضمني على الأراضي المقدسة لمجمعي الجنائزي.

حرصتُ على أن يجلس إلى جواري -تحت العرش- الرجلان اللذان وضعت فيهما كل ثقتي: مهندسي المعماريان «حم-إيونو» و«عنخ-خاف».

جاءت عائلتي في «إِنبْ-حِدِجْ» لحضور الحفل، لم يكن لديها خيار. كان ابني الأكبر «كاوعب» و«چدف رع»، في صحبة «حتب-حرس» و«ميريت إت إس» و«نفرت-إيابت». شعرت بنوع من الكراهية عندما حيَّاني بالانحناء وتقبيل الأيدي، دون أن ينبِسا ببنت شفة. أخذا ينظران إلى أخيهما الأصغر «خفرع» الذي كان يشارك أيضًا في الاحتفالات جالسًا على أكتاف خالته «ميريت»، وكأنه حيوان غريب. كان يلوِّح بيديه الصغيرتين ليُرحِّب بي ويُرسل لي قبلات في الهواء. كانت «ميريت إت إس» تُحدق بعداء في «حنوت-سن». كانتا مختلفتين تمامًا مثل الفأر وفرس النهر! أدركتُ بعد ذلك أن الأمر لم يستغرق مني سوى ثانية واحدة لأقع في غرام «حنوت-سن»، لكن لن يكفيني العُمر بأكمله لأُحب «ميريت إت إس».

اجتَمَعت الحاشية بأكملها تحت خيمة من الكتان مرسوم عليها خرطوشتي. لقد جاء المسئولون وزوجاتهم وأمهاتهم وأطفالهم ليُشاهدوا الاحتفال، ولكن أيضًا ليستعرضوا أنفسهم. لقد ارتدوا أفضل ملابسهم وتعطروا بسخاء لدرجة أن الروائح النفاذة جاءت تقتحم أنفي. كانوا يتبخترون زهوًا وتركوا أنفسهم للخدم النوبيين الصغار يهوون عليهم بالمراوح. تم إعداد منبر خاص للكهنة: «بتاح نفر»، رئيس كهنة الإله

«بتاح»، إله الحرفيين والمهندسين المعماريين، مبتسم طيب القلب كالعادة، و«رع نفير»، رئيس كهنة الإله «رع» الذي كان ينظر بحدَّة ناحية الجمهور. أطال النظر إلى «نفرت-إيابت». كانت -بحق «رع» و«حتحور»- ذات جمال طاغٍ وأخَّاذ! لم تستطع أي من النساء الحاضرات منافستها. شَعَرتْ أن هناك عيونًا تتفحصها. اعتدلت في جلستها ورأيتها تحاول جذب انتباهي قبل أن تغرز عينيها الأرجوانيتين مثل الخناجر في «رع-نفر». نظرة، صدر منتفخ، انحناءة أرداف، كلها أشياء تستطيع أن تُغير وجه العالم بالتأكيد!

♀

لقد فزت بالتأكيد بثقة سيدي! فقد عهد لي، أنا «چدي» الساحر التافه وآكل النار، بتنظيم ثاني احتفال كبير في عهده: مراسم «مد الحبل»، بعد احتفال تتويجه.

قام مسَّاحو الأراضي بحفر ثقوب منتظمة لتحديد محيط هرمه المستقبلي. كانت الثقوب المحفورة في الزوايا الأربع أعمق ويمكن أن تستوعب الأوتاد التي كان على الملك أن يغرزها بنفسه في الأرض وفقًا للمراسم الطقسية. سُمِعَ دَويُّ الأبواق. وقف «خوفو» في وسط القاعدة المربعة للصرح المستقبلي. رفع ذراعيه عاليًا إلى السماء كما لو كان يعانق الشمس ورتل صلاة منعتنا الرياح التي اجتاحت الهضبة من سماعها. وهو أمر ليس بالمهم. من خلال هذه الإيماءة المسرحية قدم نفسه على أنه الصورة الدنيوية للإله الخالق «أتوم رع»، الذي أنهى الفوضى الأصلية ونظم الكون بأسره. سرعان ما انضمت إليه كاهنة شابة للإلهة «سشات» التي تُعبد في ممفيس، إلهة الكتابة، وعلم الفلك، والهندسة المعمارية، والرياضيات؛ فهي تساعد المنجمين في حساباتهم العلمية والمهندسين المعماريين في رسم تصميماتهم. كانت الشابة -التي استُقبِلَ وصولها أيضًا بدويِّ الأبواق- ترتدي جلد الفهد، وعصابة خاصة جدًّا تتكون من شريط أمامي على الجبين تعلوه نجمة سباعية. أثار ظهورها حماسة «خفرع» الذي أخذ يناديها. لم يكن الطفل مُلِمًّا بعد بالرسميات؛ لأنه بمجرد أن رأى والده يظهر بجسده الرياضي الرائع أخذ يُحاول الإفلات للانضمام إليه. تسبب فرط حماسه في نظرات غاضبة من الحاشية ودهشة إخوته. تم إعطاء قطعة حلوى للطفل لتهدئته.

في تجاهل تام للحدث وببراعة فائقة قام كلٌّ من «خوفو» والكاهنة بتقديم الحركات الإيقاعية التعبيرية التي كنا قد صممناها. بحركة مزدوجة ومتزامنة تمامًا دقَّا بالمطرقة الأوتاد -التي من شأنها أن تحدد الأرض- في الزوايا الأربع للمحيط المرسوم، ثم قاما بدق أوتاد في وسطها. بعد ذلك قام «خوفو»، منفردًا، بفك بكرة حبل، وربطه بوتد تلو الآخر حتى وصل إلى آخر وتد؛ من أجل تحديد محيط المبنى المستقبلي في الفراغ الإنشائي. سيمتد الهرم العملاق على قاعدة مربعة يصل طول ضلعها إلى مئتين وثلاثين مترًا؛ لا يمكن لأحد أن يتخيل بَعدُ الارتفاع الهائل الذي سيصل إليه.

كنت قد جعلت الفرعون يكرر الخطاب الذي كتبه بنفسه. كان خطيبًا رائعًا، لكنه لم يتقن بعدُ لغة الجسد. كان يعتقد أن عضلاته وقامته الفارعة كافيتان لفرض حضوره. كان هذا صحيحًا إلى حدٍّ ما. تراجع في اللحظة الأخيرة عن إلقاء الخطاب مشيرًا إلى أن الريح ستطغي على صوته. اكتفى بالعودة إلى عرشه وسط تصفيق الجمهور. كان «خوفو» سياسيًّا بالفطرة ذا حدس. لقد فهم أن الصمت غالبًا ما يكون أبلغ من الكلام.

♀

نزولًا على رغبة «حنوت-سن» أمرتُ بأن يُختتم هذا الاحتفال الذي لا يُنسى بوليمة عامة، على ضفاف النيل، مع الأغاني والرقصات والجِعَة وخيرات الأراضي الزراعية الوفيرة لتأكل الحشود حتى الشبع. عندما أقول «عامة» فهذا يعني جمع كل عمال الموقع، من أصغر وأبسط عامل إلى العمال المتخصصين، ورؤساء العمال، والمهندسين المعماريين الرئيسيين. شملت الدعوة أيضًا أهالي القرى المجاورة وسكان مدينة «إِنِبْ-حِدِجْ». هؤلاء الرجال والنساء هم التروس الحية للآليات العظيمة التي من شأنها تنفيذ مجمعي الجنائزي، سيعملون من أجلي، «خوفو»، إلههم الحي، البعض منهم معرضون حياتهم للخطر، يدفعهم إيمان متغلغل في أعماقهم. كنت بحاجة إلى التزامهم الكامل لبدء البناء الذي لن يتوقف على الأقل خلال العشرين عامًا القادمة.

لم أكن أتخيل التأثير الشعبي الذي ستحدثه هذه الوليمة، ولكني في المُقابل كنت قد توقعت تمامًا الهلع والعار اللذين ستشعر بهما أمي وأختي من أعلى محفَّتهما من جراء اختلاطهما بالعمالة والخدم، وأعترف أنني كنت مستمتعًا في خباثة بهذا المشهد. لقد نظرتا بريبة إلى هذا الحشد العجاج المبتذل الصاخب من الطبقة العاملة. لم تمكُثا طويلًا على ضفاف النهر.

لم تكن بالتأكيد المرة الأولى التي أختلط فيها بالعامة، لكنها كانت المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك بصفتي فرعونًا؛ لذلك كان عليَّ أن أُبقي وأحافظ على الصورة التي تجعل من الفرعون شخصًا لا يمكن الوصول إليه. كنت كائنًا متفوقًا وساميًا عن باقي البشر، لا ينتمي بشكل كامل للإنسانية. كما يقتضي مفهوم الماعت الاجتماعي، قمت بإجلاس هؤلاء الرجال والنساء في راحة ممتعة خلطوا بينها وبين الرفاهية. لقد أصبحوا أفرادًا يحظون بامتيازات ويمتلك كلٌّ منهم منزلًا كما ينبغي حقًّا للمنازل أن تكون. لاحظت أن إرضاء الفقراء أسهل بكثير من إرضاء الأغنياء. كانوا يكتفون ويشعرون بالرضا بالقليل من الرفاهية. وعلى عكس النبلاء، لم يكونوا يسعون للوصول إلى السلطة؛ أعني بالسُّلطة الهيمنة والسيطرة؛ لأننا نعلم جميعًا أن الإنسان خُلِق هكذا، غالبًا ما يحب السيطرة والتحكم في الآخرين.

هؤلاء الرجال والنساء كانوا يخشونني ويقدسونني، أنا فرعونهم، لكنهم كانوا أيضًا يهتفون لملكتهم الجديدة، أعتقد أنهم أحبوها. كانت «حنوت-سن» تحظى بشعبية كبيرة. كانت تعرف كل عائلة في قرية العمال النموذجية، تتفقد الأخبار كل يوم، وتتحدث إلى الأمهات، وتُقبل الأطفال، وبمبادرة منها تم طلاء المنازل بالجير الأبيض للحماية من الحرارة والحشرات، كما تم تجهيز جميع المنازل بمطبخ، ومخزن مؤن، وفرن للخبز، وحلت المراتب الناعمة محل مراتب القش فوق أَسِرَّة الطوب الخام، كما عملت على أن يفتخر كل فرد بوجود صندوق لتخزين ملابسه، وسلال كبيرة أيضًا. كانت جدران الأزقة محفورة بها ركائز حيث توضع مصابيح الزيت ليلًا للإضاءة. كانت جميع الفتيات في القرية يحلمن بالتشبه بـ«حنوت-سن»؛ قمن بتصفيف شعرهن مثلها، بضفيرة عريضة على الجانب، مزينة باللؤلؤ والأشرطة، ربطن ستراتهن بنفس الأحزمة الجلدية المضفورة، كما حلم جميع الشباب في القرية باتخاذ شبيهة الملكة الجديدة كزوجة. أفصحت «حنوت-سن» عن رفضها مرافقة الحرس والحشم، ناهيك عن نقلها بواسطة المحفَّة. كانت تجوب الشوارع بخطوات رشيقة وهي تُهمهم، وعندما كانت تشعر بالعطش كانت تشرب من قُلة السقا. سار «بابا» بجانبها فخورًا كما الأسد، كان شعره لامعًا ومُمشطًا، وقلادة من الزهور تُزين رقبته. كان الحمار -وفقًا لـ«حنوت-سن» - أفضل الحراس الشخصيين. يحذر بنهيقه من الخطر، ويمكنه رفس أي شخص يقترب مدفوعًا بنوايا سيئة.

في السلال التي وضعت على ظهره، حمل على جانبٍ الحلويات والهدايا الصغيرة، وعلى الجانب الآخر «خفرع» ابننا الرائع ذا الخدود الممتلئة والعيون اللامعة الذي أراد فقط التسلق على ظهر الحمار. هذا الابن لن يكون ملكًا أبدًا؛ ولهذا السبب غضضت الطرف عن تربيته التحررية، لكني أخذت عهدًا على نفسي بأنني سأكون صارمًا معه بمجرد أن يبلغ من العمر ما يؤهله للذهاب إلى المدرسة. في الوقت الحالي كان يلعب في الأزقة مع الأطفال الآخرين، ويضع يديه في طين الخزَّاف ويصنع وعاءً صغيرًا من الفخار يعود به إلى القصر وكأنه يحمل كأس البطولة. كان يحب الذهاب إلى ورش عمل الرسامين المتدربين الذين يعطونه رسومات لحيوانات على رقائق الحجر الجيري، كالقرود، والقطط، والكلاب، وأبو قردان، وكان يهوى أيضًا الذهاب إلى النجارين الذين كانوا يصنعون له صناديق كنوز صغيرة وحتى «بابا» مصغرًا أكثر واقعية من الحيوان الحقيقي. كان يُفضل على العرش الذي قدمته له -وهو نموذج مصغر لعرشي مطلي بالكامل بالذهب- كرسيًّا هزازًا صممه له كبير النجارين «إنتي-شيدو»، وكان يتركه في القرية حتى لا يُحزنني. أخذته «حنوت-سن» معها في كل مكان باستثناء المستوصف. كانت ترغب في إخفاء معاناة العالم عنه؛ لأنه كان لا يزال صغيرًا.

كانت قد افتتحت وحدة طبية تحت إشراف السيدة «بسشيت». كانت الطبيبة تعالج جميع الإصابات الصغيرة والإسهال والصداع وضربة الشمس ولسعات العقرب ولدغات الأفاعي أو الرمد، كما ساعدت

النساء على الولادة. لقد تَمَكنتْ، بإحسانها، ولطفها، ونجاح وصفاتها، من كسب ثقة القرويين الذين أصبحوا يترددون على الدجالين المشعوذين والمعالجين أقل بكثير من ذي قبل. كانت هي من يكتب التقارير الطبية التي كان على العمال المرضى خَتمها من قبل الكتبة لتبرير غيابهم عن الموقع، وبمبادرة منها أيضًا تم إنشاء صيدلية أعدت جميع أنواع المراهم، وكمادات العسل، والضمادات المُصنعة من ألياف الكتان أو القنب، والزيوت العطرية، وقطرات العين، ونبيذ اللُّفَّاح لتخدير بعض المرضى، كما نصحت «بسشيت» الطهاة بوضع نظام غذائي محدد لكل فئة من العمال؛ فأولئك الذين يقومون بالمهام البدنية والشاقة يجب أن يحصلوا على حصص غذائية تحتوي على ثلاثمائة جرام من اللحوم الحمراء يوميًّا لكي يصمدوا! وأصرت على أن يتناول الجميع -دون تمييز- ثلاث وجبات مغذية ومتنوعة تحتوي على الخضار، والفواكه، والدواجن، والأسماك.

وبفضل امتداد مدينة «عنخو خوفو»، حققت السيدة «بسشيت» حلمها، وأصبح المستوصف مستشفًى حقيقيًّا حيث تَجبر الكسور وتتعامل مع جميع أنواع الإصابات الناجمة عن حوادث العمل. فلا يمر يوم دون أن يُصاب عاملٌ بأداة، أو يهوي من فوق السقالات، أو تنخلع كتفه، والأسوأ من ذلك كله أن يُسحق طرفٌ من أطرافه تحت وطأة حجر غير متراص.

كانت زوجتي الشابة تتمتع بمشاعر التعاطف التي كنت أتظاهر بها دائمًا دون أن أستشعرها أبدًا. لم تفهم أن الفرعون لا يمكن أن يكون «طيبًا» مثلما الرجل العادي. في يوم احتفال «مد الحبل» أدركتُ للمرة الأولى مدى التأثير السياسي الذي أَحْدَثَهُ زواجُنا. كنت أَحْظَى بدعم كبار رجال الدولة، ولكن بفضل «حنوت-سن» كنت سأحصل أيضًا على دعم الشعب الذي كنت بحاجة إليه بقدر ما كان هو أيضًا بحاجة إليَّ.

بينما عادت الحاشية إلى القصر لتشارك في الوليمة، تجولنا -«أميرة القلوب» كما كانت تُلقب، وأنا- في محفَّة، وسط الحشود. تقاسمنا الخبز واللحوم المشوية وكعك العسل الذي كانت تقدمه الأيدي لنا، بالإضافة إلى جرَّات الجِعَة، قمت بتوفير نبيذ من إنتاج مزارع الكروم الخاصة بي، الذي عادة ما يكون مخصصًا للطاولة الملكية فقط.

الشعب يُقدِّس من يملأ بطونه، وأنا، أردت بشدة أن أُقدَّس.

الفصل الخامس عشر

آخِت خوفو

كان «خوفو» رجلًا صاحب رؤية، له أفكـاره وآراؤه. كان دائمًا سابقًا الجميع بعدة خطوات. كنا نجتمع سرًّا منذ أشهر لوضع تصميمات لهرمه المستقبلي. أراد تكييف التقليد اللاهوتي والملكي مع مقبرته، التي تم تصميمها لتكون آلية لعملية بعثه. ومن أجل تحقيق تلك الآلية السحرية يستلزم الأمر بناء ثلاث غرف. سيكون الوصول للغرفة الأولى -التي سيتم حفرها في الأساس الصخري على عمق أكثر من ثلاثين مترًا تحت الأرض- عن طريق مَنْزَلٍ طويلٍ يزيد طوله على المئة متر، ويشير إلى النجوم القطبية المعروفة باسم «النجوم الأبدية». سترمز إلى العالم السُّفلي المخصص لـ«أوزوريس»، وهو مكان مُظلم حيث تقاتل الشمس «رع» كل ليلة قوى الشر من أجل أن تُولد من جديد كل صباح. سوف تقام الغرفة الثانية داخل جسم الصرح، ستضم تمثال «الكا» الخاص به، قرينه الروحي الذي ستسكن بداخله كل طاقاته بعد وفاته. وأخيرًا الغرفة الثالثة سيتم بناؤها في أعلى جزء من البنية التحتية؛ لتكون على مقربة من الشمس والنجوم وستحوي تابوته ورفاته الملكية إلى الأبد. ستكون غرفة من نور، تتألق بذهب الكنز الجنائزي المكدس بين جدرانها. أراد «خوفو» -باعتباره تجسيدًا للإله «رع» على الأرض- أن تكون هذه الغرفة مغطاة بالكامل بألواح من الجرانيت الأحمر الذي يعد الحجر الشمسي بامتياز. لم يكن لديه شك في أنني سأحل جميع المُعْضِلات الهيكلية والمعمارية. كان ما يشغل باله شيئًا آخر: ما الحيل التي سأبتكرها حتى يكون هرمه صلبًا بما يكفي لمقاومة الزمن، وفي نفس الوقت غير قابل للاختراق مصونًا من النهب؟

كنت قد جمعت في مكتب المهندسين المعماريين، المُقام بالقرب من الميناء، جميع رؤساء العمال، وجميع المديرين وجميع المتخصصين الذين سيعملون معًا. تحدث إليهم «خوفو» هكذا ليحفزهم:

- لقد قمتم ببناء منزل وقصر ومبانٍ إدارية وقرية نموذجية للعمال وحتى ميناء اصطناعي في «عنخو خوفو». كل هذا كان مُجرد بناء وتشييد، أما ما أريد أن أراه الآن فهو الهندسة المعمارية! لكن حذارِ، لا أريد نموذجًا طنانًا زائفًا وأجوفَ الهدف منه استعراض المهارات التقنية. أريد صرحًا مثاليًّا، صرحًا صلبًا يستحيل انتهاكه.

على جدار المكتب كتب «خوفو» بأحرف حمراء كبيرة: «آخت خوفو»، أُفق خوفو، حيث تشرق الشمس وتغرب تحديدًا، سيكون هذا هو اسم هرمي!

التفت إليَّ وبإيماءة من ذقنه أمرني، أنا «حم-إيونو» بالمتابعة:

– أيها الوزير، يا رؤساء العمال والمديرين، نحن لدينا اليوم إرث كبير من المعرفة وأيضًا من أخطاء وتجارب ومحاولات أسلافنا. ثمانون عامًا، على أقل تقدير، من التجريب والاختبار، قبل أن يتمكن الفرعون «سنفرو» وأبي المهندس المعماري «نفر–ماعت» من تشييد أول هرم أملس تمامًا في دهشور! سيتم بناء «آخت خوفو» طبقة تلو الأخرى وكل جزء في وقتٍ متزامن. وبينما يكبر الهرم شيئًا فشيئًا، سنبني ممرات الوصول والغرف، كهياكل مستقلة ومنفصلة. سنملأ الفراغ بين هذه الإطارات بِكُتل من الحجر الجيري الخشن المتوافر لدينا بكثرة في محاجر الهضبة. وتوفيرًا للوقت أيضًا لن نهتم كثيرًا بما ليس ظاهرًا للعيان. سأقوم ببناء منحدر في الجانب الجنوبي، الأقرب إلى المحجر، لنتمكن من نقل الحجارة إلى قاعدة المبنى. ومنحدر آخر، يبدأ بالقرب من الميناء، سيسمح لنا بنقل كتل حجر طرة الجيري الناعم إلى الموقع، والتي يتم نقلها بانتظام بالقوارب. ستخدمنا هذه الصخرة ناصعة البياض في كساء جميع الأجزاء المرئية من الهرم، من الداخل والخارج.

إن فتح وإدارة موقع بناء مثل هذا يُمثل مسئولية كبيرة على عاتقي، هكذا تابعت. سيكون عملي وإنجازي بقدر ما سيكون عملكم وإنجازكم أنتم أيضًا، لأن البناء هو –أولًا وقبل كل شيء– عمل جماعي مُنظَّم. كما تعلمون، نحن نخاطر بإرسال رجال إلى حتفهم في معركة ليس بها أعداء، لكن العاقبة هي النصر الذي سيحققه الخيال، والابتكار، والإقدام، والعبقرية البشرية؛ لذلك سأطلب منكم جميعًا أن تحرصوا على أن تكون فرقكم بمنأًى عن المخاطر قدر المستطاع، وأن تكون أيضًا الأكثر كفاءة.

من خلال حفر غرفة شديدة العمق تحت الأرض، كنت أُنافس عبقرية «إيمحوتب» الذي صمم المجمع الجنائزي للفرعون «زوسر» بغرفه المحفورة. وبإقامة الأسقف المُنحنية، كنت أتنافس مع المُخضرم في مجاله؛ والدي «نفر–ماعت». وعن طريق بناء غرفة ثالثة مرتفعة في أعلى مستوى ممكن داخل البناء، سأتحدى نفسي تحديًا غير مسبوق. سيصل «آخت خوفو» –وفقًا لحساباتي– إلى ارتفاع مُذهل يُقدر بمائة وسبعة وأربعين مترًا. ستعطي هذه الكتلة الصخرية الهائلة انطباعًا بالثبات والرسوخ. ومن عجيب المفارقات أنها ستكون أيضًا شاهقة وأنيقة، على عكس هرم «سنفرو» الذي بدا منخفضًا وواطئًا وهزيلًا.

♀

منذ أن أصبحتْ ملكة، عملت أختي «حنوت–سن» على وضع جميع أفراد عائلتنا في مناصب متميزة وآمنة متناسبة وقدراتهم. أصرت على رفض السماح لي بالعمل كعامل في موقع الهرم.

– لا يا «ديدي»، هذا عمل شديد الخطورة!

منذ أن اكتشفت هضبة الجيزة وأنا أحلم بأن أصبح أُسطى حجَّارًا، أنحت الكتل الحجرية بحيث تتعشَّق

تمامًا ببعضها البعض. كان طموحي هو العمل تحت إشراف المهندسين المعماريين العظماء في عصرنا، هؤلاء المخترعين الذين سحروني. تمكنت من الاقتراب من «حم-إيونو» بينما كان يتفقد فرقه. لقد أسَرني بعلمه الواسع، كان يُجيد الهندسة، وعلوم الحساب، وعلم الفلك، والرسم. لقد انبهرت بنبرة صوته السلطوية والعطوف في آنٍ واحد. تظاهر بتفويض العمل إلى رؤساء العمال، لكنني لاحظت أنه يسيطر على كل شيء تمامًا، كان يتصبب عرقًا من فرط بدانته، ويتحرك بصعوبة في موقع البناء وهو يجر ساقيه ونفسه لاهثًا.

لم أكن أريد أن يتم تعييني بدافع المحسوبية لأنني كنت شقيق الملكة.. أردت أن أثبت نفسي بنفسي. كنت قد رفضت العمل في مزارع التاج المحلية تحت إشراف أخي الأكبر «آها»، الذي تم تعيينه مديرًا للإسطبلات الملكية. كان مسئولًا عن ماشية وفيرة ومتنوعة؛ الأغنام، والخنازير، والماعز، والأبقار، والتي كانت بمثابة لحم يسير على أرجلٍ، لإمداد مطاعم العمال، ولكن أيضًا بمثابة خزانات الحليب التي تزود مصنع الجبن القريب. في ذلك الوقت، كان يستلزم الأمر ما لا يقل عن طنين من اللحوم يوميًّا لإطعام القوى العاملة، وكان باقي الطعام يأتينا بانتظام من مزارع الدلتا عن طريق القوارب. وهكذا شاركت الدولة بأكملها -وفقًا لإمكانياتها وقدراتها وبُعدها- في تجهيز أكبر موقع بناء في العالم. تم تعييني كعامل مجهول ومبتدئ في هضبة الجيزة، ليس بفضل المهارات التي لم أكن أمتلكها؛ ولكن لصغر حجمي وهيكلي العظمي الهزيل الذي سمح لي بالتسلل إلى كل مكان. تم تكليفي بمرافقة الفرق التي كانت ستحفر في الصخر، أولًا: ممر الوصول، ثم غرفة الدفن تحت الأرض التي كانت مصممة على شكل كهف. في كل صباح كان كاتب المواد يوزع على كل واحدٍ منا إزميلًا نحاسيًّا ومطرقة ومِعولًا. وفي المساء كنا نُعيد العُدَّة وقد أصبحت ثَلِمَة بعض الشيء، فيتم تخزينها للإصلاح أو إعادة التدوير، ونتسلمها في اليوم التالي وقد أصبحت لامعة وكأنها جديدة تمامًا. كان النحاس باهظ الثمن، وتم القبض على بعض رفاقي متلبسين؛ فقد ألحقوا الضرر بأدواتهم بشكلٍ ملحوظ، في محاولة للحصول على بعض من المادة الخام. إلا أن الكاتب المسؤول عن توزيع الأدوات وحفظها كان قد وضع نظام وزن المعدات صباحًا ومساءً لتجنب أي اختلاس. كان على الأخِسَّاء إعادة المعدن الذي سرقوه ودفع غرامة تعادل راتب شهر.

بدأنا العمل في حفر الصخرة راكعين، ثم على أربع، ثم انحنينا؛ لأن ارتفاع الممر شديد الانحدار لم يسمح لنا بالوقوف. وكلما تقدمنا إلى داخل المصفوفة الصخرية أصبحت الحرارة لا تطاق. ظللنا نعمل لأشهر في شبه ظلام، واختنقنا تحت الغبار وشظايا الصخور. كانت الصعوبة تكمن في عدم الانحراف عن مسارنا. للحفاظ على الطواقم، نظَّم رؤساء العمال نوبات نصف يومية، مدة كل منها أربع ساعات. عندما صعدنا وخرجنا في الهواء الطلق كان عمودنا الفقري مضغوطًا كما لو كان مكسورًا، لم تعد المراهم كافية لإرخاء عضلاتنا المشلولة، ولا قطرات العين قادرة على تخفيف حرَقان أعيننا.

تباطأ عملنا لأنه كان علينا إخراج الأنقاض بانتظام، حيث كان يتم استخدامها لتهيئة أو تكبير المنحدرات التي تُنقل من خلالها كُتل البنية الفوقية، المُحملة فوق عربات خشبية. عندما أصبح الظلام دامسًا كان علينا أن نتوقف. قام رؤساء العمال بتوزيع مشاعل مصنوعة من قماش مبلل بالزيت ومشتعل، لكنها كانت تصدر دخانًا لاذعًا وخانقًا تسبب في اسوداد الجدران. مرة أخرى كان «حم-إيونو» هو من أوجد الحل: حرق زيت الخروع الذي يسمح بالحصول على ضوء كافٍ بدون أية انبعاثات.

كان الغوص في أحشاء الأرض مرعبًا. كنا نخشى مواجهة الوحوش التي كان على الإله «رع» محاربتها كل ليلة وأن تقضي علينا، أو أن نصل إلى النيل تحت الأرض ونغرق فيه. وأعلن العديد من العمال انسحابهم. لقد طالبوا بأن يتم تعيينهم في أي عمل مهما كان، على أن يكون في العراء بالرغم من علاوة الخطر التي منحت لنا؛ كيس إضافي من الشعير، وقارورتين من الجِعَة وجرة من العسل. سيكون الكهف ذا أبعاد كبيرة: أربعة عشر مترًا في ثمانية أمتار مع سقف يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار. خطرت على بال «حم-إيونو» فكرة بارعة؛ حيث أمر بحفر بئر داخل هذه الغرفة، فكان لها ميزة جلب طراوة الهواء الخارجي مع تسهيل إخلاء الأنقاض وذهاب وإياب العمال. ومع الشروع في إقامة جدران الغرفة طالب بحفر ممر من الجدار الجنوبي يمتد لحوالي خمسة عشر مترًا. وبعد بضعة أيام أمرَنا رئيس العمال بتعليق عملية الحفر. لقد عملنا بجهد لأجل حفر طريق مسدود! أوضح بعض العمال، الأكثر علمًا من غيرهم، أن هذا الممر رمزي. لكن يرمز لماذا؟ لم نكن نعرف. لم نكن على قدر من الذكاء أو الثقافة بما يكفي لفهم الألغاز السرية للبناء الجنائزي والديني. عندما يموت أحدنا لم يكن بحاجة إلى كل هذه المراسم؛ يتم لفه في حصيرة وهو في وضع الجنين، ويُدفن تحت الرمال. كثيرًا ما كنت أتساءل عما إذا كانت الحياة الأبدية متاحة له، دون الحصول على إجابة شافية. والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أننا اضطررنا إلى التخلي عن الغرفة تحت الأرض وتركناها على هيئتها، دون تنعيم الجدران أو الأرضية. بدت وكأنها كهف لم يتم الانتهاء من حفره، وكان عليه أن يظل كذلك!

ستكون الخطوة التالية هي بناء ممر، صاعد هذه المرة؛ لخدمة غرفة من الحجر الجيري. كان علينا حفره أولًا في الهياكل التي تم بناؤها بالفعل ثم رفعه في وقتٍ متزامن مع الأساسات القادمة. في المساء كنت أنا ورفاقي في العنبر متعبين ومنهكين ومحطمين مثل حجارتنا تمامًا، ومنحنين مثل القمح في الحزمة. بمجرد عودة رئيس العنبر إلى جناحه الخاص، الواقع في أحد طرفي الرواق حيث تصطف مراتبنا، كانت لا تزال لدينا القوة للدردشة. كانت هذه هي اللحظات الحميمية الوحيدة لدينا. كان العديد منهم من الفلاحين الشباب الذين التحقوا بموقع بناء فرعون خلال فترة توقف الزراعة في موسم الفيضان. لم يكن يعنيهم المشاركة في إقامة الصرح الأكثر شهرة والأكثر قدسية في العالم، كل ما أرادوه هو أن يأكلوا ما يكفي ويتذوقوا صنوفًا من الطعام الذي لم يكونوا قادرين على تناوله في بيوتهم. كانوا متعطشين لاكتشاف ملذات «إِنِبْ-حِدِجْ»؛

العاصمة العظيمة ذات المرفأ والقريبة جدًّا من «عنخو خوفو». في أيام العطلة كانوا ينفقون كل مكاسبهم مع فتيات الحانات أو يخسرونها في ألعاب النرد أو الثلاث ورقات. كانوا قد تركوا خطيباتهم في القرية. انتهزوا الفرصة لمغازلة الفتيات الصغيرات في المنطقة اللواتي ذهبن معهم في نزهة على طول النيل، عند غروب الشمس أو تحت السماء، على أمل الحصول على قبلة، أو ربما ما هو أكثر من ذلك. لم يكن لدى أي منهم طموح لتسلق الهرم الوظيفي للحجَّارين مثلي.

إذا كان هذا هو حلمك حقًّا، يا «ديدي»، فليس عليك إلا أن تقول وسأعرف أنا كيف أُلحقك بأفضل ورشة لقطع الأحجار. هكذا أكدت لي «حنوت-سن».

توسلت إليها ألا تفعل أي شيء حيال ذلك. كنت مُصرًّا على أن أدبر أموري بنفسي. أردت أن أكون موضع تقدير واحترام عن جدارة، ولكن هذا العناد الغبي والطنان كاد يكلفني حياتي.

♀

قررت أن تكون الحداثة في العلوم والفنون والآداب شعارًا لعهدي. لطالما آثرت البحث في جميع المجالات وكنت دائمًا مهتمًّا بأفضل الفنانين وأعظم العلماء.

كل ما هو متناغم، ونادر، ولافت للنظر يستهويني. بالإضافة إلى السعادة التي تجلبها لي القطع الفنية الاستثنائية التي تحيط بي في حياتي اليومية، فهمت سريعًا أن الفنون الجميلة يمكن أن تصبح أدوات دعاية هائلة. فكانت خير خادم لملكيتي المطلقة وشاهدًا على عظمتي، كما وطدت أسطورة الفرعون الشمس.

لطالما أُعجبت بالفنانين الذين يمتلكون مواهب لم أكن أمتلكها. كانوا، بطريقتهم الخاصة، آلهة مبدعة مثلي. لقد جعلتهم يتبعون خُطاي في «عنخو خوفو». لقد ساعدوني في إنشاء أكاديمية سرعان ما أصبحت مركزًا بحثيًّا وتعليميًّا ناقلًا للعلوم.

من الخطأ الاعتقاد أن قيود القوانين الملكية قد قَيَّدَت حيوية وثراء التعبير. فأنا لم أقيد أحدًا قط في إبداعه؛ بل على العكس من ذلك، أردت الابتعاد عن الأنماط الفنية التي كانت مزدهرة في عهد والدي «سنفرو». كفى رسومات لهيئات ضخمة، وأقدام كبيرة، وكواحل ضخمة، ورقاب مدسوسة، وسيقان سميكة، ووجوه مثقلة! شجعت الفنانين على التفكير في حساب جديد للنسب، وطالبت أن توحي الرسومات بالأناقة والقوة والهيبة في الوقت نفسه. كنت أعرف ما إذا كان العمل ناجحًا أم لا عندما أصطحب «حنوت-سن» إلى ورش العمل، فتقف ساكنة، تنفرج شفتاها كاشفة عن أسنانها المُتفلجة، حتى قبل أن تقول هذه الكلمات البسيطة: «إنه جميل!».

اعتدت أن أترك لـ«حم-إيونو» مطلق الحرية لوضع الحسابات الرياضية والهندسية اللازمة لإقامة صروحي، لكنني كنت حريصًا على الإشراف على الخطة الزخرفية وعلى عملية التنفيذ. سيبقى هرمي فارغًا من أي زخرفة ونقش، لكن في المقابل سيتم تزيين قصري ومعابد عبادتي بتماثيل أقيمت لتمجيدي منحوتة في أصعب الأحجار؛ البازلت والديوريت والجرانيت والكالسيت. ستظل هذه التماثيل حيَّة إلى الأبد بعد أن يقوم الرسَّامون بتلوينها بألوان الحياة. كما كلفت أيضًا صائغي الذهب بنحت تمثالين بالحجم الطبيعي، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة، هذه المواد التي تستعصي على الانحلال، والتي هي بمثابة لحم وعظام الآلهة.

قام «حم-إيونو» بحساب طول الطريق الصاعد الذي سيربط معبد الوادي، على ضفاف النيل، بالمعبد الجنائزي الخاص بي، المبني على الوجهة الشرقية لهرمي، فوجدت أنه سيمتد لثمانمائة متر. سيتم تغطيته بسقف أزرق سماوي ومزين بنجوم خماسية. في وسطه، ستسمح فتحة مستقيمة ضيقة بتسلل الضوء الساقط.

حوالي كيلومتر ونصف من الجدران لأستعرض عليه إنجازاتي ونجاحاتي!

كنت قد توليت أمر مجموعة كاملة من الرسامين الشبان لإعداد الرسومات النهائية. لقد اخترت برنامجًا زخرفيًّا متنوعًا. وهكذا، عندما يمر موكب جنازتي عبر هذا الممر الطويل ستمر رفاتي الملكية أمام المشاهد التي تستعرض تاريخ عهدي، وانتصاراتي الحربية، وحملات الصيد المجيدة التي قمت بها، وأمام كل شعب مصر، رعيتي الحبيبة، مجسدة في مشاهد الحرث أو الحصاد أو تربية الماشية أو تزقيم الطيور.

لتأكيد قوتي وسلطتي اخترت التصاوير التقليدية لمشاهد الأعداء المكبلين والمقيدين، وعدة رسومات بالحجم الطبيعي لشخصي الملكي بينما أقوم بذبح العديد منهم، لكنني طالبت بأن تكون ملامح الشعوب الأجنبية، والبدو، والنوبيين، والآسيويين، في تلك التصاوير مطابقة للحقيقة. وللابتعاد عن النمط التقليدي كنت قد أيدت الاستنساخ، بواقعية شديدة، لمجموعات من البدو الجياع، ذوي عظام الترقوة والأَضْلُع البارزة، والملامح المُنهكة، والبطون المنتفخة. لقد أكدت من خلال هذه التصاوير البشعة أنني كنت، بالنسبة لشعبي، الضامن للنظام والازدهار، وأنهم في عهدي لم يذوقوا قط أهوال المجاعات، على عكس الشعوب الأخرى.

كانت مشاهد صيد وقتل فرس النهر عنيفة، ولكنها كانت مثيرة للإعجاب بنفس القدر. لقد جسدت الصراع الذي كنت أخوضه كفرعون ضد قوى الشر.

من ناحية أخرى، اخترت طرقًا جذابة وطبيعية للتعبير، عن طريق مجموعة من الأصباغ بألوان هادئة وتدرج ألوان متقاربة، لمشاهد الصيد، وتربية الطيور، والبذور التي ترمز إلى وفرة القرابين في عالم الخلود،

السرمدي، الأبدي.

سيمثل الطريق الصاعد –مثله مثل الهرم– قطعة واحدة من أحْجية مجمعي الجنائزي. كنت حريصًا على إنشاء مجمع عبادة ضخم لمجدي ولُملكي الشمسي، يكون في نفس الوقت عملًا فنيًّا جماعيًّا.

الفصل السادس عشر

عيد الإلهة «حتحور»

تعرضت الملكة «حتب-حرس» إلى وعكة صحية!

كانت ضعيفة ومحمومة وطريحة الفراش منذ عدة أيام. تعاني من اضطرابات في ضربات القلب دون سبب واضح، وتشعر بالدوار بمجرد أن تحاول النهوض، ولا تقوى عليه إلا بمساعدة وصيفاتها.

لا تزال ترفض الذهاب للعيش في «عنخو خوفو» إلى جوار الفرعون ابنها. ولِدت في «إِنِبْ-حِدِجْ»، وستموت في «إِنِبْ-حِدِجْ»، أصرت على ذلك بتعنت.

عرفت من مخبِريَّ أن «خوفو» قد أمر بتشييد أربعة أهرامات أخرى حول هرمه المستقبلي، متطابقة معه، ولكن أصغر حجمًا. سيبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين مترًا على قاعدة تبلغ حوالي خمسين مترًا. أمر ببنائها من أجل ملكاته؛ والدته وأخته وزوجته الأخيرة، وهرم آخر ضيق خاص باختفالي ببناء الهرم. وقرر إلحاقهن بطقوس عبادته إلى الأبد. ستحظى كلٌّ منهن أيضًا بمقصورة عبادة خاصة. قام باستعجال النجارين لإنهاء الأثاث الخشبي المُذهَّب الذي سيرافق والدته إلى مثواها الأخير في أسرع وقت ممكن. على مظلة ضخمة سيتم تعليق ستائر مصنوعة من الكتان بحيث تُشكِّل خيمة تضم غرفة نوم وخدرها، وستتكون من سرير خشبي مُذهب بأرجل على شكل أرجل أسد، ومُقدمة مغطاة بالذهب والفضة، وكرسيين باهظين مزينين على الجانبين بإكليل من زهور اللوتس. أمر «خوفو» أيضًا بإعادة تصنيع المحفَّة الأنيقة التي اعتادت والدته التنقل بها. كابن مُحب، أضاف أواني المائدة المصنوعة من المرمر ومزهريات من الحجر الصلب وأكوابًا ذهبية وحقيبة صغيرة بها أدوات العناية الشخصية من شفرات الحلاقة وصندوق مساحيق التجميل والمجوهرات الفاخرة. تم صُنع صندوق مخصوص لتوضع به الأساور المزينة بالفراشات التي كانت الملكة مغرمة بها.

أصبحت مسألة أيام.. بمجرد أن تتوفى أرملة الملك السابق لن أجد صعوبة في إقناع «ميريت إت إس» بالانضمام إلى بلاط «عنخو خوفو»، حتى لو كان ذلك فقط لتعزيز المستقبل السياسي لأبنائها. سأغادر أخيرًا هذا القصر الممل في «إِنِبْ-حِدِجْ»، للانضمام إلى البلاط الحقيقي ورفاهيته الصاخبة. سأكون قادرة على العثور على زوج آخر غير أولئك المسنين الشهوانيين الذين يترددون إليَّ دائمًا أو أولئك مدَّعي الوسامة، الذين لم تتمكن أمهاتهم الطموحات بعد من تزويجهم زيجة مناسبة! كان طموحي هو العثور على زوج غني وذي نفوذ وسلطة، وزير على أقل تقدير. ولمَ لا يكون الوزير والمهندس المعماري «حم-إيونو»؟ أو حتى الفرعون «خوفو» نفسه؟ فكونه إلهًا حيًّا لا ينتقص من رجولته شيئًا.

لم يكن «خوفو» -كشأن غيره- بغافل عن مفاتني أو قوامي الأمثل. تيقنت من ذلك عندما التقت عيناه بعينيَّ، مؤخرًا، في احتفال «مد الحبل». كنت مقتنعة بأن تقارب «ميريت إت إس» و«حنوت-سن» سيكون لصالحي، فهما تكره كل منهما الأخرى بالفعل. لن أجد صعوبة في إقناع ملكتي باللجوء إلى شتى أنواع السحر لإزاحة تلك الفلاحة المتغطرسة التي ظهرت من العدم؛ حتى تدرك أن هذا السحر ليس إلا خداعًا واحتيالًا. سيكون من السهل بعد ذلك إقناعها بأن البديل الوحيد هو الجريمة.

وعندما يحين الوقت سأستخدم كل مفاتني وسحري لمواساة الأرمل بعد خسارته المُفجِعة، وأملأ فراغًا لا يزال دافئًا إلى جواره على عرش الذهب الخالص.

أقسم أنا «نفرت-إيابت» إنه لأمر جد يسير!

منذ أن كانت والدتي تحتضر توقفت عن التحلي بالصبر. كانت قد أكدت لي أن عُمر الحب ثلاث سنوات فقط، وكانت مخطئة. مرت خمس سنوات وكان زوجي «خوفو» لا يزال يحب «حنوت-سن». عندما كان يأتي إلى إِنِبْ-حِدِجْ لرؤية والدتنا كان بالكاد ينظر إليَّ، ويُقبِّل أطفالنا في عُجالة ويسألهم بفتور عن دراستهم، ثم يمتعض بعد ذلك عندما كان «كاوعب» و«چدف رع» يرافقانه، دون حماس، للصيد في الصحراء أو ممارسة الرماية. كانت المحظيات يقبعن في الحريم شاعرات بالأسى على أنفسهن، والغريب أنه لم يعد لديه أي اشتياق أو رغبة في أجسادهن الجميلة، كما أنه لم يعد مهتمًّا بالأمراء والأميرات العديدين، أبنائه غير الشرعيين؛ ثمرة شغفه القديم.

كانت «نفرت-إيابت» على حق: لقد سحرته الفلاحة! لم يوجد حلٌّ آخرُ سوى إلقاء لعنة على هذه المرأة المُنْحَلَّة الفاجرة لإنقاذ الفرعون. عندما رأتني مصممة رتبت لي لقاء مع ساحر يتمتع بقوًى خارقة. ارتديت أسمالًا للذهاب إلى حي خطر وسيئ السمعة في ضواحي «إِنِبْ-حِدِجْ»، حيث كان المدعو يمتلك دكانًا. كان أيضًا معالجًا ويبيع جميع أنواع النباتات والجرعات والمساحيق والمستحضرات لعلاج الأمراض، كما كان يعرض تمائم؛ قلائد وأساور وسلسلة كاملة من التمائم المصنوعة من الخشب أو عجينة الزجاج مطلية بالمينا، من شأنها درء سوء الحظ. تميمة «تيت» أو «عقدة ثوب إيزيس» للحماية والخصوبة، و«عمود جد» للاستقرار، والجعران للبعث، و«العنخ» رمز الحياة. على واجهة الدكان تدلت جلود الزواحف، وكانت توجد جِرار مملوءة بسائل غريب بها ثعابين ميتة لكنها تبدو حية. كانت المعروضات مخيفة ورائعة معًا. استقبلني الساحر في الغرفة الخلفية للدكان، قدم لي عصير الكركديه الذي غمست فيه شفتي فقط؛ خشية أن

يكون المشروب خطيرًا. كان شخصًا طويل القامة ذا جلد متجعد مثل جلد أعناق السلاحف الغافية في حديقتي. ومثلها، كانت عيناه صغيرتين للغاية. كان يرتدي سترة فوقها رداء من الريش الأسود، وعلى رأسه عُصابة غريبة تتدلى منها عُظيمات. لو كان قال لي إنه عائد من العالم السفلي لـ«أوزوريس» لكنت صدقته على الفور. كان على دراية بخطورة الوضع.

أكد لي أن «نفرت-إيابت» أخبرته بكل شيء، على الأقل الرواية التي اتفقنا عليها أنا وهي. كُنت سيدة من الحاشية الملكية أُولِع زوجُها -صاحب النفوذ والمتقلب الأهواء- بفتاة نكرة، على عكس كل التوقعات. استمرت علاقتهما إلى الآن لعدة سنوات؛ مما يدل على أنه كان واقعًا تحت السحر. كنت موضع سخرية صديقاتي المقربات في البلاط، اللاتي كان أزواجهن يخدعونهن أيضًا، ولكن بوتيرة جامحة منعت أي شكل من أشكال التعلق. كانت كرامتي مُهانة وأردت إنهاء هذا الوضع وإبطال تأثير تلك العاهرة من خلال إلقاء تعويذة عليها. باع لي المعالج دمية خشبية ذات شعر طويل يمكنني تجديله -مثل شعر غريمتي- بالخرز والأشرطة. كان عليَّ أن أنقش اسمها -بسرية تامة- على بطنها قبل نطق اللعنات التي أعطاني قائمة مكتوبة بها عندما علم أنني شابة متعلمة. كان عليَّ أن أغرز دبابيس نحاسية، يوميًّا، في الخشب، وفقًا لتسلسل دقيق للغاية على جسم الدمية؛ العيون والفم والأذنين والثديين والعانة وراحتَي اليدين. لن يشعر حبيبها، الذي هو زوجي، بأي متعة عند رؤيتها أو تقبيلها أو مداعبتها. لن يعود يرغب فيها، ولن يستمتع بها بعد الآن. في غضون شهر سينبذها ويعود إلى بيتنا، سيعود إلى المكان الذي ما كان يجب عليه أن يغادره قَطُّ.

كان قد مرَّ أسبوع منذ أن بدأت غرز الإبر النحاسية في الجسم الخشبي؛ دون أن تظهر أي نتيجة واضحة، ولكني كنت أغرزها بضمير حي، بل وحتى بمتعة مَرَضية. عندما أعلن الرُّسل أن عيد الإلهة حتحور سيُقام عما قريب، أعلنوا أنها ستكون مناسبة للابتهاج ولمأدُبة فاخرة حيث سيكون الطعام والشراب واللهو متاحًا لجميع سكان مصر الذين سيجتمعون ويتحدون في السكر والمجون والجموح الجنسي.

كان عيد «حتحور»، ابنة وزوجة الإله «رع»، احتفالًا دينيًّا شائعًا للغاية. كانت الإلهة ترمز إلى المبدأ الأنثوي؛ الأم، والابنة، والزوجة. كانت محبوبة من قِبل الجميع. عندما تكون على هيئة بقرة؛ تكون مرضعة وحامية المولودين. لو كانت في هيئة سيدة الجميز مُخبأة في أوراق الشجر؛ فإنها توفر طعام المتوفَّى من خلال تقديم الماء والخبز له. أما لو كانت في صورة سيدة الفيروز؛ فهي راعية عُمال المناجم الذين ذهبوا للبحث عن الحجر الأزرق الثمين في جبال سيناء، وعندما تكون على هيئة اللبؤة؛ تكون منتقمة، وكان هذا الجانب هو أحد الجوانب الأكثر إبهارًا لأسطورتها. عاقبت البشر الذين تآمروا ضد والدها «رع»؛ كانت تذبحهم ثم

تقوم بالتهامهم لإنقاذ البشرية، كان «رع» ينثر على الأرض أطنانًا من الجِعَة المُلونة بصبغة حمراء، تشبه الدم؛ لترتوي منها الإلهة. مخمورة حتى الثمالة؛ كانت تنام أخيرًا لتُصبح في اليوم التالي في حالة ذهنية هادئة وصافية. في شكلها الأنثوي؛ كانت الذهبية، إلهة الحب والموسيقى والفرح، وتمنت كل النساء لو امتلكن حسن مظهرها وحريتها. كانت تُضحك والدها «رع» وتثير رغبته برفع فستانها إلى ما فوق فخذيها لتظهر له فرجها. أعترف أننا، أنا وكتبتي، قد استمتعنا كثيرًا ونحن نتخيل هذا المشهد الأسطوري.

في يوم عيد الإلهة تغادر تماثيل الآلهة معابدها المختلفة، كلٌّ في قاربه؛ لتلتقي على صفحة النيل. ويقوم الكهنة بتجهيزهم في مخبأ قدس الأقداس، فيبخرونهم، ويُعطرونهم، ويلبسونهم أزياء مُطرزة، ويثقلونهم بالمجوهرات الفاخرة، ثم يضعونهم في ناووس من الخشب المُذهَّب، ثم بعد ذلك يتم نقلهم في موكب من قبل كهنة المراسم ذوي الرءوس الحليقة إلى النهر، حيث يوضع كلٌّ منهم في قاربه الخاص.

أنا «رع-نفر»، الكاهن الأكبر لـ«رع»، أكون في مُقدمة الموكب، قبل الآلهة، ولهذه المناسبة أرتدي سترة طويلة أضع عليها متباهيًا قلادة صدرية فخمة مكونة من صفائح ذهبية ولازورد، لم يكن حتى الفرعون يمتلك مثلها. أكون في أوج مجدي في تلك اللحظة!

يرافقنا الراقصون والمغنون والبهلوانات والموسيقيون، وتشجعهم الحشود التي تجتمع على طول الممر الاحتفالي تصفق وتهتف أثناء مرورنا. كان ممنوعًا على العامة دخول المعابد التي كانت مقر الإقامة الحصري للآلهة والكهنة؛ لذلك لم تستطع رؤية الآلهة إلا في الأعياد الدينية حيث كان يتم استعراضهم في موكب مهيب فخم. يهتف كل منهم للإلـه «رع» ويصلي سرًّا لـ«حتحور» من أجل أن تتحقق رغباته: «يا ليته يحبني!»، «يا ليتها تحبني!».

قام الكهنة بتثبيت الناووس الإلهي في مركبين كبيرين تزين قوس ومؤخرة كليهما بشعار صاحبه، صقر للإله «رع» وقرص شمسي مع قرون بقرة للإلهة «حتحور».

جلست في جلال تحت مظلة قاربي الخاص. انضممت إلى القارب الشمسي للفرعون، الذي تبعه أفراد حاشيته العديدون والمبتهجون، في أبهى حللهم، والذين اتخذوا أماكنهم في مراكب القصر الفخمة والمصنوعة من خشب الأرز. تبعَنا أسطول من قوارب البردي الملونة تحمل على متنها الموسيقيين والمطربات. لتجنب أي تدافع؛ ظلت الحشود متمركزة على ضفاف النيل، محاطة بقوات الشرطة. التقى «رع» على النهر بقرينته «حتحور». اختفيا في غابة من نبات البردي لينغمسا في ملذات الجسد.

لم أكن أعرف ما الذي كان يخطط له «خوفو» هذا العام، لكنه منعني من إخراج التماثيل الإلهية من مكانها، وأمرني بإغلاق معابد «رع» و«حتحور» طوال فترة العيد.

♀

استأت للغاية لرؤية أن «رع-نفر» لم يغير حرفًا واحدًا من النصوص المقدسة. استهزاؤه بأوامري كان تجرؤًا على مواجهة أقوى رجل في العالم، أنا، «خوفو»، الفرعون. يبدو أنه نسي أنَّ تتويجي جعل مني إلهًا حيًّا على الأرض. لا يمكن لأي إنسان، حتى رئيس الكهنة، أن يعارض الإله. كنت أنوي أن ألقنه درسًا يكون عبرة لمن يعتبر أمام حاشيتي وشعبي المجتمعين بمناسبة عيد الإلهة «حتحور». كان «چدي» قد وضع تصورًا مذهلًا للحفل، وكنت قد أعطيته تفويضًا مطلقًا. كنت أريده حفلًا يتسم بالفخامة، ولكن أيضًا بالإثارة. لقد وعدني «چدي» بكل هذا علاوة على إشراك الشعب في العرض، فسيكون ممثلًا ومتفرجًا في آنٍ واحد عن طريق التصفيق وهتافات الفرح. من خلال تمثيل مشهد غراميات «رع» و«حتحور» على سفح النيل سنفتتح، أنا و«حنوت-سن» لقاء الدُّنيوي بالمُقدس. لم أستطع تخيل دعاية أفضل من تلك!

كنت قد عهدت إلى كبير النجارين «إنتي-شيدو» بتصنيع مركبين ضخمين من خشب الأرز، مطعمين بالذهب والأحجار شبه الكريمة. كان من الممكن التعرف على كل من «رع» و«حتحور» من خلال الشكل المنحوت في مقدمة المركب: تم وضع صقر متوج بالثعبان الحامي على مركب «رع» ورأس امرأة بأذني بقرة ترتدي القرص الشمسي على مركب «حتحور». بدت القوارب الاحتفالية لمعبد هليوبوليس إلى جانبهم ضئيلة وباهتة. عرفت بنبأ هذا الرجل من ابني الأصغر «خفرع» الذي كان يتكلم عنه بحماس عظيم وبتلقائية مرحة ومتفائلة. أطلق عليه -كما يفعل القرويون بدون تكلف- لقب «الشارب»؛ بسبب اعتنائه الفائق بشاربه. كان «إنتي-شيدو» أكثر بكثير من مجرد عامل؛ لقد كان صاحب رؤية، ومصممًا ماهرًا. كان يدير ورشة يعمل بها حوالي خمسين رجلًا، كما كان مسئولًا عن تصنيع الزلاجات الخشبية المصنوعة من خشب الأرز والتي تُنقل عليها كُتل البناء في موقع البناء في الهضبة. كان من الذكاء بحيث اخترع أنواعًا مختلفة من الزلاجات تتكيف مع صعوبات الجر وطبيعة الأرضيات وتسهل الانزلاق، كما قام أيضًا بإعادة تدوير الألواح الخشبية البالية أو المكسورة من سفننا لصنع قضبان ممرات السَّحْب. كانت زوجته كاهنة «حتحور» وقدمته إلى الكاتب المسئول عن كنز المعبد، فكان له شرف عظيم أولًا بإصلاح ناووس الإلهة، ثم ببناء قارب المواكب لها. كان «إنتي-شيدو» -مثل المبدعين الحقيقيين- شديد التواضع في كثير من الأحيان، وهذا هو ما دفعني إلى اتخاذ القرار بتكليفه بتصميم وتصنيع زورقينا الشمسيين.

«تلك التي تعددت هيئاتها،

صاحبة الوجه الجميل، سيدة الفرح والأناقة

ذات البشرة المشرقة المتلألئة

والقدِّ الرشيق والنهدين المشدودين،

من تبرق مثل الذهب،

وعطرها مسكر،

تلك التي ليس لها مثيل في الأرض ولا في السماء،

حتحور، الذهبية، إلهة الحب والفرح، والموسيقى، والرقص، والثمالة!».

هكذا أعلن البشير وأبواقه عن «حنوت-سن» الجميلة. كانت، مثلي، قد غطت جسدها بالكامل بزيت ممزوج بجزيئات من الذهب الخالص. كانت ترتدي ثوبًا من الشبك المتلألئ يبرز انحناءات جسدها الرائع، ويعلو رأسَها تاج مهيب من الذهب البرَّاق، منحوت على شكل قرص شمسي داخل قرون بقرة. جَلَستْ على عرش ضخم ومرتفع في منتصف قاربها، وأمسكت في يدها عُقد «المِنات» الثقيل، رمز الخصوبة والبعث. كان يتألف من العديد من الخيوط المبرومة معًا والمزينة بالخرز الزجاجي، والفيروز، والعقيق، واللازورد، وينتهي كل صف بأنواط كبيرة. يكفي هزه ليصدر صوتًا قريبًا من صوت السيستروم. هكذا كانت تتم الإشارة للإلهة «حتحور» عندما تظهر. كان قاربي الشمسي قادمًا ببطء لمقابلتها، وكنت جالسًا على عرش مشابه لعرشها. بدت بشرتي الذهبية غير بشرية، وكان تاجي العالي من الذهب واللازورد يتلألأ تحت شمس الظهيرة.

كنا مذهولين ومشدوهين، مثلنا مثل الحشد الذي استقر على ضفاف النيل والحاشية التي تتبختر في القوارب الاحتفالية، نشاهد العرض الباهظ الذي صممه «چدي»، بدا الأمر وكأن حقلًا قد نبت للتو على الماء! شكلت القوارب المغطاة بالزهور المقطوفة ذات الألوان الزاهية مجموعات خماسية حول قواربنا الشمسية. على كل قاربٍ منها قامت الراقصات الشابات العاريات، ذوات السيقان الرشيقة، بأداء حركات رشيقة خفيفة على إيقاع الدفوف، ثم قفزن فجأة في النيل وتجمعن لتقديم رقص إيقاعي مائي من أروع ما يكون.

كانت الراقصات يشكلن نجومًا في الماء من خلال ضم أقدامهن بعضها إلى بعض، ثم يرْسُمْنَ دوائر من خلال تشابك أذرعهن. كنَّ يختفين تحت الماء فلا يظهر منهن سوى سيقانهن الجميلة، وأقدامهن المقوسة، التي تضرب الهواء مثل الطيور المُحلقة. تبع ذلك القفزات الخطرة للشابات الجسورات اللاتي وقفن على أقدام شريكاتهن المتشقلبات تحت الماء. اختفين جميعًا ثم عُدن إلى الظهور، ملتفَّات على صفائح كبيرة من ورق البردي المجدول على شكل زهرة زنبق الماء الذي لم ننتبه إليه حتى ذلك الحين. تركن الصفائح تنجرف

بهن على طول الضفة، وشددن صدورهن بالتناوب فاتحات أذرعهن، مثل براعم زهور تستعد للتفتح.

كان أبرز ما في العرض هو القُبلة الحارة التي تبادلناها أنا و«حنوت-سن» عند غروب الشمس. تم وضع قواربنا تحت قرص الشمس الذهبي الذي تَلَوَّن بألوان اللهب، وتم تثبيتها بواسطة المراسي الحجرية الثقيلة. وقف كل منا عند قوس مركبه، وظلالنا سوداء اللون تنعكس على الدائرة المتوهجة التي شرعت في الغروب. التقت شفاهنا «خوفو-رع» و«حنوت-سن- حتحور» تحت هتافات الحشود العارمة. لأول مرة ترى العباد آلهتها حية!

لطالما اشتهر الشعب المصري بأنه أكثر الشعوب تدينًا، كما استمتع بالمشاركة في المأدُبة الفخمة التي أعقبت الحفل، حيث وفرتُ الطعام والشراب للجميع، فكان من الممكن في تلك الأمسية تناول ما يعادل طعام أسبوعٍ كاملٍ؛ أطباق مختارة لم يعتد البسطاء على تناولها. كانت اللحوم المشوية على السيخ أو على الفحم، والدواجن المحشوة، وكعك العسل والتين متاحة للجميع حسب الرغبة وبدون قيود، كما كان من الممكن أيضًا شرب العديد من قوارير الجعَة الداكنة مجانًا، ومن كان على دراية بمكان التوزيع أمكنه تذوق النبيذ من الأقبية الخاصة بي. انجذب المتفرجون أيضًا إلى خيرات الأرض الأخرى. ليلة جميلة وممتعة، كان عيد حتحور يتسم بتساهل كبير، فكان من الممكن لأي شخص أن يتسلل، مثل الإلهة، إلى غابة ورق البردي على طول النهر؛ لقضاء لحظة سعيدة بصحبة خطيبته أو واحدة أو أكثر من الغريبات الجميلات اللاتي يَسْهُل إغواؤهن في ذلك اليوم.

عندما خرجنا أنا و«حنوت-سن» متشابكي الأيدي إلى شرفة قصرنا كان لا يزال بإمكاننا سماع الصخب وصوت الموسيقى التي تصل إلينا. أصبح النيل نهرًا من النور، حيث أطلق «چدي» الآلاف من قوارب البردي الصغيرة، بداخل كل منها مصباح زيت مضاء. تكونت سحابة خلابة ظلت تتأرجح فوق النهر. يقال إن النور دائمًا ما يطرد الظلمات.

تحججت بمرض أمي «حتب-حرس» لكيلا أذهب إلى عيد الإلهة «حتحور». حكت لي «نفرت-إيابت» كل ما حدث بطريقتها الخاصة:

- كان «رع-نفر» مشتعلًا غضبًا. أتفهمه تمامًا، لقد تعرض للإهانة في منصبه وتحول إلى مجرد متفرج على المسرحية السخيفة التي قام بها زوجك وأخوك «خوفو» مع تلك العاهرة «حنوت-سن» أمام شعب مصر. أمر زوجك رئيس الكهنة بإبقاء التماثيل الإلهية في ناووسها داخل مخبئها في معابدها في إيونو. لقد أعلن أنه لا

يحتاج إلى وسيط لتقديم نفسه أمام شعبه، فهو «خوفو»، الإله الحي، تجسيد «رع» على الأرض، أو لتقديم قرينته، «حتحور» الجميلة؛ من خلال ملامح «حنوت-سن». لحسن الحظ أن السخرية لا تقتل! قُبلتهما على النيل كانت مثيرة للسخرية وغير مناسِبة تمامًا، بل مشينة!

– لكن كيف علمتِ بكل هذه التفاصيل؟ سألتْ «نفرت-إيابت» بفضول. هل لديك أيضًا جواسيس في معبد هليوبوليس العظيم؟

– لديَّ أفضل من ذلك! «رع-نفر» نفسه، دعينا نقُلْ إنه تقرَّب إليَّ. وهو يأمل مثلنا أن يرى انتهاء عهد الفلاحة هذه. إنه مقتنع بأنها ألقت تعويذة على «خوفو»، وإلا كيف نفسر بالمنطق هذا الحب غير الطبيعي؟!

إن البسطاء من الناس هم فقط من كانوا متحمسين لهذا الزواج غير المتكافئ. كل خادمة، كل غسالة، كل فلاحة، أصبحت تحلم بمقابلة فرعون ساحر والزواج به. لكن الآن، في بلاط ممفيس وفي الحريم، أضحت هذه المهزلة المؤسفة التي تسببت في الكثير من اللغط في الماضي تثير الزفرات من فرط التأثر! كنت أضحوكة الجميع، وبالتأكيد تم جرح كبريائي وإهانتي.

عدت لأشكو همي إلى الساحر.

– لقد نطقت بكل اللعنات التي أعطيتني إياها، بالترتيب الصحيح، وثلاث مرات في اليوم. لقد غرزت جميع المسامير النحاسية في الدمية الخشبية، ولكن دون أي جدوى. أنت مجرد دجال وأنا أطالب بالتعويض!

– أيتها النبيلة -أجابني بهدوء شديد- كما تعلمين، أنا أبيع فقط العلاجات القادرة على إحلال السلام للأسر من خلال إحياء الرغبة الزوجية لبعض الوقت، لا شيء أكثر من ذلك، إذا لم ينجح السحر الخاص بي فذلك لأن الشخص الذي تريدين إيذاءه يتمتع بحماية إلهية. آمل ألا يكون هذا الشخص هو الملكة الأم التي يُقال إنها تعاني بالفعل، أو عضوًا آخر من العائلة المالكة! من الأفضل ألا نلتقي مطلقًا، لا أريد أن أكون طرفًا -من قريب أو من بعيد- في قصصك تلك.

– لا تقلق. أنا لست جريئة بما يكفي لمواجهة العائلة المالكة! أريد فقط عودة زوجي. هل هناك حالة تقاوم كل أنواع السحر؟

– في الواقع، هناك حالة واحدة فقط لم أخبرك بها لأنها نادرة للغاية، وفي مسيرتي المهنية الطويلة لم أرها قط.

– ما هي؟

– عندما يحب عاشقان بعضهما البعض بقلب نقي، فإن شغفهما المتبادل لن يتوقف إلا بوفاة أحدهما. لا

يمكن لأي سحر أن يتغلب على هذا الحب. والأسوأ من ذلك: يمكن أن ينقلب السحر الأسود ضد الشخص الذي بدأه!

كنت يائسة وأخذت أبكي ببلاهة، يبدو أن ملابس العامة التي كنت أرتديها سمحت لي بالقيام بذلك. أمام يأسي، تجرأ الساحر على أخذ كلتا يديَّ في يديه الهزيلتين الخشنتين. نظر في عينيَّ مباشرة وقال:

– أيتها النبيلة، هناك طرق أخرى لإشباع رغبتك في الانتقام، لكنها ليست من اختصاص السحرة، بل من اختصاص المجرمين. هذا الشخص الذي يحزنك يمكن إبادته من خلال سم قوي، يعتمد على زهرة الدفلي، وأستطيع أن أساعدك في الحصول عليه.

– الشخص الذي أريد أن أؤذيه لديه حمارٌ مروَّض يتذوق كل طعامه –أجبته برباطة جأش فاجأتني– في حالة امتصاصه مسحوق الدفلي سيصاب بالتشنجات على الفور. أليس هناك سم فتاك ولكن مفعوله متأخر؟

– هناك بالتأكيد سيدتي النبيلة، لكن يجب أن أعترف بأنني لا أعرفه. لتحقيق النتيجة المرجوة لم يتبق لك سوى خيارٍ واحدٍ: الاغتيال.

الفصل السابع عشر

سَيَحِلُّ الأواخر أوائل

لم يحدث أن كانت شعبية ابن عمي «خوفو» بهذه القوة من قبل. في ورش العمل الثانوية في «عنخو خوفو» و«إِنِبْ-حِدِجْ» تم إنتاج مجموعة ضخمة من الصفائح تمثل الملك والملكة، كما ظهر خلال احتفالات العيد الحتحوري، كانت المحاولات الأولى قريبة من فن رسم الصور الشخصية المصغر، بينما بدت أحدث الإنتاجات الآن وكأنها رسوم كاريكاتورية خرقاء. في الأسواق وفي كل مكان، كان الناس يتنازعون للحصول على هذه الصورة الملونة المحفورة على رقائق الحجر الجيري أو المصبوبة بلا عناية.

كان شعور ابن عمي بذاته متضخمًا بشكل غير مسبوق. حان الوقت الآن لجعله يُجيز مسودة الرسومات المعمارية التي عكفت عليها لسنوات. لاستمالته؛ بدأت بعرض فكرة بناء أكبر معبد جنائزي تم تصميمه حتى الآن، على الواجهة الشرقية لهرمه. سنكتفي بتكبير التصميم الذي سبقت الموافقة عليه والانحراف قليلًا بمسار الطريق الصاعد الذي سيؤدي إلى المدخل الوحيد. انبهر «خوفو» ببهو الأعمدة الأنيق المُكون من أربعة وثلاثين عمودًا مربعًا من الجرانيت الأحمر وجدران الحجر الجيري الأبيض وأرضية البازلت الأسود. أراد أن تكون تماثيله بحجم هائل ومصنوعة من الكالسيت، وهو حجر أصفر وشمسي. أمر بنحت أربعة تماثيل بالإضافة إلى تمثال آخر يمثله في جلال إلى جانب الإلهة «حتحور» التي ستكون منحوتة بملامح «حنوت-سن». وهكذا، فرض البرنامج الزخرفي مرة أخرى. سيكون هذا هو موضوع عيد «سد» الملكي، الذي لن يحتفل به فعليًّا قبل انقضاء ثلاثين عامًا من جلوسه على العرش، والذي سيمكنه من ترسيخ سلطته إلى الأبد. أصر على تصوير عيد فرسة النهر البيضاء «حدجت» على جدران المعبد. كانت هذه الإلهة الحيوانية -التي ترمز إلى الخصوبة- قوة إيجابية على عكس ذكر فرس النهر؛ فهو الوحش الذي يجب ذبحه لأنه رمز لقوى الفوضى. وأمر «خوفو» أن تؤدي مجموعة من الكهنة المقيمين عبادة يومية دائمة له، بمجرد اكتمال المعبد بقاعاته الفرعية.

كنت أظن أنني حاذق وأتمتع بالفطنة والدهاء، ولكني اكتشفت أن «خوفو» كان قد فكر بالفعل في كل شيء واستبق العديد من أفكاري، بغض النظر عن بعض التفاصيل المعمارية. طالب بتحديد موقع لبناء مقبرة للنبلاء الذين -كما في زمن «سنفرو» في مري إتم (ميدوم) أو دهشور- سيتم دفنهم حول هرمه. هذا القرب سيضمن لهم الخلود. ستكون مدينة جنائزية حقيقية ذات شوارع تتقاطع بزوايا قائمة. سيبني الجميع قبورهم على شكل مقاعد كبيرة تسمى المصاطب، وسيزينونها بما يتناسب مع ألقابهم وقدراتهم المالية. تتكون هذه

المصاطب من بئر جنائزية وغرفة دفن لشخص أو أكثر من أفراد الأسرة في الطابق السفلي، وعلى السطح ستكون هناك مقصورة جنائزية جدرانها مرسومة بالكامل حيث ستقام الصلوات على المتوفى، وستشتمل جميع المصاطب على غرفة محكمة لا يمكن الوصول إليها؛ السرداب، حيث سيوضع تمثال المتوفى. من خلال فتحة ضيقة ستتمكن عيون التمثال من النظر إلى المقصورة ورؤية الكهنة وهم يقيمون الصلوات، كما ستصل إلى التمثال أبخرة القرابين التي ستوضع على الجانب الآخر من الجدار. أراد «خوفو» أن تكون هناك غرفة مماثلة في مقبرته بها كوَّة بارزة في الحائط حيث سيوضع تمثال من الذهب الخالص لـ«كا» قرينه الروحي. ستكون غرفة الدفن، كما هو مقرر، عبارة عن صندوق من الجرانيت الأحمر، وسيوضع جسده المُحنط في تابوت من نفس الحجر. كان الهرم، وهو راية حجرية عملاقة، يجمع بسبب ضخامة حجمه ميزة وعيبًا في آنٍ واحد؛ الميزة هي أنه يعلن عن مجده، والعيب هو تجليه للجميع ومن كل مكان.

هذا هو السبب الذي جعل «خوفو» يريد أن يكون هرمه مصونًا وغير قابل للتدمير. إذا تجرأ أي شخص على دخوله فلن يجد سوى ممرات مغلقة بإحكام، وإذا حاول اختراق الجدران فسيصطدم بأكوام الحجارة والرمال والأنقاض. انبهر «خوفو» بالحلول التي فكرت فيها لمنع الوصول إلى غرفة الدفن. كنت قد خططت لنظام مكون من ثلاثة مشابك حديدية من الجرانيت من شأنها أن تنزلق بعد الجنازة، إلى جانب نظام من أحجار الإغلاق المتتالية التي ستنزلق في الممرات المؤدية إلى الغرف الجنائزية.

أثناء فترات الأرق التي كانت تنتابني كنت أشكك في صلابة ومتانة الصرح. هل قمت بحساب الأحمال والضغوط بدقة على الغرف المبنية من جرَّاء أطنان الحجارة والأنقاض التي تم استخدامها في البنية التحتية؟ كانت الاحتياطات التي يتطلبها هذا الصرح جديدة واستثنائية. كنت رائدًا، وكنت بالضرورة سأرتكب أخطاءً، ولكن هل ستكون الأخطاء فادحة؟ كنت أرى في منامي الهرم ينهار تحت كل تلك الحصى المكدسة، وكان هذا الجاثوم يجعلني أتصبب عرقًا باردًا!

لهذا السبب بدأت في مضاعفة أنظمة الأمان. اقترحت إنشاء ما لا يقل عن خمس غرف تفريغ فوق غرفة الجرانيت المخصصة للدفن. سيعلو آخر غرفة أحد اختراعاتي الذي كنت فخورًا جدًّا به؛ وهو الشكل الجمالوني الذي يعلو الغرف. كنت قد استخدمته بالفعل، بل وقمت بتكراره لحماية مدخل الهرم. وددت أن أستخدمه مرة أخرى كحماية فوق غرفة السرداب. بالنسبة للباقي، يجب أن أعترف بأنني استقيت أنظمتي من جميع الإنجازات المعمارية لأسلافي، مع تطبيق مقياس مختلف وضخم عليها. كنت قد أجريت مسحًا دقيقًا للهرم المُقام بجوار هرم «سنفرو» المائل في دهشور. استخدمته كنموذج مُصغر. كان هناك ممر هابط ينضم إلى ممر صاعد يؤدي إلى غرفة الدفن. بالنسبة «لخوفو» لن يكون ممرًّا، بل رواق بأبعاد عملاقة، حيث سيبلغ طوله خمسين مترًا وعرضه مترين، وارتفاع السقف أكثر من ثمانية أمتار وستين سنتيمترًا. كنت

سأبني أطول قُبَّة تم بناؤها على الإطلاق بسبعة مستويات مختلفة، على شكل دَرَج سماوي. ستكون تحفتي الفنية، مثلها مثل صندوق الحجر الأحمر الذي أعددته لإيواء التابوت.

دَرَأت الموت عني قبل الانتهاء منه. كان قد سبق لي أن عانيت بالفعل من نوبات قلبية والعديد من نوبات الدوار. استشرت سرًّا طبيب القصر الذي شخَّصني ضحية للإجهاد الشديد، ونصحني بالراحة، كما أصر على أن أبدأ نظامًا غذائيًّا صارمًا؛ حيث كنت أعاني من زيادة الوزن. كان طعامي الدسم للغاية سمًّا يتدفق في دمي. لم يكن الوقت مناسبًا حقًّا للراحة أو إضعافي بحرماني من الطعام!

لقد تناقشت كثيرًا مع «عنخ-خاف» حول كل هذه الحسابات للنطاقات والأحمال، وكان يوافقني الرأي. إن الحماية الفائقة أفضل من عدم كفايتها، حتى لو تسبب هذا في تكلفة وعمل إضافيين. ما كان يقلقه هو الحاجة الهائلة للعدَّة مع كل هذا العمل المستقبلي. منذ أن أعلن «خوفو» عن افتتاح بناء جبَّانة لحاشيته بدأت طفرة عقارية هائلة في مدينة الموتى هذه. ستضم المقبرة الشرقية أعضاء العائلة المالكة المقربين، بينما ستكون المقبرة الغربية مخصصة لكبار المسئولين. أراد النبلاء إقامة مصاطب حجرية منحوتة ومقصورات جنائزية من الحجر الجيري الناعم محفورة ومرسومة. أرادوا تماثيل لأنفسهم على هيئتهم ولأفراد أسرهم، وأثاثًا وأغراضًا ولوحاتٍ جنائزيةً، وموائد للقرابين وأبوابًا زائفة تسمح لـ«كا» -قرينهم- بالمرور بحُرية من عالم الموتى إلى عالم الأحياء. تنافسوا جميعًا في الإرهاف والإبداعات المبهرجة. كانت ورش العمل الفنية تَعُجُّ بالطلبات. كيف يمكن تنظيم كل هذه الخدمات التخطيطية الجديدة؟ يجب تنظيم المزيد من التناوب لتسليم المواد الخام. كان من الواضح أننا قد نجد أن لدينا نقصًا في النحاس على المدى القصير، كيف يمكننا التزود على نطاق واسع وبمعدل أعلى في سيناء بينما نعلم طول الرحلة ومخاطرها من وادي النيل.

- كيف تعتقد أن بإمكانك أن تُبعث مع أفراد حاشيتك فقط، بدون شعبك؟

هكذا تلقت «حنوت-سن» خبر افتتاح موقع بناء جَبَّانة خاصة.

- لكن لأن هذا مخالف لكل الأعراف الأخلاقية. تُريدين، مع ذلك، أن يكون لدى البسطاء مقبرة، ومومياء، وكنز جنائزي؟ كيف سيوفرون ثمن كل هذا؟

- لم لا؟ ستكون هذه إعادة توزيع عادلة لثروات البلاد. بدون هؤلاء البسطاء كما تقول، لن تحقق أي شيء. ليس وزراؤك أو نبلاؤك هم من يمكنهم قطع الحجارة أو سحبها...

- أنت تفقدين عقلك تمامًا!

– كيف تجرؤ على مطالبة شعبك بالتضحية بنفسه لتشييد صروحك ثم لا تخلده كما تفعل لنفسك؟ على الأقل افعل ذلك من أجل العاملين الدائمين لديك، أولئك الذين يعملون كل يوم من أجل خلودك! هكذا تفاوضت «حنوت–سن».

ثم أضافت بفطنة لإقناعي:

– من يدري؟ لعلك تحتاج إليهم أيضًا في الحياة الأبدية. سيكون عليك فقط السماح لهم ببناء مقابر لأنفسهم، وفقًا لأذواقهم ودخلهم البسيط، بعيدًا عن نبلائك، وبجوار قريتهم. أنا واثقة تمامًا بأنك إذا وافقت فسيعملون من أجلك بمزيد من الحماس والإيمان. سيمكنك الحصول على كل ما تريد، على مدار العقود القليلة المتبقية لبناء هذا المجمع. ستكون أول فرعون يمنحهم مثل هذا الامتياز. أنا واثقة أيضًا بأن هذا المرسوم سيضمن شهرتك لقرون قادمة.

لم أكن أعرف أبدًا مع «حنوت–سن» ما إذا كانت عفوية الشباب وفورته هي التي تجعلها تتحدث أم أنها –على العكس من ذلك– كانت تتمتع بوعي سياسي حاد، وأنها –بطريقتها الخاصة– كانت صاحبة رؤية. ما فَتِئت تشعر بالدونية الغالبة على طبقتها الاجتماعية والرغبة في تحقيق ما لا يمكن تحقيقه أبدًا: العدالة الاجتماعية والمساواة. كان لسذاجتها، وكرمها، وأريحيتها، ومثاليتها تأثيرها الذي يحرك المشاعر، والذي من الواضح أيضًا أنه يتعارض مع قناعات مجلس وزرائي المنفصل عن جميع الحقائق الاجتماعية والحريص على الحفاظ على امتيازاته، بل والطامع في كسب المزيد منها.

وافقت على الرسومات الثورية التي قدمها «حم–إيونو». كنت أعرف مغالاتي ورغبتي العارمة في أن أصبح أكثر مجدًا من أسلافي. ما أردنا بناءه لم يدركه أي إنسان على وجه الأرض بعد. سيكون «آخِت خوفو» هرمًا فريدًا، سيكون الأكبر، والأعلى، والأفضل حماية. كنت أعرف جيدًا ثمن كل هذا، كنت أعرف جيدًا ثمن كل هذا: البشر.

انتهى بي الأمر إلى التفكير في أن مثل هذا القرار سيعطي المزيد من التميُّز لعهدي، خاصة أنه سيبث في البنائين طاقة كانت تتراجع هذه الأيام، مهما قال «حم–إيونو» و«عنخ–خاف».

لقد أثرت ضجة كبيرة من خلال السماح، بموجب مرسوم ملكي، لعمال قرية الحرفيين ببناء جبَّانة، والتعاقد على أثاث جنائزي وتماثيل على هيئتهم ليُبعثوا من جديد في الأبدية. هذا أمر لم يسبق حدوثه من قبل!

منعني انشغالي بتنظيم موت مرءوسيَّ من التنبؤ بموت والدتي التي أدركتها المنية أثناء نومها، إثر اكتمال هرمها مباشرةً. رتبت لتحنيطها وفقًا لأحدث الابتكارات، وحرصت على حماية أحشائها بوضعها في الأواني

الكانوبية. تم دفنها بصحبة أثاثها الاحتفالي والأطباق وأدوات المائدة المصنوعة من الذهب والحجر الصلب وزينتها ولفائف كتانها الفاخر. فشل المحنطون في ربط أساورها ذات الفراشات بجسدها المُحنط. أودعتها في صندوق خشبي ثمين بالقرب من تابوتها المرمري.

لقد حان الوقت لقدوم زوجتي «ميريت إت إس» وأبنائي «كاوعب» و«چدف رع» للاستقرار بشكل دائم في «عنخو خوفو». أردت أن يتربى أبنائي معًا، وأن يستقل «خفرع»، الذي كبر كثيرًا، ويترك أخيرًا حضن والدته وخالته «ميريت» والقزم رفيقي «برني-عنخو» الذي كان قد أصبح بمثابة مربية للأمير الصغير أكثر من كونه مهرجًا للملك؛ وهي مهمته الرئيسية.

هناك أيام في الحياة تجد فيها أن الآلهة حقًّا معك، بل وأنها حتى تحمي الأوغاد أمثالك!

قال شخص حسن النية لوالدي: «إذا استطاع ابنك «بانب» الكتابة فسيصبح كاتبًا، المهنة الأجمل في العالم!» في الواقع، إن الكتبة معفيون من الكدح والعمل الشاق، ولا ينقصهم شيء أبدًا. كانوا جميعًا يتغذون جيدًا، ومن ثَمَّ كانوا أكثر بدانةً، كما أنهم غالبًا ما شاركوا في متاجرات غير شرعية مربحة للغاية مثل رئيس الكتبة وقائدي «إيدو»، الذي كان يمتلئ سرورًا وفرحًا في كل مرة يتم فيها مد العمل في موقع البناء. كان من المؤكد أن الهرم والمجمع الجنائزي فرصة ثمينة له ولعائلته! كنت أكتب الهيراطيقية -اللغة الدارجة والمستخدمة للحسابات والمراسلات- بلا عناية وبشكل سيئ للغاية، لكنني كنت أجيد ما يكفي لتزوير المستندات والغش في الحسابات.

وبفضل هذه الميزات وجدت مكانًا بسهولة في فريق «إيدو»، وسرعان ما أصبحت الموظف المفضل لديه. عندما جعل إلهنا الحي «خوفو» المقابر والأبدية والخلود في متناول الجميع من خلال السماح للعمال الدائمين المقيمين في قرية الحرفيين بالدفن في مقبرة حقيقية، ذهبنا أنا و«إيدو» للاحتفال بهذا الخبر في الحانة. أبلغنا القَوادة أنها ستمحو عما قريب القائمة الثقيلة التي لا يزال يتعين علينا دفعها بعد الاستهلاك المنتظم والجامح للجِعَة والفتيات. كجزء من عمليات التناوب لمكافحة الفساد، تم تعيين «إيدو» للتو في منصب آخر. ترك قسم توريد المواد الأولية للعمل في قسم المواد الخام. تم تعيينه -وأنا معه- في قسم فحص شحنات الأحجار النادرة: الجرانيت والديوريت والبازلت والكالسيت. إذا كنا قد نجحنا لسنوات في الحصول على أجْوِلة كاملة من القمح والشعير وقوارير الجِعَة وحتى النبيذ لمصلحتنا الخاصة، فسنكون بالتأكيد قادرين على اختلاس بضع كتل من الحجر. المتاجرة في السوق السوداء للمواد الخام ستكون بالنسبة لنا نهرًا من الثروات

القادمة. وللاحتفال بهذه المناسبة شربت حتى الثُمالة، لدرجة أني وعدت بالزواج في تلك الليلة، على ما يبدو، غانية عارية وثملة مثلي تمامًا!

في اليوم التالي، عدت سريعًا إلى رشدي:

– أعتقد أنك تحلم أكثر من اللازم يا «بانب»، هكذا بادرني «إيدو» محذرًا. وأنا لست بحاجة مطلقًا إلى شخصٍ حالم ضمن فريقي. لن تستطيع سلب حجر يزن عدة أطنان بسهولة مثلما كنت تسلب جِوال القمح، لن تكون قادرًا على الاستمرار في تزوير الحسابات عن طريق نسيان إضافة رقم أو رقمين في إضافات المنتجات المُسلَّمة والمُسجَّلة، لن تتمكن أيضًا من التحجج بأن جيشًا من القوارض التهم جزءًا من الشحنة؛ لأنه لا الجرذان ولا الفئران تتغذى على الحجر الصلب!

سيكون سوق الموت هذا مصدرًا لدخل كبير ودائم، ولكن إذا أردنا أن نحقق ثراءً عميمًا فعلينا أن نكون مبدعين وألا نتصرف بعد الآن كصغار المجرمين. كان أكثر ما يشغل بال «إيدو» هو ألا يتم اكتشاف أمره متلبسًا سواء من قِبل رجال المفتش «مرر» المسئولين عن التسليم أو من قِبل رجال «عنخ–خاف» الذين يحكمون قبضتهم على الميناء مثل فرعون. كان كلاهما متسلطًا، وطاهر الذيل، وصارمًا مثل مرءوسيهما. لقد وصلت الرسالة! صِرْت أتراجع لفترة من الوقت عن حياتي الجنسية الجامحة وتطلعي لكسب المال السريع. قررت ألا أكون لصًّا صغيرًا بعد الآن. كان يكفي بالنسبة لي تكوين صداقات مع عمال المحاجر الذين تبين –بقليل من الجهد– أنهم كانوا مثلي فاسدين. وافقوا على إعطائي مقابل أجْرِلة من القمح والشعير، وجِرار من البيرة، وليالٍ ماجنة في الحانة المجاورة، بقايا الأحجار النادرة التي استُخدمت لتصنيع تماثيل النبلاء وحتى لبعض الأعمال الملكية. كان من السهل عليهم سلب كتل الحجر الجيري الخشن من محجر الجيزة مباشرةً حيث كانت موجودة بوفرة، كما تمكنوا من الوصول إلى بعض المخزون الاحتياطي الوارد من طرة. يجب القول إنه عندما كان مطلوبًا نحت مئات الأمتار الطولية من الحجارة وفقًا لأبعاد محددة؛ كانت تقع دائمًا حوادث حقيقية أو مفتعلة، ثم كان علينا أن نبدأ من جديد. تسبب هذا في الكثير من الهدر والمخلفات التي يمكننا إعادة تدويرها.

كان لدينا سوق مزدهر، لكن «إيدو» كان يتطلع إلى آخر أكبر بكثير وقانوني! لقد اختار التخلي مؤقتًا عن الفقراء ليهتم بشكل أكبر بمصير النبلاء. كان قد تقاعد ليصبح رجل أعمال يعمل لحسابه الخاص. تركت وظيفتي كمحاسب مبتدئ لأعمل معه في إدارة مؤسسة للبناء الجنائزي. تعاقدنا من الباطن على كل المواد الممكنة والتي يمكن تخيلها. زاد حجم أعمالنا بشكل هائل! كما حرصنا أيضًا على اتصال زبائننا مباشرة بالرسامين والنحاتين والنقاشين والنجارين الضروريين لزخرفة مقابرهم. كنا نحصل على نسبة كبيرة جدًّا على عروض الأسعار. أصبحت أعمالنا الصغيرة شبكة منظمة بشكل جيد على غرار الإدارة الملكية. أخيرًا

هنأ «إيدو» نفسه على إبقاء رجل مثلي في فريقه لا يخشى شيئًا. لقد ساعدته في تسوية الحسابات مع اللصوص والمتهربين من الدفع. أرسلتهم في رحلة إلى الآخرة دون أن يكون لديهم الوقت ليحلموا باستكمال قبرهم!

♀

لا يجب القسَم أبدًا بأي شيء! لو قيل لي إن أخي «بانب» سيكون صاحب شركة مزدهرة مثل «الموت أمامي» لما صدقت ذلك أبدًا! لقد نجح مثلما نجح والداي في مصنع الجِعَة الخاص بهما، وأختي وزوجها في المخبز، وأخي الآخر «آها» في متجر الجزارة. كان «ديدي» الصغير فقط من يقلقني؛ فقد استمر في العمل في كسر الحجارة بينما كان يحلم بأن يصبح، يومًا ما، حجَّارًا.

نحن جميعًا مدينون بكل هذه التغييرات لزوجي «خوفو»، الذي غيَّر وجه مصر عندما بدأ بالعمل في مشروعه الضخم. لقد عزز البلاد من خلال السيطرة على مناطق إنتاج المواد الخام وتكثيف الخدمات اللوجستية لتوزيعها. كما دعَّم الإدارة المركزية، التي سيطرت على كل شيء على الإطلاق، وكان من الفطنة لإعطاء حكام الأقاليم حرية نسبية لتنظيم الاقتصاد الإقليمي. كان موقع بناء مجمعه الجنائزي عملًا جماعيًّا هائلًا وحَّـد البـلاد من الشمال إلى الجنوب، بفضله، أطعم بكرامة جميع شعبه من الفلاحين، والملاحين، والحجَّارين. لقد سمح للبعض بارتقاء السلم الاجتماعي، لينتقل من متدرب بسيط إلى رئيس عمال؛ لأنه عزز نقل المعرفة. كما أن مشروع هرمه سمح بالكشف عن العديد من المواهب لدى المهندسين، والفنيين، والفنانين، وساهم في تحفيز الاختراعات والتقنيات الحديثة. لكل هذه الأسباب اعتبرت زوجي رجلًا صاحب بصيرة حقيقية. لقد ابتكر مفهومًا للثقافة كان عاملًا من عوامل الوحدة الوطنية ومصدرًا للدهشة؛ مفهومًا يود العالم كله بالتأكيد السير على نهجه.

الفصل الثامن عشر

فقدان المكانة

لم أعد سيد البيت، في معبد إيونو! ذهب «خوفو» إلى المكاتب حيث تُكتب «صحف الإله». قام بتصحيح كل النصوص التي لم تناسبه وأمر بتعديلات فورية. أعطى الكتبة مجموعة من الفصول الإضافية التي كتبها بيده. وقع نظري بالصدفة على الفصل ستمائة وستة حيث عَرَّف نفسه على أنه الشمس، مستخدمًا اللغة المفخمة الخاصة بنا التي اعتدنا استخدامها في نصوصنا المقدسة.

«فلينزل «خوفو» في قارب «رع» هذا

ذلك القارب الذي تحب الآلهة الصعود إليه

وتحب النزول فيه،

حيث يُجذف «رع» برفق لنقل «خوفو» إلى الأفق

«خوفو»

سوف تنزل هناك، مثل «رع»

سوف تجلس على عرش «رع» لإعطاء الأوامر للآلهة

لأنك «رع»، المنحدر من نوت التي تلد «رع» كل يوم،

وستولد مثل «رع» كل يوم!».

ظهر «خوفو» في أوج جنون عظمته. تبادلنا الكلمات الحادة التي سرعان ما أصبحت لاذعة:

– أنا الإله! لا يُمكن لبشر أن يقف ضدي! كما أنني لا أحتاج إلى وسيط للتعامل على قدم المساواة مع الآلهة الأخرى، هكذا قال لي وهو يعنِّفني.

– ومع ذلك، شئت أم أبيت، يا سيدي الملك، كما هو مكتوب في الكتاب المقدس، فأنت لست إلا وسيطًا بين الناس والآلهة. أنت على الأرض، أما هم ففي السماء. المؤسسة التي تُمثلها هي وحدها الإلهية، أما أنت فمجرد إنسان. ليس لديك قوًى خارقة للطبيعة، ولا تصنع أي معجزات باستثناء تلك التي تم تسجيلها من قِبلك في حولياتك الملكية. على هذا النحو، أطلقنا عليك في النصوص اسم «ابن إله» ولكننا نعلم جيدًا، أنا وأنت، أن هذا ليس إلا إساءة استخدام للغة. أنت لست حقًّا ابن «رع»، أنت فقط ابن الفرعون «سنفرو».

إنك لا تبني قبرًا لنفسك، بل مجمعًا إلهيًّا، حيث سيتم الاحتفال بأسطورة مُلكك. وهرمك هو عنصر واحد فقط من هذا المجمع الشاسع! لن تُعَلِّم خبيرًا مثلي اختصاصه!

– «رع–نفر»، أيها القرد العجوز، ستعاقَب على هذه الكلمات!

انتابت «خوفو» إحدى نوبات الغضب التي اعتقدت أنها كانت مجرد أسطورة. دفع المكتبات وأسقطها، وأطاح بالكتبة الذين كانوا أمامه. ألقى الألواح التي يستخدمونها لخلط أصباغ الكتابة على الأرض، ومزَّق أوراق البردي التي خطُّوا عليها. أمرتُ الناسخين بالخروج بإيماءة رأس. وبينما كان «خوفو» يدعس بشراسة الوثائق والأحبار وأقلام البوص التي أسقطها على الأرض، واصلت إخباره برأيي فيه بمنتهى الصراحة والقسوة؛ لم أستطع مقاومة رغبتي في فعل ذلك. عبرت عن احتقاري وكرهي لأنانيته، تضخم ذاته، ونرجسيته، وإسرافه. يجب أن أقول إنني في اليوم السابق لاحظت النجوم واستطلعتها وكانت تكشف دائمًا عن الشيء ذاته: سيغتصب ابن رئيس كهنة «رع» السلطة من السلالة الحاكمة الحالية. كل ما كان عليَّ فعله هو اتخاذ زوجة. تمنيت أن تكون لي رفيقة طموح وجميلة، ثدياء، ذات عجيزة مشدودة، وعقل فولاذي. كنت قد وضعت عيني على «نفرت–إيابت» الرائعة. ولكي أمتلك قلبها، يجب أن أكشف لها سر النجوم. ولكن هل هذا من الحكمة؟ إذا لم ترض وتكتفِ هذه الانتهازية الجميلة بأن تكون أمًّا لفرعون المستقبل، فما هو العمل المؤذي الذي يمكن أن تستغل سري من أجله؟

واصلت إخبار «خوفو» بحقيقته دون تزييف. لم يسبق لأحد أن تحدث إليه كما تحدثت.

– من أنت لتجرؤ على تزوير النصوص المقدسة التي أملاها الإله علينا؟ أنت لست العالِم المُحيط بكل شيء بحسب علمي. أنت مجرد حاكم مطلق ورجل فانٍ يمكن المساس به، مهووس بالخلود، تلتهم كل ثروات مصر وتضحي بشعبك لبناء هرمك!

– لا تخدع نفسك يا «رع–نفر»، أنا لا أضحي بأحد! جميع العاملين لديَّ يؤدون عملهم بحماس لأنهم مدفوعون بإيمان متغلغل في أعماقهم: الإيمان بإلههم الحي.. «خوفو». لقد خلدتهم كما خلدت نفسي عندما منحتهم شرف بناء مقبرة؛ ولهذا يحبونني ويعبدونني! أَرْغَى «خوفو» وأَزْبَدَ وهو يبصق عند قدمي.

– أنت مجرد فرعون زنديق يا «خوفو» ولست فاعل خير للبشرية. ليس مفهوم الماعت هو ما تنصبه على الأرض، بل فوضى «إسفت» وعالم مقلوب رأسًا على عقب، حيث يتمتع الفقراء بنفس الحقوق التي يتمتع بها الأغنياء!

خرجت بالقدر المستطاع من الكرامة وبأسرع ما يمكن قبل أن أتلقى مزهرية كبيرة من المرمر على رأسي. في اليوم التالي تم نشر مرسوم على جميع أسوار مدينة إيونو به ما يلي:

إعلان المستشارية الملكية فيما يتعلق بمعبد «رع» الكبير في إيونو: سيتم إغلاقه حتى إشعار آخر. فيما يتعلق برئيس كهنة الإله «رع»، المدعو «رع-نفر»، كبير العرافين، فقد تمت إقالته من وظائفه على الفور.

أعدَّ لنا «خوفو» منزلًا فخمًا لي ولأطفالنا ومرافقينا في جناح في قصره. كان يعتقد أن الرفاهية ستعوض كل أوجه تقصيره تجاهنا. شعرت بعدم الارتياح في هذا البلاط الذي يقدس فرعونه. كنت مجرد مصدر للسخرية والهمسات المهينة. كنت ملكة المخدوعات! تجرأت «حنوت-سن» على تقديم نفسها لنا بأسلوب متزلف. أرادت محو كل سوء فهم من الماضي، والبدء على أساس جديد حيث سيكون لكل شخص منا مكان عادل ومشرف، وكانت سعيدة لأن ابنها «خفرع» سيتمكن من مخالطة أشقائه في الكلية الملكية... إلخ. منافِقة كبيرة! لم يفت «نفرت-إيابت» بالطبع أن تلفت نظري إلى ذلك وأضافت أنها تستحق أن تُلقَّن درسًا.

يقال: إن الألم يعمي البصر. الغيرة أيضًا، وأنا دليل حي على ذلك.

كيف سمحت بأن يتم التلاعب بي لدرجة أن أدبر لجريمة قتل؟ تمكنت أخيرًا «نفرت-إيابت» والساحر شريكها من إقناعي بأن الطريقة الوحيدة للتخلص من «حنوت-سن» المتغطرسة هي القتل. كل ما كان عليَّ فعله هو تزويدهما بصندوق من المجوهرات الذهبية فقط، وكانا هما سيتوليان تنظيم جريمة القتل. ستكون الجريمة الكاملة ولن تتمكن الشرطة أبدًا من توجيه أي اتهامات لقاطني القصر، ناهيك عني أنا شخصيًّا. لن يعرف القاتل بوجودي، وعلى أي حال لن يتكلم حتى تحت التعذيب لسبب بسيط، ألا وهو أنه أصم وأبكم، كما أنه لن يستطيع كتابة أي شيء لأنه كان، مثل معظم العامة، أميًّا. كان «أحمق القرية» ذا جُثَّة، يُشِعّ وجهه شرًّا عندما يكون ساكنًا، ويشع براءة عندما يضحك ويقهقه وتنفرج أساريره. من باب الإحسان، تم توظيفه لتوزيع قطع الخشب التي تغذي أفران المطابخ الخاصة. لقد أراد بالتأكيد، على الرغم من إعاقته، تحقيق الحلم الذي يراود كل رجل مصري باتخاذ زوجة وتكوين أسرة. كان قد وقع في حب غسَّالة جميلة تقوم بتوصيل الغسيل النظيف لسكان القرية. نظرًا لأنها اعتقدت أنه لن يدخر أبدًا ما يكفي لتأسيس عش الزوجية، فقد وعدت بالزواج منه عندما يتمكن من أن يُسكنها في منزل جميل مُجهز بأثاثٍ خشبي. اشتَرَطتْ أن يكون لديها فراش كبير بمرتبة ووسائد من الريش وأن تكون مقدمة الفراش مصنوعة من خشب الأبنوس، وأيضًا صندوق لتخزين ستراتها الجديدة.

سيكون «أحمق القرية» مسلحًا بهراوة. كان عليه أن يراقب «حنوت-سن» وحمارها في شارع فرعي من القرية يضيق قبل أن يؤدي إلى ساحة صغيرة. عندما لم تكن برفقة «خفرع»، الذي أصبح تميمة القرية، كانت

الملكة تذهب إلى حي الأرامل اللواتي يعشن بشرف من خلال الخدمة في البيوت، أو توزيع المياه، أو صنع السلال. في الليل كان بعضهن يفتحن أبوابهن لعشاق الليلة الواحدة الذين كانوا يكافئونهن بهدية وأحيانًا باللكمات. على رأي المثل القائل «سيدة نهارًا، امرأة ليلًا». كان هذا الحي أحيانًا خطرًا، ووقوع جريمة هناك لن يكون أمرًا غريبًا، حتى وإن وقعت في وضح النهار.

♀

ينتابني دائمًا شعور بالحيرة عندما أرى أبنائي «كاوعب» و«چدف رع» و«خفرع» جنبًا إلى جنب، فالفرق شاسع بينهم مثلما الحال بين أمهاتهم. الولدان الأكبران سنًّا كانا قصيرَي القامة، جاحدين، خجولين، ومنطويين، أما أصغرهما فكان منذ ولادته يتمتع بجاذبية شديدة وبنية رياضية، كما كان مرحًا ويخطف القلوب.

كان كل من «كاوعب» و«چدف رع» غزيري العلم وفقًا لكلام معلميهما. اهتمت جدتهما ومعها أمهما بأن يتلقى الولدان التعليم التقليدي لفراعنة المستقبل، حتى لو استلزم الأمر اللجوء للعصا في بعض الأحيان. لديهما معرفة موسوعية بجميع العلوم والطقوس الدينية. سيحققان مفهوم الماعت بجدارة: العدالة والوئام على الأرض. بدأتُ في تعريفهما بأسرار الدبلوماسية والسياسة كما سبق أن فعل معي أبي «سنفرو»، كما أطلعتهما على أُسس فن الحكم. تحدثت وتناقشت معهما لساعات طويلة عن القوة المطلقة والإلهية التي يتمتع بها كل فرعون. علمتهما كيف يكونان فصيحين يُحْسِنان البيانَ ويميزان جيِّد الكلام، وكيف أن للخطب البليغة فعالية تفوق فعالية المعارك الحقيقية. كان ينبغي لي أن أهتم بالفعل أكثر من اهتمامي بالقول، فقد أدت مبادرتي إلى تشجيع «كاوعب» على العكوف في مكتبة القصر لكتابة تعاليم ذكية وموثَّقة حول فن الحكم. ولكن انتهى به الأمر إلى أن اعترف لي بشجاعة أنه يرفض الحكم الذي هو في الواقع وظيفة حقيقية يشعر بعدم الكفاءة لشَغْلِها؛ وأنه متنازل عن العرش عن طيب خاطر لأخيه الأصغر «چدف رع».

كان جميع وزرائي وحاشيتي منحازين بالكامل لثاني أبنائي، كان يشبههم، كان واعيًا وأمينًا، متمسكًا بالتقاليد ومجتهدًا، يعمل بجد وباستمرار، مطيعًا ويفتقر للخيال. وكان أيضًا -لسوء الحظ- خطيبًا ضعيفًا: لم يكن صوته جَهْوَريًّا، بل كان خافتًا ضعيفًا وكان غير واثق بنفسه، لا يقوى على النظر إلى الجمهور في عينيه. ظن الأذكياء اللئام أنه سيكون من السهل قيادته والتلاعب به، بل والإطاحة به من العرش والتخلص منه. أنا أيضًا لا أظنه سيكون فرعونًا عظيمًا ممن تُخلَّد أسماؤهم.

بقي «خفرع» هذا الشاب المرح، لقد كان المفضل لديّ وكان يشبهني. كانوا يطلقون عليه خلف ظهري

«الفلاح»؛ فقد نشأ منذ سن مبكرة وفقًا لتعاليم والدته غير المسبوقة والغريبة على القصر. لقد حصل على تعليم من شأنه أن ينمي لديه الفكر النقدي ويعلمه التدبر والتفكير بدلًا من نقل وتكرار أفكار الآخرين. سيكون «خفرع» بالتأكيد فرعونًا عصريًّا ومتعاطفًا مع شعبه محبوبًا من قِبله. لكنْ لقانون الخلافة رأي آخر. تمنيت أن ألحقه بمنصب وزاري -وهو أحد أعلى المناصب في الدولة- كتعويض له، ولكن بصراحة، لم أستطع أن أتخيله مسئولًا كبيرًا يعمل بدقة ومملًّا. سيكون «خفرع» مثلي، رجلًا صاحب رؤية، مثقفًا ومطلعًا وذا شخصية برَّاقة، مُهيمنًا وسلطويًّا. هذه الحقيقة الواضحة المفاجئة أربكتني. استدعيت على وجه السرعة الساحر «چدي» الذي كان يستجم في منزله الريفي، فقد كان وحده يعلم المستقبل.

سيظل ذلك اليوم محفورًا في ذاكرتي ما حييت..

كان خفرع يكبر سريعًا وكان منُشغلًا ومكبلًا للغاية بدراسته. لم يعد بإمكانه مرافقتنا في الجولة اليومية إلى القرية، تلك النزهة التي داومنا عليها أنا و«حنوت-سن». كنت دائمًا أشعر بالفخر وأنا أسير إلى جانبها، مرتديًا ملابسي الاحتفالية: زمامًا تتدلى منه كرات صغيرة مصنوعة من خيوط ملونة، ولجامًا من الجلد المُلون وسلالًا رقيقة مطرزة بالورود.

كنت أشعر وكأنني حمار من فصيلة مختلفة عندما يتصادف مرورنا أمام مجموعة من بني جنسي شعر فروهم القصير رثٌّ ومكبلون بالأحمال، يؤدون خدمات التوصيل بمشقة وعناء وجُهْدٍ جهيد. لطالما فضَّلت سيدتي دردشة وحكايات زوجات العمال على عبث وهراء سيدات البلاط. يتزوج أبناء القرى مبكرًا وسرعان ما ينجبون أطفالًا يمرحون عراة في الأزقة ويستمتعون بمطاردة ماعز ضلت طريقها أو كلبٍ لعوب. وبينما كان أزواجهن يتغيبون لأكثر من عشر ساعات في اليوم، كانت النساء يقضين أيامهن معًا ومع أطفالهن. لم يكن عليهن عبء تجهيز وجبة الغداء، فكان العمَّال يتناولونها في الموقع توفيرًا للوقت. فكانت بعض النسوة يستغللن وقت فراغهن هذا للتعرف على جيرانهن؛ مما كان يسفر عن صداقات قوية وعلاقات وطيدة، ويشجع أيضًا على نشأة علاقات غرامية سرية، وربما خيانات زوجية. فقد أصبحت القرية مؤخرًا مأهولة بالفنانين الشباب، الذين لم يكونوا يعملون في موقع البناء، ولكن في الورش الخاصة بهم في العديد من المشاريع: التماثيل والنقوش الغائرة والأثاث. لقد أثاروا فضول نسوة القرية اللائي جئن ليقدمن لهم الخبز الدافئ أو الكعك، وكان بعضهم يقوم بعمل طلبيَّة ملاءات أو مفروشات من الكتان أو أطباق وأدوات السفرة، وكان يتم تسليمها إليهن في منازلهن.

كنا نعلم أنا و«حنوت-سن» ما الذي كان يُؤجج مشاعر تلك الشابة المسرعة الخطى التي التقينا بها في طريقنا ويتسبب في تورد وجنتيها. وهذه الأخرى التي تتمسح في الجدران وتلتصق بها كما لو كانت تريد أن تَنفُذ إلى قلب الطوب الطيني لتختفي عن الأنظار. وأخرى أيضًا كانت تدندن لحنًا من فرط السعادة. كان الأطفال يأخذون ملكتي من يدها ويجذبونها إليهم لترى جروًا صغيرًا أو قطة كانوا ألبسوها مئزرًا مثلما الدمية. كانت النساء يرحبن بها من شرفاتهن، فيلوحن بأيديهن أو يهززن رؤوسهن. هتفن باسمها بود ومحبة وأيضًا باحترام. كانت النساء يتأملن شكل الشرائط التي ربطتها على خصرها وكيف قامت بتصفيف شعرها. كن يتأملن «حنوت-سن» بخطواتها التي لا تزال رشيقة وشابة على الرغم من مرور الزمن وتوالي السنين. «حنوت-سن» التي تسير بخطوات قافزة بينما تحمل صندلها في يديها.

لم تر هذا الشبح الهائل قادمًا. في البداية شممته بمنخري، رائحته كريهة، واستشعرت الخطر بكل حواسي! تنقلت عيناي في كل مكان بسرعة شديدة، في جزء من الثانية، حتى خلف رأسي. في اللحظة التي رفع فيها الظل ذراعه ليهوي بها على ملكتي. سددت له رفسة بقوة واندفاع في بطنه طرحته أرضًا. استدارت «حنوت-سن» وصرخت وحاولت عبثًا منعي من دعس المجرم بحوافري، ذلك الوحش الذي حاول أن ينهي حياتها. ظللت أدعسه بغلٍّ شديد حتى تشوهت ملامح وجهه تمامًا عندما وصلت الشرطة إلى مكان الحادث.

شعرت بالفزع والذهول عندما قرأت تقرير التحقيق. كنت أنا المُستَهْدف الحقيقي بشكل غير مباشر من محاولة اغتيال «حنوت-سن». كان المحقق حاسمًا: من الضروري الرجوع إلى الشخصيات العُليا في الدولة، ليس وزرائي، بل أقرب المقربين. تم تدبير المؤامرة داخل القصر؛ لذلك لا ينبغي أن أنتقم وأن أجعل من المتآمرين أو المتآمرات في هذه الحالة، عبرة لمن يعتبر، بل على العكس من ذلك، كان عليَّ أن أتكتم الأمر حتى لا أضر بسلطتي أو مصداقية سلالتي. قام مدبرو الجريمة باستئجار أحمق قرية الحرفيين الأصم والأبكم لإنجاز المهمة. كانوا على يقين من أنه لن يستطيع أبدًا الإدلاء بشهادته مهما حصل. الحالة التي تركته فيها وحشية الحمار «بابا» كانت تتناسب تمامًا مع مخططهم: سيموت الفاعل مشوهًا ومُهشَّم العِظام. لكن غريزة البقاء غالبًا ما تكون مدهشة! فقد نجا الأبله، بل شفي من جروحه وتعافى تمامًا. لا بد من الإشادة بالرعاية التي تلقاها من السيدة «بسشيت» رئيسة الطبيبات التي قامت بإيوائه وبعلاجه ومداواته لعدة أشهر في مستوصفها. أصبح أكثر رعبًا ومثيرًا للفزع بفكه المكسور، لكنه كان قادرًا على الإدلاء بالشهادة! نعم، لقد أغفل القتلة تفصيلين مهمين: أحمق القرية لم يكن أحمق على الإطلاق، وكان يتحدث لغة الإشارة.

تمكن ضباط الشرطة المتخصصون من استجوابه، وطالب بالانتقام والثأر. لم يكن يريد أن يكون هو وحده من يدفع ثمن الجريمة الشنعاء، خصوصًا أنه لم يكن قد حصل على المكافأة الموعودة! لقد وجَّه اتهامات خطيرة ضد ساحر زائف من «إِنِبْ-حِدِجْ»، مسجل بالفعل لدى أجهزتنا وضد سيدة من الحاشية استطعنا تحديد هويتها، دون أي خطأ محتمل، وهي الأميرة «نفرت-إيابت». جاءت خاتمة تقرير الشرطة على شكل مجموعة من الأسئلة والاستفهامات: ما مصلحتها من اغتيال «حنوت-سن»؟ هل كانت تطيع امرأة أخرى في الظل، تشعر بالمرارة والإحباط والغيرة، الملكة «ميريت إت إس» لعدم ذكر اسمها؟

أمرتُ بإخفاء الساحر دون أخذ أي إجراء آخر من إجراءات المحاكمة. لم يعد الأحمق يستفيد من امتيازات البلاهة، وسيتم استخدامه ككبش فداء. هو الذي سيُحاكم على عجل ويخوزق في الساحة العامة لأنه حاول المساس بحياة أحد أفراد العائلة الملكية. سيتم إرسال «بابا» إلى الريف للاسترخاء والراحة وإيقافه عن العمل لعدة أسابيع. إذا كان قد أنقذ سيدته، فقد أثبت أيضًا أنه خطير. أصبح من غير الوارد، بعد الآن، أن يقترب الأمراء منه أو أن يقوم «خفرع»، على وجه الخصوص، بركوبه كما كان يحب أن يفعل سرًّا. استدعيت «ميريت إت إس» و«نفرت-إيابت» إلى جناحي الخاص لاستجوابهما ومواجهتهما شخصيًّا. لم تحضر سوى الملكة، وظلت صامتة مثل أحمق القرية، واحتمت في دموع العار والخزي. قامت بحماية وصيفتها، من خلال صمتها الذي لم يبرئها، الأميرة «نفرت-إيابت» التي اختفت فجأة وكل متاعها هو صندوق مليء بالمجوهرات الملكية لأختي وزوجتي. لم تستغرق كتائبي الخاصة وقتًا طويلًا لتحديد مكانها. فقد وجدت تلك الساقطة ملجأً في مقاطعة الجميز حيث اعتبر حاكمها «إيكر» نفسه فرعونًا صغيرًا يحكم المقاطعة بقبضة حديدية. للتكفير عن ذنبها كرست نفسها ككاهنة منقطعة لعبادة الإلهة «حتحور» التي كان لها معبد رائع في المقاطعة، ولتجنب الفضيحة لم تتم إثارة الأقاويل حولها، ولكنها وضعت تحت المراقبة. ما لم يُبْلِغْني به رجالي واعتبروه غير ذي أهمية أن رجلًا يدعى «رع-نفر» كان قد أصبح مؤخرًا رئيس كهنة المعبد المجاور المخصص للإله «رع».

كنت أنا الْمُسْتَهدَفة؛ ومن ثَمَّ كان لا بد أن أعرب عن رأيي وأقول كلمتي بهذا الشأن. لم أستطع أن أتخيل ولو للحظة أن تكون «ميريت إت إس» قد دبرت محاولة اغتيالي. ولماذا؟ ما الذي يجعلها تريد أن تفعل ذلك؟ كانت تتمتع بوضع الزوجة الملكية الكبرى، وكانت أم الملك القادم. كانت تعيش الآن في البلاط الملكي إلى جوارنا ولم يكن يقام احتفال ولا تُعد مأدُبة إلا وكانت على رأس المدعوين. أصبح الأمراء أبناؤنا يدرسون معًا ونشأت بينهم علاقة أخوة جميلة على الرغم من الاختلاف الشاسع بينهم. كانت كلتانا تعلم جيدًا أن

«خوفو» –مثله مثل كل الفراعنة– متعدد الزوجات، بل ولديه حريم تحت تصرفه. كان عليه أن ينجب العديد من الأبناء لضمان اعتلاء أحدهم العرش. ما لم تعرفه «ميريت إت إس» هو أن ولادة «خفرع» حرمتني من وظيفتي كأم: كانت كبيرة الأطباء السيدة «بسشيت» حاسمة حين أبلغتني أنه لم يعد بإمكاني الإنجاب. لقد كبرت أيضًا وتقدم بي العمر وتطورت منذ تلك الأمسية الشهيرة حينما تجرأت على طلب «المزيد» من «خوفو». كنت أدرك تمامًا أنني المفضلة لدى ملكنا، لكن المفضلة لم تكن تعني الوحيدة.

من ناحية أخرى، لم أفهم لماذا لم تستوفِ الشرطة التحقيق مع وصيفتها «نفرت–إيابت»، ولماذا سمحوا لها بالهروب. أكره القيل والقال، لكنني اعتقدت دائمًا أن هذه المرأة الرائعة كانت خطيرة. أستطيع التصديق بسهولة أنها قادرة على تأجير مختل عقليًّا أحمق لارتكاب جريمة قتل لحسابها والترتيب لتقاسم المسئولية مع «ميريت إت إس» المسكينة. لماذا أرادت موتي؟ ببساطة لتستحوذ على «خوفو»، الذي كانت غرائزه تُستثار بمجرد أن يراها مثله مثل كل الرجال. كانت ستحتل عرش الزوجة الثانية وتنجب له العديد من الأبناء. تحليلات السياسيين كانت لا تعنيني: تسريب خبر أن المؤامرة قد دبرت داخل القصر من شأنه أن يفضح ضعف السلطة المركزية، كما سيكون سببًا ربما يشجع متآمرين آخرين على اغتيال الفرعون نفسه في المرة القادمة. فعلى الرغم من ذلك، كان لا بد من معاقبة الجاني المدان وفقًا لمنطق الفلاحين الذين أنتمي إليهم.

ولأن المصائب لا تأتي فرادى؛ فبعد أيام قليلة من هروب «نفرت–إيابت» سقط «كاوعب» في الماء والتهمه فرس النهر، أثناء قيامه برحلة علمية في منطقة البحيرات. كان يعمل على تأليف كتاب مُصور بلوحات ملونة في مجال العلوم الطبيعية عن حياة ذلك الحيوان البرمائي الضخم الذي يمثِّل أهمية كبيرة في الحياة اليومية للمصريين وفي المُخَيِّلة المصرية. رأى البعض أنها لعنة جديدة وقعت على العائلة المالكة: فقد لقي جميع أولياء العهد البكر حتفهم بطريقة مأساوية بفعل فرس النهر الذي التهمهم. قضت وفاة «كاوعب» تمامًا على أمه «ميريت إت إس» التي فسرت ما حدث على أنه انتقام إلهي. انعزلت في جناحها وأبت أن تغادره.

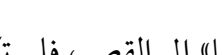

توسلت إليَّ «حنوت–سن» لكي أعيد «بابا» إلى القصر، فلم تكن تفهم لماذا نعزله في حين أنه أنقذ حياتها. كانت حالة الحمار تتدهور، وكانت هي تزوره سرًّا وتحضر له الحلوى وتربت على ظهره وتوشوشه. استسلمت لإرادة زوجتي مجددًا وعاد «بابا» ليشغل مكانه في الإسطبل الملكي. كنت أجده أحيانًا كثيرة في صالون «حنوت–سن» الخاص وهو يستمع إلى غناء عازفة القيثارة بينما يحرك أذنيه الكبيرتين ويطلق أنينًا وآهات وتنهيدات. وكان ينظر إليَّ بعينيه الهَدبَتين، وكان لديّ انطباع غير سار بأنه يغيظني.

لم يكن لديّ الآن سوى ولدين ليخلفاني، وكان أبنائي من محظياتي مجرد رجال حاشية لم أهتم بإعدادهم لممارسة السلطة في يوم من الأيام. وكلما ارتفعت أسس هرمي، تضاءلت حياتي الدنيوية، وكنت قلقًا بشأن خلافة سلالتي على عرش مصر.

استدعيت الساحر «چدي» إلى جلسة استماع خاصة في جناح للصيد كان والدي قد أقامه على ضفاف بحيرة دهشور. أردت أن يتم لقاؤنا خارج القصر لأنني ما زلت أومن بأن للحيطان آذانًا.

– أعطيك الأمان يا «چدي»، لن أعاقبك مهما قُلت وكشفت لي.

– كما تقرر يا مليكي –هكذا استهل «چدي» كلامه– سيخلفك ابنك «چدف رع»، ومن بعده ابنك الآخر «خفرع». لا أعلم ماذا سيحدث لورثة العرش الثلاثة الذين سينجبهم «چدف رع» ولماذا لن يخلفوا والدهم.

– هل تريد أن تخبرني يا «چدي» أن ابني الحنون «خفرع» سيكرر بدوره تاريخ الآلهة؟ وأنه سيكون «ست» جديدًا يقتل أبناء أخيه لينتزع منهم السلطة؟

– أنا فقط أكرر لك يا مليكي ما أقرؤه في النجوم. إنها مجرد مؤشرات لا تسمح بالحصول على إجابات شاملة ومتعمقة، ولن أسمح لنفسي أن أفعل ذلك.

– هيا استمر يا «چدي».. استمر!

– أرى أن «خفرع» سيأمر بتشييد هرم لنفسه على هضبة الجيزة بنفس ارتفاع هرمك تقريبًا، كما سيأمر أيضًا بنحت صخرة عملاقة على شكل أسد برأس إنسان لحراسة المقبرة. سيُطلق لاحقًا على هذا الوحش الحارس اسم «أبو الهول»، وسيكون متوجهًا ناحية الشرق ليمثل «خفرع» وهو يمجِّد والده «خوفو» باعتباره إله الشمس «رع».

سيَخْلُف خفرع أحفادك وأحفاد أحفادك، ثم سيحدث شيء غير مسبوق، حيث ستعتلي امرأة عرش مصر!

– أنت تهذي! فرعون امرأة؟ من سيرتدي شارات الملوك من اللحية الاصطناعية، والصولجان، وذيل الثور، والصل الفرعوني؟ لم أسمع مثل هذه النبوءة المضحكة قط.

– النجوم حاسمة أيها الفرعون. ستأمر هذه المرأة ببناء هرم لها مثلك تمامًا، ومعبد جنائزي وآخر في الوادي، كما ستأمر أيضًا بحفر خنادق لقواربها الشمسية، وسيكون لديها كهنة لضمان عبادتها الجنائزية. تريدني أن أستمر؟

– نعم يا «چدي»، لأنني في النهاية أستمتع كثيرًا بسماع تنبؤاتك.

– ستشهد السلالة التالية –أي الخامسة– انقسامًا سياسيًّا. سيتم اغتصاب السلطة من قبل رئيس كهنة «رع» يدعى «أوسركاف»، وسيؤكد على شرعيته من خلال الزواج من الأميرة «نفرحتبس» حفيدتك لابنك «چدف رع».

بدلًا من معاقبة «چدي» الذي سخر من الوظيفة الملكية بحكاية تلك المرأة الفرعون المزعومة؛ كافأته بمائة قارورة من أجود أنواع النبيذ من مزارع الكروم الخاصة بي وبعض سبائك الذهب النوبي الخالص. لقد أقلقني كلام الساحر وخشيت في أعماقي أن تتحقق بعض نبوءاته حتى وإن كانت لا تُصدق. استدعيت أبنائي لأخبرهم عن مقابلتنا. كانوا أقل تشككًا مني وأجابوني بنضج كنت أتوقعه منهم. قال «چدف رع»: يا أبتِ، ثق تمامًا أنه إذا أنجبت إحدى زوجاتي «نفرحتبس» هذه، فلن تتزوج أبدًا من رئيس كهنة «رع»!

– ولكن كيف يمكنك أن تكون متأكدًا؟

– لأنه إذا ولدت لي فتاة تدعى «نفرحتبس» فسوف أجعلها تختفي على الفور كما نفعل مع الجراء الصغار، وبالتالي سأضمن أن نبوءة «چدي» لن تتحقق أبدًا!

– تقتل ابنتك، يا للهول! يا لها من قسوة يا أخي! قال «خفرع» باستياء شديد.

دون اللجوء لقتل أي شخص اليوم أو غدًا، ألسنا أذكياء ومهرة بما يكفي لابتكار استراتيجيات فعالة؟ بما أننا نعرف المستقبل، أليس من السهل مواجهته والعمل على تغييره؟ لا يمكن أن يظل معبد «رع» في هليوبوليس مغلقًا إلى الأبد، أليس كذلك يا أبي؟ سيكون كافيًا أن نوزع رهانات المعركة على مدينتي إيونو و«إِنِبْ–حِدِجْ». إذا تم شغلهما بالتصارع بين بعضهما البعض من أجل سيادة إله كلٍّ منهما، فسوف يحيدان بالتالي عن المعركة الرئيسية التي هي الاستيلاء على العرش الملكي!

– هذا عدم فهم لشخصية «رع–نفر» يا «خفرع»، إنه شخص خطير وطموح ومن البديهي أنه سيفكر مليًّا في الانتقام بشكلٍ ما. من المؤكد أنه سيستخدم الشعبية المتزايدة لعبادة إلهه كذريعة ليس فقط للعب دور ديني وروحي رئيسي من خلال الإطاحة بشكل نهائي بكهنة الإله «بتاح»، ولكن أيضًا دور سياسي رئيسي من خلال التآمر ضد الفرعون الحاكم، أنا.. «خوفو»!

– إذا كان لا بد من تصديق «چدي»، فلن ينجح إذًا «رع–نفر» –هكذا عقَّب «خفرع»– من المحتمل أن يكون أحد أحفاد «رع–نفر» هو الذي سيخطط لمؤامرة ضد الملك الذي سيكون معاصرًا له.
لا ينبغي أن نقلق أنا وأنت و«چدف رع». في المقابل، وبفضل ما كشفه لنا «چدي» –وهو ما أصدقه أنا شخصيًّا– سوف نسبق التاريخ بخطوة. سيكون من الغباء عدم استغلال هذه الميزة.

– إن محاربة القدر يا بُني معركة خاسرة مسبقًا.

- ربما هذا صحيح عندما تكون بشرًا! صاح «خفرع» متحمسًا، ولكن ماذا لو أنت إله حي على الأرض؟

الفصل التاسع عشر

معونة الآلهة

تقاسمنا المهام أنا و«حم-إيونو». تولى هو حل المشاكل الهندسية والفنية وتلك المتعلقة بالأنماط المعمارية لمجمع «خوفو» الجنائزي. كان يحاول أن يترجم من خلال الحجر الحي الذي يصيح ويتأوه تحت إزميل الحجَّار، المفاهيم اللاهوتية التي طورها الفرعون مؤخرًا في «صحف الإله» في إيونو. كان قد حفر في جدران غرفة السرداب قنوات مُصغَّرة بمقطع طوله عشرون سنتيمترًا مُوَجَّه ناحية الشَّمَال حيث «النجوم السرمدية». كان يتم إغلاق تلك القنوات بحجر به مقبض نحاسي كان بمثابة بوابة السماء التي ستُفتح للمتوفى بعد وفاته. بنى كوة ناتئة تصل إلى السقف حيث سيوضع تمثال «كا»، قرين «خوفو» المطلي بالكامل بالذهب مثل أجساد الآلهة. سيتم استخدام حجر اللازورد لترصيع كل من حواجبه، ولحيته الاصطناعية، و«النمس الفرعوني» الذي سيغطي رأسه. قام الصُّيَّاغ في ورش العمل بصياغة أطول تمثال تم صنعه على الإطلاق. تم تصوير «كا» خوفو واقفًا في جلال وكان مطلوبًا أن يعكس تعبير وجهه الأبدي الهادئ والجميل السلطة والسطوة بقدر ما يعكس الرحمة والأريحية، مما شكَّل تحديًا شبه مستحيل للفنانين.

كان «حم-إيونو» قلقًا متوترًا وازداد وزنه مجددًا. أراد أن يكرس كل وقته وكيانه لتصميم ما سيصنع مجده ويخلد اسمه: غرفة الدفن، ذلك الصندوق المصنوع بالكامل من جرانيت أسوان أحمر اللون. شرع «حم-إيونو» في مقامرة معمارية مجنونة حيث كان لا بد من جر أكثر من مائة كتلة من جرانيت أسوان الأحمر إلى داخل الهرم بما في ذلك تسع كُتل أُحادية بعدد آلهة هليوبوليس لعوارض السقف. ولكنه الآن يساوره الشك. الشك في قدرته على بناء الغرفة، ثم الشك في صلابتها. ألن يتم سحقها مثل صندوق البيض تحت وطأة الأحجار التي تملأ فراغات هيكل الهرم الداخلي؟ كان يضع تصاميمه على أوراق البردي ورقة تلو الأخرى بحثًا عن حل مستدام وقابل للتطبيق، ثم يُلقي بعيدًا بكل مشروع تصوره ويبدأ من جديد.

كانت مسئولياتي بسيطة وعادية، فكنت أدير الخدمات اللوجستية اليومية: توريد الرجال والغذاء والحجارة وتطوير وصيانة القنوات الممتدة على ضفاف الفرع الرئيسي لنهر النيل. منذ رحيل «رع-نفر» أصبحت مدينة هليوبوليس ترسل فائض إمداداتها إلى «عنخو خوفو». لكن ظلت سلة الخبز الحقيقية التي تطعمنا هي منطقة الدلتا. حيث كان «سنفرو» قد بدأ في تخطيط استخدام الأراضي واستغلال المنطقة ثم استكمل «خوفو» هذا التطوير ودعمه من بعده. وفرت العديد من المؤسسات الزراعية الملكية الحبوب والكتان والماشية، وتم تطوير زراعة الكروم بها من أجل صناعة النبيذ، كما تم استغلال نخيل التمور التي

يُصنع منها أشهى أنواع العسل وألذها. أكد لنا رئيس مخازن الحبوب الملكية أن إنتاج الغذاء والمخزون الاحتياطي وفير ويكفي لعدة سنوات. كان عدد الأفواه التي علينا إطعامها في الموقع في تزايد مستمر مع وصول عمال جدد هرعوا إلى «عنخو خوفو» لبناء وتزيين مصطبة النبلاء.

اضطررنا إلى مضاعفة دورات النقل النهرية للحصول على إمدادات حجرية منذ أن بدأ هذا السباق العقاري لبناء الصروح الجنائزية، واستطعنا تحقيق ذلك بنجاح. لكن ما كان يُهددنا بالنقصان الشديد هو النحاس الذي نصنع به أدواتنا. كنا نحصل عليه بانتظام من جبال سيناء. قام «خوفو» بتأمين المنطقة بشكل دائم وطوَّر بنية تحتية للتصنيع المسبق للأدوات لتوفير الوقت، لكن احتياجاتنا كانت هائلة وغير محددة. كيف يمكن مضاعفة التناوب في شبه الجزيرة؟

كان لدينا طريقان للوصول إلى «بجاو-مفكت» (سيناء). الأول طويل وبري بالكامل وتم التوقف عن استعماله بالتدريج؛ حيث كان ينبغي التوجه شمالًا من «إِنِبْ-حِدِجْ» (ممفيس) إلى بِرْبَاسْتِتْ (تل بسطة)، ثم بِرْ-جِتِمْ (وادي طميلات)، في كَمْ ورْ (البحيرات المرة)، ثم تجاوز خليج السويس للوصول أخيرًا إلى «بجاو-مفكت» (سيناء). أما الطريق الثاني فكان مزدوجًا، نصفه نهري، من الجيزة إلى وادي عربة، ونصفه بري، من رَا-حِمُو (الصحراء الشرقية) إلى شواطئ واج-ور (البحر الأحمر). كانت الرحلة تستغرق أسبوعين كاملين قبل الوصول إلى منطقة وادي الجرف المواجهة لمواقع التعدين التي نتزود منها في «بجاو-مفكت» (سيناء). كما كان يستوجب علينا استقلال قوارب للعبور إلى الضفة المقابلة، على مسافة حوالي خمسين كيلومترًا. اعتدنا على نقل تلك القوارب مفككة الأجزاء من وادي النيل، أولًا على صنادل كبيرة على النهر، ثم عبر الصحراء فوق ظهور الحمير، بل وعلى ظهور الرجال أيضًا. وعندما نصل إلى الخليج نقوم بتجميع القوارب على الشاطئ لنقل الشحنات ثم نقوم بعد ذلك بتفكيكها لإعادتها إلى حيث أتت. كان هذا الأمر يستغرق وقتًا طويلًا للغاية ومحفوفًا بالمخاطر ويشغل فرقنا من نهاية مارس حتى نهاية يوليو. كما أن الطقس كان حارًّا جدًّا لعبور الصحراء، وكان علينا أيضًا الاستفادة من موسم الفيضانات لتنظيم النقل النهري للحمولات الثقيلة.

لقد أعطاني «خوفو» تفويضًا مطلقًا لتكثيف الحملات وإقامة معسكرات قدرتها الاستيعابية لا تقل عن ألف شخص وتكون مريحة ومجهزة لإيواء وإطعام رجالنا في الموقع. أحضرت المفتش «مِرِر» لنتباحث في الأمر. كان رجلًا ذا خبرة وعبقرية على علم بكل صعوبات الملاحة النهرية والبحرية. إذا كان اليوم يقوم بنقل الحجر الجيري الأبيض من شمال وجنوب طرة إلى هضبة الجيزة من أغسطس إلى نوفمبر؛ فقد نجح سابقًا ببراعة في المهام التي أوكلت إليه بالفعل في واج-ور (البحر الأحمر) لجلب الأَرز من جُبيل. كنت قد استدعيته إلى مكتبي لمناظرة أفكاره بأفكار رئيس النجارين «إنتي-شيدو» الذي تم تعيينه رئيسًا لترسانات

بناء السفن. لقد وجدت أن من هم على شاكلة هؤلاء الأفراد يجدون دائمًا حلولًا نظرية مبتكرة، ثم يبقى التحقق من فعاليتها على أرض الواقع.

♀

– كما تعلم أيها الأمير «عنخ-خاف»، قال «مرر»، قامت فرقي بتنفيذ مهمات مختلفة ومتعددة مثل التأهيل البحري أو النهري في الدلتا، وصيانة القنوات والأحواض الاصطناعية التي أنشأتها أنت عند سفح هضبة الجيزة، وتحويض الماء بها في موسم الفيضان. وأثناء انتظار الانتهاء من المعبد الجنائزي لـ«خوفو» كانوا يقومون بانتظام بنقل المواد الغذائية اللازمة للقرابين اليومية لعبادة «خوفو» إلى معبد الوادي، وأيضًا النطرون للتبخير، وحتى أغراض للعبادة من الذهب والأحجار شبه الكريمة. كما عبروا رَا-حِمُو (الصحراء الشرقية) عدة مرات للوصول إلى واج-ور (البحر الأحمر) ومواقع إنتاج النحاس والفيروز بالرغم من الصعوبات التي عليهم مواجهتها، فلا شيء يستعصي على رجالي، فهم يجيدون التحكم في الرياح الشديدة وسبر غور الأعماق المرجانية. هم رجال متعددو الإمكانيات، يعتمد عليهم، وأيضًا البحارة أو المهندسون.

– أعرف كل هذا يا «مرر»، دعنا ندخل في صلب الموضوع!

– إذا كنت ترغب في سرعة إنجاز المهام، أيها الأمير «عنخ-خاف»، فإني لا أرى سوى حل واحد فقط: إنشاء منطقة عمليات تتكون من ميناء يكون العمل به متقطعًا وليس معسكرًا بحريًّا عرضيًّا. سيعمل بكل الوسائل اللوجستية لميناء حقيقي خلال الأشهر الأربعة من العام التي تكون خلالها الملاحة سهلة في واج-ور (البحر الأحمر) والصحراء لا يزال جوها محتملًا وليست بعد كالأتون من شدة الحرارة. منطقة وادي الجرف، كما نستغلها حاليًّا، بها عائق وهو بُعدها عن العاصمة، ولكن بها ميزة كبيرة؛ كونها في منطقة تنبع منها مياه الشرب بفضل وجود عيون طبيعية. يمكننا بسهولة بناء سد لحماية منطقة إرساء قواربنا من الرياح وقرية مؤقتة مشيدة بالحجارة الجافة لإيواء فرقنا. سينضم الخبازون وصانعو الجِعَة والطهاة والحرفيون إلى البحارة متعددي المهام.

الحل الأمثل هو عدم إهدار الوقت في الذهاب والإياب المستمر إلى وادي النيل. يمكننا تنظيم إنتاج المواد الغذائية الأساسية في الموقع وكذلك بالنسبة للأواني الفخارية لحفظ ونقل تلك المواد الغذائية، خاصة أثناء عبور خليج واج-ور (البحر الأحمر). لتخزين المواد الغذائية والقوارب، سيكون من السهل حفر هناجر في صخور الحجر الجيري لجبل الجلالة الذي ينتهي عند الوادي. بالطبع سيكون من الضروري الذهاب للتحقق على الطبيعة. يبقى أن نرى ما سيتفتق عنه ذهن «إنتي-شيدو» لتحسين إنتاج القوارب وتجميعها

وتفكيكها.

♀

كنت قد ارتقيت في السُلَّم الهرمي للنجارين. لم أعد أصنع الزلاجات، وفي المقابل أتقنت تمامًا بناء جميع أنواع المراكب: قوارب المواكب الإلهية، والقوارب الاحتفالية للقصر، وسفن الأسطول الملكي، وصنادل النقل. كنت من أوائل من نسخوا «الجبليت» الشهيرة، وهي سفن جُبيِّل التي تبحر في البحر الأبيض المتوسط. الآن، كانت الدولة بحاجة إلى خبرتي لإنشاء نموذج سفينة تجريبية!

وضعت تصورًا لقارب بأضْلُع ذات مقاييس متفق عليها، يسهُل فكها وإعادة تجميعها، ذات نظام تثبيت مُعزز. إن خفض الإنتاج إلى نموذج واحدٍ فقط يتطلب قدرًا كبيرًا من اليقظة من جانب رؤساء العمال في ورش العمل الخاصة بي، ولكنه سيوفر الكثير من الوقت ويقلل من تكاليف التصنيع، حتى لو كان بديهيًّا أن هذا الجانب التجاري يهم أصحاب العمل فإنه كان لا يعني كبار المسئولين الحكوميين.

رسمت مقاطع جانبية لألواح للتجميع مُرقمة وقابلة للتبديل من سفينة إلى أخرى. قمت بعمل الشيء نفسه بالنسبة للمجاذيف ومجموعة الأشرعة والحبال. فكان هذا من شأنه أيضًا أن يجعل من السهل إصلاح سفينة معيبة، حيث سيكون كافيًا وجود قطع الغيار في متناول اليد. يبلغ طول جناحَي جميع السفن خمسة عشر مترًا حتى
لا تكون الألواح مُعرقِلة أو ثقيلة ويصعب حملها. وستتم صناعتها من ألواح سميكة من خشب الأرز متصلة ببعضها البعض بواسطة نظام وصلة نقرة ولسان أُحادي أو حتى مزدوج لمزيد من العزل المائي والغلق المُحكم. سيتم تعزيز هذه المنظومة بواسطة حبال من شأنها أن تُخرج السفينة من تحت أيدي العمال مُتقنة الصنع كما لو كانت ثوبًا خاطه خياط ماهر «على المقاس». اعتزمت أن نقوم بعمل نموذج أولي في ورش العمل الخاصة بي في وقت قياسي.

بما أنه كان من المخطط تخزين البضائع والأدوات في الميناء الموسمي بوادي الجرف؛ فلماذا لا يتم تخزين القوارب، بمجرد تفكيكها، في أروقة محفورة في الجبل؟ سيكون العيب الوحيد هو الرطوبة المستمرة التي ستتعرض لها السفن لعدة أشهر متواصلة، وستسمح هذه الرطوبة بتكاثر ديدان السفن التي تعشق الاستيطان في الخشب لالتهامه، وستقضي قطعًا وقتًا ممتعًا؛ لذلك اقترحت عزل الألواح عن الأرض بواسطة نظام من الركائز. كما لفتُّ انتباه الأمير «عنخ-خاف» إلى المخاطر المحتملة للسرقة بمجرد توقف العمل في الميناء الموسمي وهجره. يجب التفكير في ابتكار نظام إغلاق فعَّال لمخازننا. كنت فخورًا بأنه أومأ برأسه

موافقًا على كل مداخلة من مداخلاتي، لكن كاد أن يُغشى عليَّ عندما أعلن الأمير أن «مرر» كان على حق: كان علينا الذهاب والتحقق من المعطيات على أرض الواقع! كان وقْع نون الجمع التي استخدمها في «علينا» كدوي صنج سيئ ومزعج في رأسي.

أكره السفر. على الرغم من أنني أقوم ببناء أجمل السفن؛ فإنني أصاب بدوار البحر، وأشعر به حتى في النهر. كنت قد تزوجت لتوِّي ولم يكن لديَّ سوى شغفين: زوجتي الشابة، وعملي الذي تفانيت فيه بكل جوارحي. كنت شديد الالتصاق بالمنزل وأُفضِّل المُكث به على الخروج، وكان لديَّ شارب مميز أكسبني لقبًا لطيفًا: «الشارب». لم أكن أريده شديد السُّمك ولا شديد العرض، فكان يجب أن يحد شفتي العليا، وكنت أشذبه فكان يبدو وكأنه مرسوم بالقلم، واعتنيتُ به عناية فائقة فكنت أسرحه بالفرشاة وأمشطه وأغذيه بالزيوت العطرية لكي أحافظ عليه ناعمًا ولامعًا، وكنت أعطره أيضًا. كانت لديَّ حقيبة صغيرة محمولة لأغراض العناية الشخصية، بها مرآة مصنوعة من النحاس المصقول وموسى حلاقة أتاح لي تشذيب شاربي أولًا بأول. بينما كان الملوك يرتدون اللحى كسمة من سمات سلطتهم وقوتهم ونفوذهم، كنت أنا أطلق شاربي كرمز للجاذبية والرجولة والرُّقي، وكانت حبيبتي تقول لي دومًا إن هذا الخط الكنِز الداكن كان بمثابة ابتسامتي الثانية. وهذا سبب أدعى جعلني أهتم بشاربي بهوس شديد. لكل هذه الأسباب تسببت نون الجمع هذه التي استخدمها رئيسنا، الأمير «عنخ-خاف»، في ضيقٍ شديد لي؛ ولكن أيضًا لأنني كان لديَّ ذعر من العقارب والثعابين، ولأنني كنت أخشى الحرارة المفرطة والمجهود البدني، وكنت أكره اختلاط مجموعات الذكور.

بدأ الأرق يصيبني، وتضاعفت الكوابيس التي رأيتُ نفسي فيها أعيش حياة المغامر غير المستقرة والمضطربة، أجوب الصحراء لعدة أيام وسط غبارها، مذعورًا من فكرة وطْء عقرب بقدمي أو أن يقوم ثعبان بلدغي. كنت أراني رث الهيئة وغارقًا في عرقي، تلتصق الرمال بشاربي الذي ضاعت معالمه. رأيت السراب في كل مكان في هذا الكون الخاوي والمهجور الذي أحرقته الشمس، حيث الشجيرات شائكة، وحيث لا وجود للواحات إلا في خيالات وعقول المسافرين السقيمة، وحيث أعقبت الليالي الجليدية الأيام القائظة.

أنقذ الموقف الفرعون «خوفو» شخصيًّا؛ فقد جاء -دون أن يُخبر أحدًا- لحضور اجتماعنا الأخير حول التنظيم الجديد لوادي الجرف.

- لا أرى أي حاجة على الإطلاق لإشراك كبير النجارين «إنتي-شيدو»، الجالس بيننا، في بعثتك القادمة إلى سيناء. أنا بحاجة ماسة إلى هذا المتخصص هنا في القصر لنضع معًا تصورًا لتصميم قوارب الشمس الخاصة بي. كما تعلمون، فقد وصلت لتوها حمولة مميزة من خشب الأرز من جُبيِّل. أريد أن يتم استخدام

هذه الألواح القوية لبناء القاربين الكبيرين الخاصين بالموكب. سيتم إجراء تجارب القوارب القياسية لوادي الجرف في أحواض بناء السفن في «إِنبْ-حِدِجْ» (ممفيس) ومر-تحو (ميدوم) و«عنخو خوفو». سنختبر هنا على ضفاف النيل سهولة وسرعة التجميع والتفكيك والانزلاق على سطح الماء، وفي حالة وجود مشكلة في التجميع -وهذا أمر مستبعد- أقترح إرسال مجموعة من النجارين المتخصصين بالأدوات المطلوبة، بمجرد أن تكون الشحنة في الموقع، ثم يتركون معداتهم في الهناجر تحت تصرف البعثات اللاحقة.

صممت أكبر قاربين تم بناؤهما على الإطلاق. كانا من خشب الأرز، وكانا نسخة طبق الأصل من القوارب السحرية للإله «رع». «معنجت» للملاحة أثناء النهار و«مسكتت» للملاحة الليلية. تمكنت من تصميم ما يحلو لي بفضل الألواح الخشبية ذات المقاييس الهائلة والفريدة التي وضعت تحت تصرفي. أشك في أن خيالكم سيتمكن من تصور النموذج الحقيقي؛ فكان طول جناحيها خارقًا يبلغ ثلاثة وأربعين مترًا ونصفًا، وقوسها بارتفاع خمسة أمتار، ومؤخرة ارتفاعها سبعة أمتار، كلا القاربين كان على شكل ورق البردي. كان كل قارب قابلًا للفك بالكامل ويتألف من ألف ومائتين وأربع وعشرين قطعة مُرقمة، وكلها مثبتة بواسطة وصلة نقرة ولسان ومعززة بحبال القنب السميكة. كان أحد تخصصاتي أيضًا حواف الهيكل المرتبطة من الحافة إلى الحافة ومخيطة معًا لإعطاء مزيد من المرونة للخشب. وضعت كل براعتي ومعرفتي وخبرتي في تصميم هذا المركب وتوءمه.

يقول أبنائي وأحفادي إنني أكرر نفس القصة عندما أخبرهم عن اليوم الذي جاء فيه «خوفو» لزيارتي في حوض بناء السفن. كان وقت العصر وقد انعكس ضوء الشمس الذهبي على خشب مركب الشمس الكبير. كنت قد انتهيت للتو من تجميعه للتأكد من عدم فقدان أي قطعة عندما يتم دفنه في قطع صغيرة في الحفرة المخصصة له، جنوب الهرم. كانت السفينة موضوعة بتوازن على عوارض ثقيلة. اقترب الملك وربت على هيكل المركب كما لو كان يربت على ظهر حيوان أليف، أو بالأحرى عجيزة امرأة. كانت حركة شهوانية مزعجة. مر بيديه على مهل على منحنيات الخشب وخفض رأسه ليشتم رائحته الرائعة. دار حول السفينة لتفقُّد المجاذيف الخمسة التي تشبه نهاياتها الرماح، ثم طلب سلمًا للصعود إلى القارب. بدا فجأة وهو العملاق كما لو كان صغيرًا جدًّا عند قوس المركب. اختفى للحظة في المقصورة التي صممتها داخل القارب. عندما هبط من القارب أوصى بأن يكون الغطاء من الحُصر، وأن يرشها البحارة بانتظام بالماء أثناء الملاحة. لقد كانت عملية تبريد فعالة أثناء الطقس الحار. ثم أشار إلى مساعده الشخصي الذي كان يدون الملاحظات بأقصى سرعة بإيماءة من رأسه ليأتي إليه.

- أنا «خوفو» ملك مصر العليا والسفلى، أهدي كبير النجارين «إنتي-شيدو»، الشهير باسم «الشارب» عشرة أثواب من أجود وأرقى أنواع الكتان من ممتلكاتي الخاصة، ومائة جرة من أفضل أنواع النبيذ من

مزارع الكروم الخاصة بي. بامتيازٍ مَلَكي، أسمح له بعمل طلبية لخمسة تماثيل في الوقت الذي يناسبه، من الخشب أو الحجر الجيري؛ لوضعها في المقبرة التي بدأ في إقامتها في جبانة الحرفيين الجديدة.

لم أكن قد أفقت من هول المفاجأة لأجد، في نفس المساء، رسولًا ملكيًّا يُسلمني صندوقًا خشبيًّا يحتوي على لوازم العناية الشخصية مصنوعة من الفضة وموسى حلاقة محفورًا عليه خرطوشة «خوفو».

لم أحْسِم أمري بشأن السفر دون الحصول على مباركة «حم-إيونو».

– اذهب بسلام يا «عنخ-خاف» ولا تلُمني! سوف تفهم لاحقًا طول السنوات التي تفصل بيننا. صحيح، لدينا نفس الرؤية، وصحيح، نحن مبدعان ومخترعان، ولكن لديك الحياة أمامك. أما أنا، فإذا ارتكبت أدنى خطأ فلن يكون لديَّ الوقت لتصحيحه!

كانت قافلتنا مكونة من أكثر من ثمانمائة حمار تحمل أفرادًا شتى وبضائع وأدوات ومتاعًا كثيرة مختلفة، فقد رافقني «مرر» وبحَّارته، بالإضافة إلى عُمال المحاجر والبنائين والمنقبين عن المياه والمتخصصين في الصحراء والخبازين ذوي الخبرة في تقنية قوالب «بدجا» وصانعي الجِعَة والطهاة والحرفيين والخزَّافين والأطباء والمحاسبين والمتطوعين الشباب والحمَّالين. كنا محاطين بالعديد من الجنود المسلحين الذين كان دورهم حمايتنا في حالة مداهمتنا من قِبل قُطَّاع الطرق البدو الذين كانوا لا يزالون منتشرين في المنطقة ويعيثون فيها فسادًا. حملنا معنا كل ما سنحتاج إليه من زاد، وأجْوِلة الحبوب، والماء، والجِعَة، واللحوم والأسماك المجففة، والخبز طويل الأجل، والفواكه والخضراوات، والأطباق وأدوات المائدة، والأقمشة المُخصصة للاستخدامات المنزلية، والحطب، وأوراق البردي، والحبر والأقلام المصنوعة من البوص، وأيضًا مجموعة أدوات مهمة، مثل المطارق الكبيرة والصغيرة، والمِقصَّات، والمناشير، والشاقول والكوس، وحبال القنب...

كانت استطلاعاتنا الأولية مُشجعة، فلدى وادي الجرف إمكانيات كامنة هائلة؛ حيث كان يقع على حافة البحر الأحمر، على قيعان رملية وبالقرب من عينٍ تفيض بمياه صالحة للشرب. بدأ عمال المحاجر والبناءون في بناء مخيمات من الحجر الجاف، وتم إنشاء منطقة للمخبز ومصنع جِعَة. وكان هناك مطعم مؤقت يعمل بالفعل، وتم تنظيم مهجع مشترك حول نيران المخيمات، به أغطية سميكة. كان لدينا حرية التصرف والاختيار لبناء سد كبير بزاوية قائمة من شأنه أن يوفر لقواربنا منطقة إرساء محمية من الرياح. شعرت وكأنني عدت إلى السنوات الأولى من بناء منشأتنا على هضبة الجيزة وانتقالنا إليها. حدد بحارتنا نقطة إنزال مواتية على الضفة المقابلة في سيناء، بعد سلسلة طويلة من المنحدرات ذات الطبيعة القاسية. أطلقنا –دون أي

مشكلة- أسطولًا صغيرًا رسَوْنا به، لكننا كنا لا نزال على بُعد عدة أيام سيرًا على الأقدام من مواقع التعدين في وادي مغارة. ثم نزل عليَّ الوحي ببناء قلعة في تلك النقطة من شأنها أن تكون بمثابة مستودع للنحاس والفيروز وحصنًا إذا تم شن غارات عقابية ضد البدو. سيسكنها الجنود الذين سيحرسون مواقع التعدين والقرى المحيطة بها والكتبة الذين يتولون سجلات إنتاج المواد الخام.

«إنب خوفو» جدار خوفو، سيكون هذا اسمها.

قررت بصفتي مديرًا لجميع أعمال الملك أن أصادق مع منطقة وادي الجرف على امتداد إقليمي ولوجستي يضمن تزويد موقع بناء الهرم، وكنا سنفتتح خط الإنتاج والدفاع «عنخو خوفو» -وادي الجرف-إنب خوفو.

بمباركة الإله الحي «خوفو»!

الفصل العشرون

الحادث

توقفت عن تكسير الحجارة، ولكنني لم أكن قد حققت أي تقدم في المهنة. وجدت مكانًا كعامل لإنجاز جميع المهام بسبب صغر حجمي وسرعة استجابتي. كان «الفأر» -كما يُطْلِق الجميع عليَّ- دائمًا على استعداد للتسلل هنا وهناك، أسترجِعُ أداة سقطت في حفرة أو فتحة ضيقة، أربط حبلًا، أجلب المياه العذبة لإرواء عطش العمال، أقوم بتغيير فتائل مصابيح الزيت...

في ذلك اليوم كنت خائفًا من الدلوف إلى الجزء الأكثر قداسة من الصرح، قبل غرفة الدفن: البهو الكبير. عندما نظرت إلى أعلى شعرت بالدوار. كان اتساع هذا الصرح يدعو إلى التحليق عاليًا. تذكرت الطيور المخوضة الكبيرة التي تهاجر في الشتاء إلى ضفاف النيل. وددت لو تجسدتُ في واحدٍ منها وحلَّقت نحو اللا نهاية إلى حيث يقود هذا الممر العميق، كما قيل. اتساع هائل قاومه عقلي لأنني لم أستطع تخيله. أعطى السقف المُقوس والمتعدد المستويات انطباعًا بالارتفاع أعلى بكثير من ثمانية أمتار وستين سنتيمترًا. كان هذا الممر العملاق يتكون من ثلمة مركزية حيث تم تخزين الكتل ورُفعت مقاعد مسطحة على الأجناب، تم ثقب تلك المقاعد بنقرات على مسافات منتظمة، وتم تثبيت الألواح عليها. شكلت أرضية زائفة قابلة للإزالة يمكن السير عليها أو استخدامها لسحب العوارض وكتل الجرانيت التي تم نقلها للتو من أسوان بالقوارب، فكانت لا تقل عن مائة قطعة. ستكسو تلك القطع غرفة الدفن البراقة إلى الأبد. كان هناك بهو صغير قبل مدخل غرفة الملك، وكان في الواقع بمثابة قفل ضخم به ثلاثة أحجار إغلاق. بدأ بناء غرفة الدفن التي ستكمن أصالتها في سقفها المُنبسط، الذي يتكون من تسع عوارض أُحادية الكتلة من الجرانيت. وكان مدير جميع أعمال الملك، الوزير «حم-إيونو»، قد صمَّم نظامًا لم يسبق له مثيل مكون من خمس غرف تفريغ لتخفيف وزن الحشو الداخلي للهرم عند الانتهاء من بنائه عن سقف حجرة الملك. كان رئيس العمال يثور غضبًا وهو يُخبر كل من أراد أن يستمع إليه أن هذه الابتكارات المعمارية كانت ضربًا من الجنون وأنه لا يرى حاجة إلى بناء الغرف الخمس، وأن الغرفة الأخيرة وحدها تكفي. استُخدمت فيها تقنية السقف الجمالوني الذي أثبت فاعليته من قبل. كان قلقًا على رجاله من خطر جر الحجارة الأثقل والأثمن في الصرح على ارتفاع أكثر من خمسين مترًا وعلى منحدر بزاوية ست وعشرين درجة. لتعزيز سلامتهم وأمنهم أمر بحفر ثقوب في جدران البهو فوق المقاعد والأرضية القابلة للإزالة. كان العمال سيزلقون فيها ألواحًا خشبية شيئًا فشيئًا أثناء صعود الكتل وستكون بمثابة صمام أمان في حالة حدوث مشكلة أثناء النقل.

تم فحص ومراجعة الزلاجات، والحوامل، والمواضع، والمنحدر، وكل شيء مرتين. تم اختيار أمهر الحمَّالين. كانوا يحافظون على توازنهم من خلال إبعاد سيقانهم عن بعضها البعض كما لو كان عليهم غرز أقدامهم في الأرضية الخشبية مع كل خطوة، وظهورهم منحنية بسبب الجهد، ووجوههم محمرة وعابسة. يجب أن تكون حركة كل فرد منهم متزامنة تمامًا مع حركة رفاقه ليصبحوا كتلة واحدة متلاحمة. كنت أشعر بتوتر رئيس العمال. لقد تغيرت نبرة صوته وهو يصدر أوامره. كان يرسلني عدة مرات ركضًا لجلب جرة ماء أسقطها، وفوطة لمسح وجهه ورقبته؛ لأنه كان يتعرق أكثر من المعتاد، ومصابيح زيتية إضافية، وأدوات صغيرة لم يكن بحاجة إليها حقًّا. في كل مرة كنت أعود فيها بما طلبه مني، كان يكافئني بضربة خفيفة على مؤخرة رأسي، مثلما نفعل لنلاعب كلبًا. وتحولت هذه الضربة الخفيفة إلى صفعة قوية من شدة توتره. وسرعان ما أدركت أنه يتوجس شرًّا، ولكنه كان يطرده ويبعده عن تفكيره كما يطرد صائد الذباب الذبابة. أستمعُ دائمًا إلى ذلك الصوت الداخلي الضعيف، ربما صوت إله صديق، يستقر ويطن في رأسي لزرع الشك. وفي كل مرة، كان ذلك الصوت الضعيف الآتي من مكان بعيد يحميني.

حدث ذلك بسرعة كبيرة لدرجة أنني لا أتذكر سوى صخب يصم الآذان وصرخة واحدة تردد صداها مائة مرة في الممر الحجري. انقطعت حبال القنب وأخذ الحمل ينزلق عبر الأرضية الخشبية بسرعة فائقة مُحَطِّمًا الألواح القوية التي تم وضعها لدرء السقوط المحتمل، واحدة تلو الأخرى. رأيت الزلاجة ودعامتها الجرانيتية التي يبلغ طولها ستة أمتار تندفع إلى أسفل المنحدر، وتلقي بأجساد العمال على الجانبين مثل البعوض المبثوث. كان رد فعلي التلقائي هو الانزلاق في الثُملة المركزية تحت الأرضية القابلة للإزالة على الرغم من رعب البقاء فيها مدفونًا على قيد الحياة أو الموت محطمًا. تعلقت الزلاجة بزاوية بين جداري البهو لتنهي سباقها المجنون وتنقذ حياة شاب ظلت ساقه عالقة تحت الحمل. كان قد فقد وعيه لكنه لا يزال يتنفس.

نجا رئيس العمال، إلى جانب عدد قليل من الحمَّالين الآخرين الذين كانوا على رأس خط السحب. كانوا جميعًا ينادونني بيأس، ليس لأنهم كانوا يخشون على حياتي التي لا قيمة لها، ولكن لأنهم كانوا بحاجة إلى ساعٍ سريع لإحضار طبيب من أقرب وحدة طبية في الموقع.

– «ديدي» الفأر، «ديدي»، الفأر!

♀

ذهب «خوفو» على الفور إلى مكان الحادث، وكان قد طالب بعقد اجتماع استثنائي مع «حم-إيونو»

و«عنخ-خاف». كان واجبي الأول كملكة هو الذهاب لزيارة الناجي الذي تم نقله إلى مستشفى السيدة «بسشيت». فتحت لي الباب متطوعة جديدة وطلبت مني الكشف عن هويتي. لم تصدق أنني كنت الملكة. امرأة حافية القدمين، في سترة عادية، بدون مجوهرات أو شعر مستعار، لاهثة تبكي، لم تكن هذه هي الصورة التي كانت لديها عن الملوك. سمحت لي بالدخول وأجلستني في غرفة الانتظار، وأخبرتني وهي تتظاهر بالاهتمام، أنها ستَرى...

دخلت أول غرفة وكانت نصف معتمة، حيث سمعت فقط آهات وأنينًا. ناداني من بين الأجساد رجل فقد كل أطرافه ولم يتبقَّ منه غير جذعه. قاطعه طبيب وانحنى لتحيتي وانتحى بي جانبًا:

- لا ينبغي أن تتواجدي هنا يا جلالة الملكة، هذه هي غرفة مبتوري الأطراف. والمنظر لا يسُر! إذا لم نقطع أرجلهم أو أذرعهم، أو كليهما، فسيموتون بسبب الغرغرينا الآن -هكذا تابع معتقدًا أنه سيهدئ من روعي إذا أعطاني تفسيرًا- للأسف، لن ينجو سوى عشرة بالمائة منهم إذا تمكنَّا من وقف تقيح جروحهم ومنع انتشار الجراثيم التي تستقر فيها؛ لهذا سنحتاج إلى المزيد من الموظفين. المتطوعون الذين يأتون إلينا من قرية العمال -ومعظمهم من الأرامل اللواتي يعشن على إعانة صغيرة من الدولة- لم يعودوا كافين. يجب تغيير الضمادات يوميًّا. يجب أولًا فصل الضمادات القديمة عن الجروح بعد أن التصقت بها، ولتحقيق ذلك يجب صب الزيت على الضمادات. أغتنم فرصة وجودك هنا يا جلالة الملكة لأطلب منكِ حصة إضافية من العسل؛ إنه مطهر ممتاز ينشط التئام الجروح ونحن ننقع الضمادات فيه، لكن خلال الأسابيع القليلة الماضية أصبح لدينا نقص شديد في العسل.

الرائحة الكريهة للضمادات القيحية التي تنتشر في الهواء جعلتني أرغب في التقيؤ. لقد جئت متضامنة مع الناجي من الهرم لزيارته، وأصبح أمامي عشرات الناجين. تم استدعاء الطبيب إلى غرفة أخرى، وانتهزت الفرصة للاقتراب من الرجل «الجذع». أردت أن أعرف قصته. شعرت بالارتياح الشديد عندما علمت أنه لم يتم توظيفه في موقع البناء الملكي. كان قد كسرت عظامه عندما سقط في قاع بئر الدفن التي كان يحفرها من أجل مصطبة رجل غني. لم يكن يفتقر إلى الفكاهة:

- نموت كل يوم قبل الأوان من أجل بناء المقابر! ويفضل أن تكون تلك الخاصة بالآخرين! أما بالنسبة لي فسوف أُدفن -مثل أسلافي- في حصيرة، داخل رمال الصحراء. على الرغم من أنني عشت حياة أفضل من والدي، فإنني لا أستطيع تحمل تكاليف المقبرة! سيظل لديَّ الحق في الأبدية، أليس كذلك؟

- الأبدية للجميع، قلت بصوت مرتجف كنت أحاول السيطرة عليه. فرعوننا «خوفو» سيُبعث من جديد مع حاشيته وشعبه!

– وهل سأَبعث من جديد، حتى لو لم يكن جسدي كاملًا، أيتها السيدة النبيلة؟

أجبتُ بـ«نعم» غير واضحة؛ لأنني لم أعد قادرة على السيطرة على دموعي.

خفضت رأسي ولم أعد أنظر حولي، واصلت التحرك نحو غرفة أخرى كانت مخصصة للأوفر حظًّا، أولئك الذين كانوا يعانون فقط من الكسور! سيقدرون جميعًا على المشي مرة أخرى، حتى لو كان ذلك باستخدام عكازات أو عصي أو حتى بعرج بسيط. كانوا مستلقين في أراجيح نوم قماشية معلقة في عوارض السقف. كانت أطرافهم مُثبتة في جبائر مكونة من لوحين خشبيين خفيفين مربوطين بإحكام بشرائط من الكتان. يعزلهم سِجاف كبير عن غرفة أخرى كان من بها منهمكين في العمل، وحيث كنت أسمع صوت السيدة «بسشيت». كانت تشرح لأشخاص رأيت ظلهم من خلف السِّجاف أنها ستضطر إلى بتر ساق المريض تحت الركبة، وإلا فإنه سيموت من التعفن الداخلي في غضون أيام قليلة. أزحت الستار لأجد نفسي في غرفة العمليات! حيث استقبلتني كبيرة الأطباء. استدار المريض نحوي. كم كان صغيرًا، يكاد يكون طفلًا! فكرت على الفور في أخي «ديدي». كنت أعرف أنه نجا، وأنه لم يكن ضمن الحَمَّالين، لكن ظلت تسيطر عليَّ فكرة أنه كان يمكن لأخي أن يكون هو مكان هذا المراهق! كان يوجد على صينية وعاء يحتوي على كحول التمر المُخمَّر، اعتقدت أنه مطهر قوي.

– إنه لتخديره يا مليكتي، أوضحت السيدة «بسشيت»؛ حتى
لا يتذكر أبدًا ما سيَحِل به.

وضعنا الماء ليغلي على موقد صغير. على قطعة من الكتان النظيف وُضع سِكِّين من الحجر ومنشار قصير من النحاس. طلب من حارسين عملاقين ككلاب الحراسة الضخمة التراجع للخلف. كان عليهما السيطرة على المريض طوال مدة العملية. كانوا قد أعدوا عصًا خشبية مغطاة بقطعة قماش ليقبض عليها المريض بإحكام بين أسنانه، بكل ما أوتي من قوة.

كانت السيدة «بسشيت» قد أحاطت ضفيرتها الطويلة بوشاح من الكتان شَدته بإحكام على رقبتها. كانت قد ارتدت مئزرًا جلديًّا حاميًا مثل الذي يرتديه الحدادون. كانت تقوم بإيماءات بطيئة ودقيقة. بعد غسل يديها بالماء المغلي، قامت بعمل شق فوق الركبة بأداة من الصوان الناعم. كان ما تبقى من الساق في حالة يرثى لها ويمكن رؤية حطام العظام بارزًا في عصيدة من اللحم. كانت القدم قد انفصلت تمامًا عن المفصل ومتدلية مثل الدمية. استخدمت المنشار لبتر الساق، وبدأ الشاب ينتفض ويتخبط محاولًا الإفلات من شدة الألم. تم تخديره بشكل نهائي من خلال ضربة على رأسه سددها له أحد المساعدين الجراحين، أفقدته الوعي. كان الصوت الأخن للمنشار تعذيبًا في حد ذاته. قالت السيدة «بسشيت» لزميلها الذي لم يكن تلميذها:

– كما ترى، جمعت العضلات الأمامية من الفخذ مع العضلات الخلفية. أترك لك مهمة الخياطة الآن، حاول أن تجعل هيئة الجَدَعة مقبولة، ستراقب الجرح بعناية وتنظفه بانتظام يوميًّا لمنع الديدان آكلة الجيَف من القيام بعملها القذر.

خرجتُ إلى العراء.

كان المنظر رائعًا يطل على موقع بناء الهرم من فوق النتوء في الجبل حيث تم بناء المستشفى. أكوام من الحصى حسنة الترتيب ومجموعات بشرية تعمل بهمَّة. من الأعلى، بدَوْا مثل النمل. قاموا بجَرِّ عربات ثقيلة تحت وطأة الحرارة والغبار الذي ترك هالات من حولهم. التصفيق بالأيدي وأغاني رؤساء العمال ضبطا إيقاع العمل وساعدا في إسراعه على مسارات الجرِّ. إلى جانب أصوات أنفاسهم اللاهثة ارتفع نهيق الحمير المحملة بقِرَب المياه العذبة التي يتم توزيعها على العمال على مدار اليوم. من بعيد، داخل ضباب أصفر كثيف، يمكن رؤية محاجر الحجر الجيري العالية. استشعرت شكوى الصخرة التي انفصلت عن الجبل وسمعت صرختها عندما ألقتها الرافعات فوق العربات الخشبية. في بعض الأحيان كان هناك صراخ عالٍ واضح يمكن تمييزه بسهولة. فكنت أتخيل رجلًا سحقه حجر أو سقط من فوق سقالة غير مثبتة جيدًا. لا يعاني كل البشر بنفس الطريقة. الأصغر والأقل خبرة خاطروا بحياتهم. إذا نجوا فسوف يسيرون بظهور محنية، وعمود فقري مضغوط، ورُكب محطمة بسبب الأوزان الهائلة التي جروها. أما الآخرون فكانوا يصدرون الأوامر فقط، ويراقبون، ويحصون، ويرسمون التصميمات والنماذج. في الوقت نفسه، شرح لي «ديدي» ذلك ألف مرة، كان هذا المشروع مغامرة حياتهم كلها! لم يعودوا حمَّالين ولا عِمالة ولا عُمالًا لجميع المهام؛ كانوا مساعدين للإله «خوفو–رع» وكانوا يشيدون صرحًا لمجده، وهو ما أسماه زوجي الملكي بكل إجلال وفخر نظام الماعت الاجتماعي؛ أن يتماسك شعب بأكمله بحيث يضع كل فرد منه حجرًا في الصرح المشترك. ولنجاح مثل هذا الاتحاد كان من الضروري إلى جانب البيروقراطية المنظمة، تحقيق ما ليس لأحد بسلطان عليه: الإيمان والحب. لأول مرة شككت في الرجل الذي أحببته وأعجبت به. هل سيكون هرمه، الذي نما وارتفع بشكل كبير حتى لامس السماء، وحشًا أم تحفة فنية؟

سيكون قبره أم مقبرة شعبه؟

بالتأكيد سنكون –نحن المصريين– دائمًا الأوائل في كل شيء! كان بناة هرمي قد اخترعوا للتو مفهومًا أطلق عليه الكاتب الملكي «إضرابًا». كانوا قد تجمعوا في هضبة الجيزة ليعبروا لرؤسائهم عن عدم ذهابهم إلى

العمل اليوم؛ لا داخل الهرم ولا خارجه. كانوا متضامنين مع العمال الذين لقوا حتفهم في اليوم السابق في الحادث المروع الذي أودى في الواقع بحياة ثلاثين منهم. وقفوا تضامنًا مع الشاب الذي بترت ساقه ولم يُعرف بعدُ ما إذا كان سينجو أم لا. كانوا متضامنين مع جميع ضحايا الحوادث الذين عرَّضوا حياتهم للخطر على مدار خمسة وعشرين عامًا. اختارت كل مجموعة مهنية ممثلًا للتحدث نيابة عنها، والذي ستراقبه شرطتي من الآن فصاعدا. هؤلاء، الذين لم يعرفوا شيئًا عن الهندسة المعمارية أو حساب الضغوط والكتل، لم يعودوا يؤيدون الإنجازات المعمارية المبتكرة التي من شأنها أن تجعل صرحي الأكثر تفردًا وتعقيدًا في العالم. هرمي العظيم أصبح يخيفهم. كانوا يَضِلّون طريقهم في ممراته وآباره وغُرفه التي تم بناؤها ثم هجرها وفقًا للبعض. كانوا مذعورين. رفضوا رفضًا قاطعًا وضع السقف المسطح لغرفة الدفن، كما طالبوا بالعمل في ظروف تأمينية أفضل. لقد أرادوا أن يتم تعويضهم عن المخاطر التي يواجهونها، وطالبوا بتعويض مُجزٍ لأسر الضحايا. الآن بعد أن عاش عمالي، المؤقتون والدائمون، والعِمالة والمتخصصون على حساب التاج، والآن بعد أن ذاقوا طعم الراحة والرفاهية؛ أصبحوا يفكرون في غير لقمة العيش. لم يعد يكفيهم أن يعيشوا حياة كريمة، بل أرادوا أن يحددوا ثمنًا لهذه الحياة، كما نقوم بتسعير السلع. ومن المؤكد أن هذه ستكون نقطة خلاف جديدة. كم يمكن أن تساوي حياة؟ وهل لكل الحيوات نفس الثمن؟ هل كانت المساهمات الضرورية لعمل الدولة للعامل والعامل الماهر، والمزارع، والنحات، والرسام، والجندي، والكاتب، والوزير.. قابلة للمقارنة؟ كم يمكن أن يكون ثمنها؟ وكم ستدر على الدولة في المقابل؟

من الناحية الحسابية، بالنظر إلى أن العامل يعيش في المتوسط أربعين عامًا، وأنه كان منتجًا في ذروته من عمر الثمانية عشر إلى عمر الثلاثين عامًا؛ فقد قررت تعويض أسر المتوفين الثلاثين براتب خمسة عشر عامًا، تُدفع سنويًّا. كما سيحصلون، كتبرع ملكي، على الطوب اللبِن اللازم لبناء قبر داخل أسوار قرية العمال ولوحة جنائزية من الحجر الجيري القادم من الجيزة ينقش عليها اسم المتوفى. سيحصل الشاب المبتور –الذي أصبح مصدر إلهام حقيقيًّا لما يجب أن يسمى «حركة اجتماعية»– على راتب مضاعف حتى وفاته، وسأحرص على حصوله على منزل صغير في قرية العمال حيث يمكنه الاستقرار مع عائلته.

تم حملي في المحفَّة في هضبة الجيزة مرتديًا التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى. تجملت كما لو كنت ذاهبًا لحضور وليمة سفراء واخترت أن أرتدي الصدرية الأثقل والأكثر بريقًا. كان لا بد أن أُبهر الحشد دون أن أفقد هيبتي وهيمنتي، وقفت بأذرع مفتوحة واسعة كما لو كنت أرحب بهم جميعًا في حضني، وجهت هذا الخطاب المقتضب إلى العمال وممثليهم:

– «أنا، «خوفو»، فرعون مصر العليا والسفلى، أعلم تمامًا ما قمتم به من أعمال عظيمة؛ لهذا السبب دعوتكم إلى تشييد أكبر صرح في العالم: هرمي. هذا المشروع، مثل بقية مجمعي الجنائزي، يتطلب القوة

والذكاء، وهو ما أظهرتموه أنتم وأبناؤكم على مدار ربع قرن. لكنه يتطلب أيضًا التضامن والترابط مع ملككم. لقد جعلت العديد من الرجال يعملون لراحتكم: الصيادين والخبازين والجزارين وصانعي الجِعَة. كانت بطونكم ممتلئة دائمًا. بنيت لكم قرية حتى تتمكنوا من العيش بشكل مريح مع عائلاتكم. لقد منحتكم الامتياز الملكي لامتلاك مقبرة. لقد فعلت كل هذا من أجلكم لتزدهروا وتجتمعوا على العمل من أجلي. أنتم نخبة مملكتي. هذا الهرم الفريد من نوعه في العالم، والذي ستكملون بناءه، سيشهد على قوتي بقدر ما يشهد على تميزكم على مدى القرون القادمة. به ستفتح لكم أبواب الأبدية».

كان خطابًا منمقًا، ولكن الناس تحب هذا النوع من الخُطب!

كنت قد فوضت للكاتب محاسب الرواتب الإعلان عن مضاعفة رواتب جميع بناة الهرم على الفور، وهو الأمر الذي حقق الغرض المطلوب.

في اليوم التالي، أعيد فتح موقع البناء.

أما بالنسبة للشاب المبتور، فلم يكلفنا شيئًا. توفي بسبب تفشي الغرغرينا في جسده في أقل من أسبوع. كان يتيمًا ولم تكن تُعرف له عائلة.

الفصل الواحد والعشرون

السباق نحو الخلود

حدد لي أخي «بانب» موعدًا في مكاتب التصميم الجديدة الخاصة به في موقع استراتيجي على مقربة من الميناء. كان مكانًا سهل الوصول إليه وقريبًا من مستودعات المواد الخام. كانت أعماله تتوسع بمعدل غير مسبوق؛ فمنذ أن سمح «خوفو» لأفراد حاشيته ببناء مقابر بجوار هرمه وهم في سباق محموم للبناء. أوضح لي «بانب» -الذي كان يحب استخدام لغة عصرية- أن نجاحه مَرجِعُه إلى أنه مقدم خدمات يلبي احتياجات جديدة. اختار الأغنياء بالإجماع الحجر لبناء مصاطبهم، فهي مادة قيمة وصلبة، أما بالنسبة للزخرفة فطلبوا أن تكون مماثلة للهرم تمامًا، واختاروا حجر طرة الجيري. أطلعني «بانب» على رسم تصميم لمدينة جديدة: الجبَّانة بشوارعها الضيقة التي تتقاطع بزوايا قائمة. كانت فقط منطقة المقابر الغربية هي ما يهمه، تلك المخصصة لكبار المسئولين الراغبين في إنفاق ثروات على قبورهم. كانت المقبرة الشرقية مخصصة لأفراد العائلة المالكة الذين لن يتعامل معهم، بطبيعة الحال. لقد ترك أخيرًا مواقع بناء مقابر العمال، والتي لا تمثل -وفقًا لمعاييره- سوى سوق صغير جدًّا غير مربح على الإطلاق.

- الكبرياء والغرور البشري لا نهاية لهما، وهذا هو أساسًا ما أغتنمه وأستغله في عملي: تحقيق نفس التدرج الاجتماعي في الموت كما في الحياة. يُقدر ثراء وذيوع صيت صاحب المصطبة بعدد الغرف المبنية وجودة الزخارف، ولكن أيضًا عدد التماثيل الجنائزية. نحن نقوم، بشكل أساسي، ببناء مقابر عائلية بها العديد من غرف الدفن، مما يُلزم أصحابها بتكاليف هائلة حتى اليوم الفعلي لوفاتهم. نشجع عملاءنا على الدخول في معركة شرسة لتوظيف أفضل الفنانين. يجب أن أعترف أنني اضطررت إلى رشوة النقاشين ورسامي التاج، عدة مرات، لكي يعملوا معنا في أيام عطلتهم! النبلاء نجوم في مقابرهم. إنهم يعيدون بناء العالم لصالحهم بالنساء والأطفال والخدم. هم أبطال الصيد وصيد الأسماك في حكايات تم تأليفها من أجلهم. يجلسون أمام طاولات مليئة بأغلى الأطباق اللذيذة. إنهم على استعداد لإنفاق ثروات طائلة لتخليد هذه اللوحات الرائعة على الجدران حيث سيكونون جميلين إلى الأبد وأحياء إلى الأبد!

بدا لي تأويل وتفسير «بانب» للقبر الذي هو بيت الأبدية، تدنيسًا للمقدسات. إذا وافقته الرأي في التحليل النفسي الفج الذي قام بعمله للنبلاء والأغنياء، فما زلت أرفض قسوة حكمه وأسلوبه الساخر والوقح، لكنني شعرت بالارتياح لأنه عاد إلى الطريق الصحيح. أصبح الماضي منسيًّا. كان هذا دليلًا حيًّا على أنه حتى الأولاد السيئون يمكنهم التوبة والتكفير عن أخطاء الماضي. لقد أصبح صاحب عمل محنكًا وذا خبرة. وتابع

«بانب» كما لو كان يقرأ أفكاري:

– مشروع مثل مشروعي هذا –لاحظت أنه غالبًا ما ينسى ذكر شريكه الأكبر، «إيدو»– يتطلب مبلغًا ماليًّا نقديًّا كبيرًا. علينا أن نعيد الاستثمار على الدوام، الأدوات تُستهلك سريعًا ويتعين علينا استبدالها، ناهيك عن تلك التي تُسلب منا، حتى ونحن نراقب مستودعاتنا عن كَثَب. اشتعلت أسعار أصباغ الديكور وارتفعت أجور الرسامين الزخرفيين بشكل سريع ومفاجئ من جراء المنافسة. أما بالنسبة للحجر الجيري الناعم والأحجار النادرة فأنا سعيد لأنني وفرت مخزونًا جيدًا منها؛ لأن أسعارها أصبحت الآن باهظة بشكل فظيع!

– وأنت يا أخي، هل ستفكر قريبًا في بناء قبر لنفسك؟

– نعم يا أختي، وسيكون هرمًا مثل هرمك! هكذا قال مازحًا.

ذهبت كالعادة إلى القرية برفقة «بابا» المُخلص. كان يتقدم في السن ويتسلق التل بصعوبة، لكنه حرص على عدم إظهار ذلك. كان يتظاهر فقط بالرعي أو الشم في زاوية من الطريق مما سمح له بالتقاط أنفاسه. كشفت ابتسامته عن أسنان كبيرة ليُفهمني أنه وافق بكل سرور على أن يبشم من العلف الذي يملأ الحوض المتروك تحت تصرفه عند مدخل القرية. كان يحظى بشعبية كبيرة، فكانت الأطفال تأتي لتهتف باسمه وتربت على ظهره. بينما كانوا يتجاهلون زملاءه الذين يجوبون الأزقة بهوان ورضوخ، محملين بأطنان من البضائع مثل كل الحمير المُستَضعَفة. كان وضع «بابا» قد تغير منذ فترة طويلة: أصبح جزءًا من العائلة المالكة، وكان معشوقًا على هذا النحو.

في الواقع، لم يتخل «إيدو»، مدير أخي، عن بناة الهرم أو عن أي من أولئك الذين شاركوا بقدر ضئيل أو من بعيد في موقع البناء. لقد أوفى بوعوده وكان يساعد أهل القرية في بناء المقابر التي سمح لهم بها الفرعون. سرعان ما اكتشفتُ أنهم ساعدوه أيضًا بشكل كبير في تشييد قبره الذي كان الأكثر إثارة للإعجاب على الإطلاق. اتخذ شكل مصطبة، وكان يمكن الوصول إليه عبر طريق صاعد! كان شبيهًا بالطريق الصاعد بمجمع «خوفو». وحتى يرمز إلى المعبد الجنائزي الذي لم يكن يمتلكه وضع حوض إراقة على الجدار الشرقي لقبره. استطاع أن يحصل على لوح باب زائف والعديد من التماثيل من الحجر الجيري المطلي، خصيصًا لسردابه. تم تصويره على الجدران واقفًا بحجم بطولي مثل الأعيان الذين كان يحاول محاكاتهم. كانت زوجته تصل بالكاد إلى ارتفاع ركبته! تم تصوير ابنه بضفيرة الطفولة واضعًا يده على فمه. ومع ذلك، لم يكن لدى «إيدو» أبناء ذكور، كان لديه فتيات فقط؛ لهذا السبب دخل في شراكة مع أخي «بانب». فلماذا الكذب، خاصة في قبره؟! على العكس من ذلك، حرص أصحاب المقابر الآخرون على تمثيلهم جنبًا إلى

جنب مع زوجاتهم، ليس في أوضاع جامدة ومتصنعة ومفتعلة، ولكن بالإيماءات الطبيعية والرقيقة للحياة اليومية، واقفين أو جالسين، متساوين في القامة، يمسك بعضهم البعض من الخصر، أو الذراع، أو الرقبة، متحدين بحميمية إلى الأبد.

كان لدى «إيدو» تابوت على الرغم من أن إمكانياته المادية لن تسمح له بتحمل تكاليف المحنطين. كان مصنوعًا من خشب الجميز، الذي من شأنه أن يضمن له حماية الإلهة «حتحور»، سيدة الجميز. كان قد قايضها من جاره في المقابر، «النجار» مقابل عدة أيام عمل في أعمال البناء.

كان لدى «إنتي-شيدو» أيضًا مصطبة مصنوعة بشكل كلاسيكي. منذ أن عهد إليه «خوفو» ببناء ثلاثة قوارب جنائزية أخرى، حصل على أجره في صورة دفعات من الحجر الجيري الناعم من طرة، والذي استخدمه لتزيين الجدران الخارجية للمقبرة. كان الوصول إلى قبره يتم أيضًا عبر طريق طويل صاعد، محاط بجدران منخفضة من حجر الحقول والطين المحلي. تم تجهيز السرداب الخاص به لاستقبال خمسة تماثيل حصل عليها كهدايا ملكية. وضعت التماثيل في كبوة تم بناؤها خصيصًا لهذا الغرض داخل السرداب، وكانت تلك التماثيل تُمثل «إنتي-شيدو» في مختلف الأعمار. كان قد تأكد من أن شاربه الأسطوري قد تم رسمه بعناية خاصة على كل واحدٍ منها.

فوجئت بأخي الأكبر «بدجا» في المنطقة، حيث كان هو الآخر يقيم قبرًا عائليًّا مصنوعًا من الحجر الجيري. كان فخورًا وهو يريني الابتكارات التي صنعها في مقبرته. كان «بدجا» إنسانًا عمليًّا بشكل أساسي. لقد نظم مقصورته لتكون مُرحِّبة ومُريحة قدر الإمكان؛ من أجل تشجيع الأجيال القادمة على القدوم لزيارته وتقديم القرابين الجنائزية له. كان هناك دَرَج يؤدي إلى السطح حيث توجد شرفة جميلة مرتبة تسمح للزوار بالطبخ بسهولة في أجواء لطيفة ورحبة. وفي حالة ندرة الزيارات -على الرغم من كل جهوده المبذولة- فقد جعل صديقه الخزاف يصنع من الخزف المطلي أرغفة كبيرة من الخبز من شأنها أن توحي بوجود طعام حقيقي ربما يُمكن أن يُطعم الـ«كا» بطريقة سحرية. كان يميل لورش عمل الخداع البصري التي وفرت نماذج من القرابين من جميع الأنواع: الإوز، والبط، والأطباق وأدوات المائدة الثمينة بكميات كبيرة. بضربة فرشاة ماهرة، ومقابل رسوم زهيدة، يُصبح الفخار الرخيص جرانيت ثمينًا أو كالسيت أو ديوريت أو بازلتًا أو مطليًّا بالمينا الزرقاء.

تركني على عجل للذهاب إلى ورشة النحت الجنائزي التي افتُتحت مؤخرًا في القرية. كان غاضبًا لأن أحد المتدربين أفسد كتلة الجرانيت التي عُهد بها إليه ليصنع منها تمثالًا يمثله وهو يمشي في عظمة وجلال. كان تمثاله -ويا للأسف!- يُقدم الساق اليمنى على اليسرى، بدلًا من العكس كما هو مفترض بموجب الاتفاقيات الفنية والجنائزية!

واصلت التجوُّل في هذه الجبَّانة المُخصصة لرؤساء العمال والمسئولين من جميع المشارب: مدير الرسامين، مدير الأملاك، مفتش الحرفيين، مفتش النحاتين، مفتش جر الأحجار، مشرف المفروشات، المشرف على صانعي المقابر، مشرف الخبازين، كلهم ينتمون إلى نخبة القرية. كانوا يتنافسون -مثل نبلاء مقابر الهرم- للحصول على المبنى الأكثر روعة وإبقائه بعيدًا عن متناول اللصوص؛ ولهذا الغرض نقش كاهن وكاهنة حتحور صيغ لعنات رادعة للغاية عند مدخل قبرهما: «من يدخل هذا القبر ليرتكب الشر، فليهاجمه التمساح في الماء، والحية فوق الأرض، وفرس النهر، والعقرب، والأسد...».

من الغريب أنه كلما اقتربتُ من الجبَّانة السفلية، قزمت أحجام المقابر. قام الحمَّالون والحجَّارون والأرامل اللائي فقدن أزواجهن في حوادث مروعة، ببناء هياكل صغيرة تضم مقصورات صغيرة جدًّا لدرجة لا تسمح لأحد بالوقوف بداخلها. استخدموا دون تمييز إما الطوب اللبن أو أحجار الحقل. في بعض الأحيان كانوا يدمجون في ركيزة البناء قطعًا من الصخور القَيِّمة، والنفايات من الموقع الملكي، والتي اعتقدوا أنها ينبثق منها جزء من أُلوهية الفرعون.

زيارة هذه المقابر سببت لي حزنًا ومرارة وألمًا. لقد وجدت نفس التفاوتات الاجتماعية، ونفس التمييز والفصل العنصري، تمامًا كما هو الحال في الحياة اليومية. وكان هذا بالتحديد ما حاربته كثيرًا. غضبتُ من نفسي على إصراري وإلحاحي الشديد على «خوفو» لمنح البنائين وغيرهم في الموقع الحق في الحصول على مقبرة. بدلًا من توليد مشاعر التعاون والتعاطف؛ أثار هذا الامتياز الملكي مشاعر الغيرة، والحقد، والعداوة، والبغضاء. استدان الفقراء لبناء مقابر يرثى لها، كان يمكن لضربة من حافر «بابا» أن تطيح بها! وكانت ثروة «إيدو» اللطيف تتضاعف على حسابهم من خلال إقراضهم بالربا وتهديدهم وعائلاتهم إذا لم يسددوا في الوقت المحدد. شعرت بالمسئولية عن هذا الفشل الذريع؛ بسبب أفكاري الجميلة والسخية عن الخلود للجميع! أحسست براحة وأنا أقول لنفسي إن ترك ذكرى طيبة والبقاء في ذاكرة الناس كان أهم بكثير من امتلاك قبر فاخر. وفي هذا الأمر يتساوى الأغنياء مع الفقراء أخيرًا!

♀

كان شرفًا لي في كل مرة أذهب فيها إلى ورشة النحت الملكية؛ المكان ذاته الذي جاءت منه مئات الروائع التي كلف بها «خوفو» لمعابده المختلفة، أشهر الرسامين والنحاتين يعملون هناك. عاش هؤلاء الناس في طوائف، وكانت أسرارهم بينهم ولا ينقلونها إلا من الأب إلى الابن، وقد ساعدهم فنيون عظماء مثل أُسطى «النظرة» الذي كان يُرصِّع موضع العين في التماثيل بعين من البلَّور تحاكي النظرة الحقيقية، أو أُسطى المعجون المُلون، وهو خزَّاف كان يُجيد تمامًا تصنيع الأصباغ غير القابلة للذوبان في الماء ويتقن طريقة الترصيع

المُتَجزِّئ. أن يقوم فنان ضواحٍ بنحت تمثال لك، هذا شيء، وأن يقوم بنحته أحد الأسماء الفنية العظيمة، هذا شيءٌ آخر تمامًا؛ تلك الأسماء التي يمكن التعرف عليها بين الآلاف، والتي هي محل الاحترام والإعجاب. هؤلاء الناس، مثلهم مثل الفرعون، يُحققون الماعت بشكل يومي؛ لأنهم ينتجون أعمالًا متناغمة ومتناسقة، يُعجب بها الجميع، حتى من هم دون ذلك اطلاعًا وعلمًا.

إنهم يشاركون في جمال العالم الذي بدونه ينهار الكون نفسه. في ورش العمل هذه لا شيء يُعَدُّ مُكتسبًا أبدًا لأن الجميع كانوا يدركون عدم قدرتهم على تحقيق الكمال، ولكنهم أرادوا الاقتراب منه قدر الإمكان. خلق هذا الواقع حالة من المنافسة الجميلة. كان النحاتون أيضًا آلهة خالقة، فكانت الحياة تَدُب في تماثيلهم عندما يتم تقديسها، قبل وضعها في معبد أو مقصورة جنائزية، من خلال طقس فتح الفم، بنفس الإيماءات التي تم إجراؤها أيضًا على الموتى حتى يتمكنوا من التنفس والأكل والسماع والرؤية إلى الأبد.

تم استقبالي باحترام كما تقتضيه ألقابي العديدة والمكانة التي أحتلها مع الملك: «برني-عنخو»، الشخص الذي يُسعد قلب جلالته كل يوم، مدير جميع أقزام القصر، رئيس خزانة الملابس، مُهرج وراقص الملك. كنت، مثل والدي من قبلي وابني «سنب» من بعدي، «محبوبًا من قِبل الملك». إذا كانت هناك سلالات من الفراعنة، فهناك سلالات من الأقزام. نجلب الحظ السعيد؛ لذلك لا غنى عنا في النظام الملكي. تقديرًا وشكرًا لخدماتي المُخلصة أعطاني الملك كتلة من البازلت الأسود الصلب لنحت تمثال سأضعه في المصطبة الخاصة بي في الجبَّانة الغربية. كان شرفًا عظيمًا أن أدفن في ظل هرم الشمس «خوفو»! وكان هذا بفضل الوظيفة شديدة الحساسية التي شغلتها. ليس من السهل، صدقوني، أن تعيش في حميمية الملك وأن تُبقي وتحافظ على اعتدال مزاجه، شهرًا تلو الآخر، عندما يتعين عليه مواجهة وحل مشاكل مهولة لا حصر لها بشكل يومي. إذا كان الفرعون هادئًا فسوف يدير شئون المملكة بشكل مختلف كثيرًا عما لو كان متشائمًا وكئيبًا، كما أنه لن يتخذ أيضًا نفس القرارات؛ لذلك ألعب في الظل دورًا سياسيًّا لا يقل أهمية عن الدور الذي يلعبه وزراؤه. «خوفو» مقتنع بهذا، ومن باب السخرية -لديه حس فكاهي عالٍ- سمح لي بالوقوف أمام نحات تمثالي ومعي رموز الملكية المُصغرة التي أعطاني إياها والده «سنفرو» ذات مرة: عصا القيادة والصولجان.

لأول مرة، أجدُ نفسي في ورشة النحت بحضور عملاقَي المملكة، مديري جميع أعمال الملك: «عنخ-خاف» و«حم-إيونو». لقد بدوَا مندهشين مثلي، ومن تعبيرات وجهيهما فهمت أن وجودي بينهما كان مزعجًا وغير مناسب. كانا أعظم أستاذين في مدرسة الفنون الواقعية الجديدة في «عنخو خوفو» مسئولين عن نحت تماثيلهما. وكان من سيتولى أمر تمثالي متدربًا موهوبًا للغاية درس الفنون الجميلة الأكاديمية. أعترف أنني شعرت بخيبة أمل كبيرة للوقوف أمام متدرب، حتى لو كان متوقعًا له مستقبلًا باهرًا وأنه سُيصبح فنانًا

عظيمًا يومًا ما. في الوقت الحالي لم يكن هكذا بعد، وكان عمله، في رأيي، لا يتعدى مرحلة المسودات. علاوة على ذلك إذا نظرت إلى تمثالي، الآن بعد أن تم الانتهاء منه، ستفهم ما أعنيه. مثلني النحات جالسًا على مقعد بدون مسند ظهر، وأبدو وكأنني مدكوك أكثر مما أنا عليه في الحقيقة، إذا كان هذا جائزًا أصلًا! وكانت رقبتي محشورة بين كتفيَّ، وساقاي عريضتين وممتلئتين وقصيرتين بشكل واضح، وقدماي مفلطحتين. كانت عضلات نصفي العلوي مُتقَنة، كان يمكن رؤية عضلات صدري منحوتة. تحت شعري المستعار القصير المجعد، يمكنك تخمين -مجرد تخمين- روحي المرحة؛ لأنه ببساطة جعل تعبيرات وجهي تبدو جامدة وغير مُعَبِّرة. كنت أحادث نفسي مواسيًا بأن تمثالي سيبدو أكثر حيوية بمجرد أن يتم رسمه. سيكون شعري كستنائيًّا، وستكون قزحية عينيَّ بيضاء بحدقة سوداء، وسيبدو مئزري بلون الكتان الطبيعي، لافتًا أكثر بإضافة حزام أنيق. لن يكتمل التمثال حتى يتم نقش اسمي وألقابي عليه. وبما أن كاتب التسجيلات كان مريضًا، فحل محله متدرب متمرس وجدير بالثقة. بينما كان منشغلًا بالنسخ في اجتهاد ويخرج لسانه وهو يُردد: «برني-عنخو، من يُسعد قلب جلالة الملك كل يوم»، ولم أعد بحاجة للبقاء جالسًا على وضعي، انتهزت الفرصة لأختلس النظر جانبًا.

كانت تماثيل «حم-إيونو» و«عنخ-خاف» شديدة الإتقان بالفعل. كانوا على حق في اختيار أسلوب الواقعية المفرطة الذي برع من خلاله النحاتون في جعل النموذج المنحوت في الحجر الجيري شبه حي. وعندما يتم الانتهاء من رسم التمثال، يكون التأثير دائمًا مذهلًا ويكاد يكون التمثال حقيقيًّا أكثر من الشخص نفسه.

قام «حم-إيونو» ببناء مصطبة مهولة، على الطراز الكلاسيكي الضخم الذي يُحاكي القصور بجدران ذات نتوءات مثل سياج القصر الملكي. كان سيضع هذا التمثال في السرداب الخاص به داخل مقبرته. تم تجسيد سمنته، ولحمه المترهل، وصدره الطري والمتدلي، وساقيه السمينتين والضخمتين بشكلٍ رائع. تم تعزيز نظرته التي تشبه نظرة النسر باستخدام تقنية ترصيع العين بالصخور البلورية. إذا حدقنا فيه، كان يبدو وكأنه يتبعنا بعينيه. كان شيئًا مرعبًا! تكريمًا لوالده، المهندس المعماري العظيم «نفر-ماعت» الذي استخدم هذه التقنية لأول مرة في مصطبته في ميدوم، طالب بنقش ألقابه العديدة ثم ترصيعها بعجينة ملونة مطلية بالمينا. ما الرسالة التي كان ينوي توجيهها للأجيال القادمة بهذا التمثال المهيب والمتطابق مع الطبيعة شكلًا وحجمًا؟ بدا قاسيًا وحازمًا واستبداديًّا مثل الأشخاص الذين يعانون من أعباء ثقيلة. كان يدعو للاحترام وللخوف معًا.

لسنوات عديدة، أثبت الأمير «عنخ-خاف» مدى بُعد نظره وصواب رؤيته. كان دائمًا يترقب ويبحث عن التقنيات الحديثة ومصادر جديدة للإلهام. وهكذا تمكن من اكتساب صداقة وإعجاب «خوفو»، لدرجة أنه

بنى لنفسه المصطبة الأكثر ضخامة والأكثر إبهارًا وإثارة للدهشة في الجبَّانة الشرقية، والتي بلغ حجمها ضعف حجم مقبرة «حم-إيونو». تم تشييدها على نتوء يطل على منطقة ميناء «عنخو خوفو» بأكملها. بدا وكأن «عنخ-خاف» أراد أن يراقب، بعد الممات وإلى الأبد، الميناء الذي أنشأه هو وبنيته التحتية ومنشآته المائية.

تم تسليم تمثال السرداب بالفعل. كان قد انهمك في الوقت الحاضر في ابتداع أسلوب جديد في النحت في الجبَّانة: التمثال النصفي. سيتم وضعه على الأرض، أمام لوحة الباب الزائفة مباشرةً، وسيعطي الإيحاء بالخروج من الأرض. لقد كلَّف الفنانين بنحت تمثال نصفي له بوجه واقعي ومُعبر يكاد يكون طبق الأصل. كانت ذراعاه ممدودتين، وكفاه مبسوطَتين لأخذ القرابين التي سيحضرها الزوار له بالتأكيد. بدا وكأنه طيف دبت فيه الحياة.

قطع تأملي المُتطفل صراخ حاد مكتوم وفرسان مذعورون في فناء الورشة.

تمكنوا أخيرًا من القبض على رسول كان يركض نحو القصر الملكي.

- غرفة الملك تتشقق. الهرم سينهار!

فوجئ النقاش الناسخ الذي كان ينحت ألقابي على قاعدة تمثالي لدرجة أنه تركه يسقط على الأرض؛ مما تسبب في انقسام الجزء الخلفي من المقعد الذي كنت ممثلًا عليه. وكنت أظن أن البازلت غير قابل للكسر! أكد لي أنه سيتم سد الفاصل بسهولة وأنه عندما يتم طلاء التمثال بالكامل لن يلاحظ أحد شيئًا.

نهض «حم-إيونو» و«عنخ-خاف» واندفعا كرجلٍ واحدٍ نحو باب الخروج.

عندها أدركت حقًّا معنى ما سمعناه للتو:

- غرفة الملك تتشقق. الهرم سينهار!

الفصل الثاني والعشرون

غرفة البعث

كنت قد اختليت بنفسي ولجأت إلى مكتبي الخاص لأنعم بالهدوء في نهاية فترة ما بعد الظهر.

أردتُ فحص ومراجعة جميع الترتيبات الجنائزية الخاصة بي بأدق تفاصيلها، بدءًا بالقائمة الدقيقة والمُرقمة لقطع الكنز التي سآخذها معي إلى قبري. تم إحصاء ورسم ووصف بالتفصيل الأشياء التي اخترتها من احتياطيات الأثاث الملكي، وتلك التي طلبتها من ورش الصياغة والنجارة. وصل عدد صفحات القائمة إلى أكثر من مائتي صفحة. كنت قد طالبت بأن تكون جميع القطع مصنوعة من الذهب الخالص أو مطلية بالمعدن الشمسي. في السنوات الأخيرة، عملت على زيادة مخزون الذهب في البلاد عن طريق إرسال عدة بعثات إلى النوبة وزيادة عدد العمال في مناجم الذهب في جنوب مصر في وادي الحمامات ووادي العلاقي. غايتي تبرر كل الوسائل.

كان كاتب الجرد قد أعد جدولًا من أربعة أعمدة لعمل قائمة شاملة بما سآخذه إلى قبري:

1- مُسمى القطعة 2- المواد الخام 3- الكمية 4- الرسم التوضيحي لكل قطعة.

اختار رؤساء المزخرفين الأثاث الضروري لتوفير الراحة في غرف مقبرتي: الخزانات، والأخاوين، والمقاعد، والطاولات الجانبية، وكراسي العرش، والأسرَّة، والوسائد، والمصابيح، والسجاد، والستائر، والسُّجُف، والأغطية، والمخدَّات. اختار «برني-عنخو» لخزانة ملابسي القطع المعتادة: الملابس الداخلية، والأحزمة، والسترات، والمآزر، والشالات، والصنادل. كما أضاف أزيائي الاحتفالية اللامعة والمُطرزة، والشعر المستعار «بالنِّمس» المتناسب معه. لقد أعد أدوات العناية الشخصية الأساسية الخاصة بي: شفرات الحلاقة، والملاقط، والمرايا، والأمشاط، وآنية الدهون العطرية والعطور، والنطرون، وملاعق وأواني الكحل، ومناديل الكتان. وُضِعت التيجان والصوالج في الصناديق والأجربة المصنوعة وفق الطلب بمقاسات محددة ودقيقة. قام مديرو الصائغين بإدراج وترتيب المجوهرات والتعويذات العادية في الصناديق وتلك الاحتفالية التي ستوضع على جسدي المحنط: الخواتم والأساور والمُعلَّقات والقلائد والعُقُود والأقراط. لتجميعها، قام صواغ المجوهرات بمزج الأحجار السحرية مثل الفيروز، والعقيق واليشب الأحمر، واللازورد، بالذهب البرَّاق بشكل رائع. كان مدير المطابخ الملكية قد وفَّر عددًا كبيرًا من القرابين الغذائية، ومدير السُّقاة الملكية بدوره أمدَّنا بقوارير لأجود أنواع النبيذ من إنتاج مزارع الكروم الخاصة بي. لن آكل أو أشرب إلا في أوانٍ ذهبية. كان ينقص فقط القيثارة التي كنت أعزف عليها منذ أن كنت طفلًا،

ولعبة «سينت» المحمولة التي أحببتها، واللفائف من مكتبتي الخاصة. عندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة من قائمة الجرد، وجدت أنه تمت فهرسة أكثر من ستة آلاف قطعة.

انتفضت. دون انتظار إذني، كان الوزيران «حم-إيونو» و«عنخ-خاف» قد دفعَا باب مكتبي. أرادَا إعلاني بالخبر بأنفسهما وأبعدَا الرسل الذين هرعوا إلى القصر. كان سقف الجرانيت المُسطَّح لغرفة الدفن في الهرم يتشقق! كان العُمال، الذين اعتلوا السقَّالات لتلميع الجدران بكرات من الدولريت هم من أعطوا إشارة الإنذار. لقد سمعوا صوتًا غريبًا، وبالنظر إلى أعلى أصابهم الهلع وهم يلاحظون أن سقف الغرفة به شقوق طويلة مُتعرِّجة. بسرعة هائلة، قفزوا على الأرض وهرعوا مسرعين كما الزواحف إلى البهو الكبير بحثًا عن طريق المخرج. أكثر الرجال تدينًا من بناة الهرم هم أيضًا الأكثر إيمانًا بالخرافات. كانوا يخشون القوى الخارقة للطبيعة وبشكل عام جميع الظواهر التي يعجزون عن تفسيرها. كانوا مقتنعين بأن الهرم ضحية للسحر وأنه سينهار فوقهم ويبتلعهم. ما زال العمال متأثرين من الحادث المروع الذي تسبب في وفاة رفاقهم، ونقلوا ذعرهم إلى البنائين الآخرين. فرُّوا جميعًا من الصرح وصعدوا إلى مرتفعات قريتهم لمشاهدة انهياره. لقد رأوا، في الماضي، حالات هُبوطات أرضية وحتى انهيار بعض الأهرامات تحت الإنشاء. ألم يغير «سنفرو» زاوية هرمه المائل حتى يتمكن من إنهائه بأمان؟ كنت أعتقد أنني أذكى من والدي من خلال وضع ثقتي في علوم «حم-إيونو» الحالمة. لقد نسيت أن كل رائد يستكشف مجالات جديدة على مسئوليته الخاصة. فن التصميم شيء وفن البناء شيء آخر. لم يجرؤ أحد من قبل على بناء ممر إلى الجنة بفخامة بهونا. وقد دفع عشرات الرجال حياتهم ثمنًا لهذا الممر الباهظ تحت حجر واحد عملاق، وقاموا بأول إضراب عُمَّالي في تاريخ البشرية، فأثار كل ذلك جدلًا كان يمكن أن يضر بسلطويتي وحُكمي المُطلق.

- أنا لا أفهم يا «حم-إيونو». لقد أكدتَ لي أنك قمت بحل مشكلة ضغط حجارة التعبئة على الأجزاء المبنية، وأن الأحمال الموضوعة لن تَدُكَّ غرفة الدفن بفضل نظام التفريغ المبتكر الخاص بك...

- وأنا أؤكد لك يا «خوفو» أن هذه الشقوق غير ذات أهمية،
لا تتجاوز نسبة الانبعاج المسموح بها في أي صرح. حسابات قوة التحمل التي قُمت بها صحيحة!

- شئت أم أبيت يا «حم-إيونو» لا أزال مُصرًّا على أن أي صدع في المبنى هو علامة على الضعف. هذه هي المرة الأولى في العالم التي يُبنى فيها -وبالتالي المرة الأولى أن تبني أنت أيضًا- غرفة من هذا النوع بسقف أفقي مسطح؛ لذا فإن حساباتك الدقيقة للأحمال والضغوط تعمل بالتأكيد من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية يبدو أن هناك مشكلة! أثبتْ لي إذًا يا «حم-إيونو» أن مهاراتك، التي وضعت فيها كل ثقتي، قد مكنتك من إقامة صرح صلب ومتين.

– ردي قاطع وحاسم يا «خوفو»: هذه الشقوق ليست خطيرة ولن تنتشر أكثر من ذلك. يحدث الصدع فقط عندما يكون ضغط القوى أكبر من قوة تحمل المواد، وفيما يخص الجرانيت فلا يوجد أي خطر. ولكي تطمئن، أقترح إرسال عامل إلى الموقع للتحقق من سلامة هيكل غرفة التفريغ الأولى التي تقع فوق سقف غرفة الدفن. ثم نقوم بحقن الشقوق باللياط واستكمال أعمال البناء.

– أي عامل؟ لقد أخبرتني للتو أنت و«عنخ–خاف» أنه لم يعد أحد يريد أن يدخل الهرم بعد الآن. لا أتصورك، مع زيادة وزنك، تتسلق سلمًا في أسفل البهو الكبير للوصول إلى خندق العبور إلى غرفة التفريغ الأولى ثم تزحف عندما تصل؛ لأن الوقوف هناك مستحيل، حتى بالنسبة لطفل! هكذا قلت بتهكم واستهزاء.

كان «عنخ–خاف» هو الذي وجد الحل.

– لا يوجد سوى «ديدي» الفأر من يمكنه التسلل إلى مثل هذا الممر الضيق. إنه ذكي بقدر ما هو شجاع، ويعرف أساسيات البناء وسيكون قادرًا على اكتشاف ما إذا كان هناك خطأ ما. سيكون لدينا الوقت فيما بعد، لجعله يتفقد الغرف الأخرى. لكنني أتفق مع «حم–إيونو»، وأضاف بأريحية، لن نضطر أن نواجه هذه النهاية.

انتظرنا جميعًا حكم «ديدي» الفأر هذا، الذي لم أسمع به من قبل. عندما سمعت أنه كان أيضًا شقيق زوجتي، شعرت بالذهول والخجل. سألت «حنوت–سن» على الفور:

– لماذا لم تخبريني عن «ديدي» من قبل؟

– لأنك لم تسألني عنه أبدًا.

– لقد أخبرتِني عن والديك وإخوتك الآخرين دون أن أسألك أي شيء. لقد تأكدت من حصولهم جميعًا على وظائف مناسبة وذات رواتب جيدة في قرية البنائين. نجحوا في اغتنام الفرصة التي أُتيحت لهم وازدهروا. قبلتُ أن تعيش أختك «ميريت» إلى جوارنا في البلاط وأن تكون المُربية الرسمية لابننا «خفرع» على الرغم من وضعها، وعلى رغم من أن ذلك ضد آداب سلوك البلاط الملكي. أمرت ببناء إسطبل نموذجي من أجل حمارك العزيز «بابا». وعدتك بأنه سيتم تحنيطه وأنه سيكون له مقبرته الخاصة. لماذا لم تخبريني أبدًا عن «ديدي»؟!

–«ديدي» شاب قوي الإرادة وكتوم لا يحب لفت الأنظار إليه، أراد دائمًا النجاح بمفرده. إنه واحد من أولئك الذين يؤمنون بمبدأ الجدارة والاستحقاق. التزم منذ أن كان مراهقًا بالعمل كما الرجل، وكان يقوم بعمل كل شيء في موقع البناء. لكن حلمه هو أن يصبح حجَّارًا. إنه مقتنع بأن الوصول إلى القمة يتطلب

البدء من القاع. كان يُخفي دائمًا أنه أخي، ويمنعني بشدة من مساعدته بأي شكل من الأشكال. «ديدي» شاب مثالي!

– مثالي! مثل أخته! مبدأ الجدارة! ولكن من هذا الذي لا يزال بإمكانه أن يؤمن بالجدارة والاستحقاق؟ أنت تعرفين ذلك جيدًا

يا «حنوت–سن»: المكانة الاجتماعية منذ الولادة فقط هي التي تحدد النجاح. من العبث الاعتقاد بأنه يمكن للمرء أن يحصل على منصب أو تقدم اجتماعي بفضل قدراته وعَمَله فقط. منظمتنا الاجتماعية هي أيضًا هرم، سيكون هناك دائمًا من هم على القمة ومن هم في القاع. وأهل القاع سيبقون فيه للأبد؛ لأن هذا يناسب تمامًا من هم على القمة.

– لكن لا يمكنك إنكار وجود جسور للرجال المستحقين.

– هناك المزيد من بوابات المرور للفاسدين! الرجال الصادقون والمجتهدون قليلًا ما يكافَئون، وإذا ما حدث وتمت مكافأتهم، فغالبًا ما يكون بفضل أشخاص استثنائيين ومؤثرين مثلك. كنتِ أنتِ من قام بترقية السيدة «بسشيت» كبيرة الأطباء في المستشفى ثم مديرة جميع الأطباء والجراحين. بدون تدخلك كانت ستبقى قابلة وممرضة طوال حياتها. إذا كنتِ استطعتِ أن تساعديها، فذلك فقط لأنك مَلِكتي وأنا، «خوفو»، سمحتُ لك بذلك. بدوني يا «حنوت–سن» لا سلطة لكِ ولا مصداقية. ومع ذلك، فإن كل ما فعلتِه هو صواب، كل ما فعلتِه يحترم الماعت. هذه الماعت الاجتماعية التي أناضل من أجلها، أنا أيضًا؛ للحدِّ من الظلم وعدم المساواة، بحيث لا ترجح دائمًا نفس كفَّة الميزان، لمحاربة الحق الطبيعي للأقوى!

حرصت على استقبال «ديدي» على انفراد. أعطاني تقريرًا دقيقًا ومُفصَّلًا عن حالة الموقع. لم تكن أرضية غرفة التفريغ

ولا جدرانها ولا سقفها معيبة، كان البناء سليمًا. لقد لاحظ أن بعض عمال المحاجر الذين لم يكن لديهم ما يكفي من المال لبناء مقبرة، قد كتبوا اسم فريقهم «أصدقاء خوفو» على كتل من الحجر الجيري، مخفية عن أعين الجميع. وبهذه الطريقة أصبح خلودهم مرتبطًا بخلودي، وهذا بفضل سحر هرمي.

أعطيت «ديدي» صُرَّة جلدية بها بعض السبائك النحاسية وسبيكة صغيرة من الذهب يمكنه مقايضتها بسهولة عند الحاجة. كان القبطان «مِرِر» ينتظره على أحد الصنادل التي ستُبحر إلى الجنوب لجلب الهرم الجرانيتي الصغير الذي سيتوج صرحي من أسوان. كان سيُوصِل «ديدي» إلى إيُونِتْ (دندرة) حيث كنت أقيم معبدًا للإلهة «حتحور». سيتم تمثيلها بملامح عزيزتي «حنوت–سن» على تيجان الأعمدة العالية وعلى النقوش البارزة على الجدران. كنت هكذا أوفر لـ«ديدي» فرصة لدراسة فن المنحوتات الضخمة مع أفضل

نحات في المملكة. إذا كان بالفعل مصممًا على رأيه وموهوبًا؛ فسيصبح أيضًا نحاتًا بارعًا بفضل جدارته وأيضًا بفضل -وبدون أي إساءة- القليل من المساعدة الفرعونية...

كنت قد قررت أن أكون قدوة للبناة الجبناء. أعلنت أنني أريد التأمل بمفردي، ثلاثة أيام وثلاث ليال، داخل غرفة الدفن. إذا لم تنهَرْ فوقي وخرجتُ على قيد الحياة فإنهم سيعودون إلى العمل، دون أي تعويض. على أي حال، لن تستطيع الخزانة الملكية أن تقدم لهم أي شيء، فقد تم تخصيص إيراداتها بالكامل لتوفير الكنز الجنائزي الخاص بي.

تم نقل بعض قطع الأثاث المعتادة إلى داخل الهرم، وكذلك المياه العذبة، والطعام والنبيذ، ومصابيح الزيت، وأقلام البوص، ولفافة من ورق البردي. أمرت ألا يزعجني أحد تحت أي ظرف مهما بدا مهمًّا بالنسبة لمستشاريَّ.

لا أشبع أبدًا. أشعر أنني غول يُريد أن يمتلك دائمًا المزيد والمزيد من الرجال، والنساء، والطعام، والذهب. عندما أبحث لنفسي عن أعذار، كنت أرْجِع هذا لطفولتي المبكرة؛ حيث كنت محرومًا -في كثير من الأحيان- من كل شيء؛ من الطعام ومن المودَّة أيضًا. لكنه شر أعمق بكثير يسكن جسدي. شيء لا يمكن تفسيره ويخيف الآخرين. أولئك الذين يهربون مني يقولون إني بشع، وأولئك الذين أَلِفوني يخضعون لي. لكل هذه الأسباب ولأنني قوة من قوى الطبيعة أشركني «إيدو» في أعماله. وبمرور الوقت، تاب عن احتياله وتدليسه وأصبح شخصًا عاطفيًّا متسامحًا وأبلهَ. تصور أن بإمكانه أن يلعب دور الأب البديل معي. كنت حريصًا على عدم إخباره أن والدي الحقيقي قد تاب هو الآخر، وأصبح صانع جِعَة محترمًا وميسور الحال. كان يعتقد أنه رجل عنيف وفقير ومدمن على الكحول. كان «إيدو» فخورًا بأنه أنقذني من المصير السيئ الذي كان محكومًا عليَّ به ووضعني على الطريق الصحيح من خلال تقليص تجارتنا غير الشريفة مع تزايد نجاحاتنا. الآن بعد أن أصبح على رأس شركة كبيرة؛ قرر أن يقتصر دوره على مدير الأعمال المثالي. لقد اعتقد أنني أيضًا سأرضى براتبي، بالإضافة إلى النسبة المئوية من المبيعات عن طريق بيع المصاطب الجاهزة على الاستلام والتي تشمل مقصورة صغيرة ولوح الوجبة الجنائزية ولوح الباب الزائف. ومع ذلك، استمر «إيدو» في إعادة تدوير بقايا المواد الخام وبيعها للفئات الأكثر فقرًا. لقد أحب الفقراء دائمًا فتات الأغنياء والأقوياء. كنا نؤكد دائمًا أن كل ما لدينا من بقايا البازلت، والديوريت، والجرانيت أو الكالسيت جاء من المقابر الأكثر تَميزًا وفخامة، بل ومن ورش العمل الملكية أحيانًا!

اكتسب «إيدو» وزنًا وهدأ وتعقّل. كان قد أسَّس عائلة. لم يعد يتردد على عاهرات الحانات، ولم يعد يخسر أمواله في ألعاب النرد. كان يُدلل زوجته الجميلة ويغدق عليها، ويدخر على أمل أن تنجب له ابنًا. تعيس الحظ لم ينجب سوى بنات فقط، على الرغم من الصلوات والقرابين السخية الموجهة إلى الإلهة «حتحور». كان مقتنعا بأنني أيضًا سأتعقل وأستقر، وأن النعيم الزوجي سيجعلني أتخلى عن فتيات الهوى والغواني. مسكين «إيدو»! لم يفهم أنني كنت فتًى سيئُ قلبه، والأسوأ من ذلك، كنت فاسقًا وشريرًا، وأن الغرام المنزلي الذي كان يعدد لي محاسنه، لم يثرني على الإطلاق.

تعرفت على مجرم في بيت دعارة في إِنِبْ-حِدِجْ عرض عليَّ المشاركة في عملية سرقة خطيرة بقدر ما كانت مثمرة: ضربة القرن! إما الآن وإما أبدًا. من الضروري الاستفادة من التوتر السياسي والاجتماعي الحالي وفراغ السلطة. كان أمامنا ثلاثة أيام وثلاث ليال.

أغلقت في صمت غرفة الدفن الخاصة بي. كانت مظلمة لدرجة أنها بدت رمادية داكنة مخيفة بدلًا من أن تبدو ذات لون أحمر متوهج. أعترف أنني كنت مستاءً من فكرة أنها منقوصة ومعيبة رغم صلابتها. ستظل الشقوق مرئية في سقف الغرفة، بينما كنت حلمت بها، وصممتها، وبنيتها، سليمة وكاملة. كانت جميع ثروات العالم بين يديَّ، وكنت أمتلك جميع الوسائل البشرية والتكنولوجية التي يمكن تخيلها، ولم أتمكن إلا من الحصول على بناء متصدع!

لم يكن هذا الصندوق الحجري غرفة لدفن فرعون.

بل كانت غرفة لميلاد إله.

تحسست أعضاء جسدي عضوًا تلو الآخر. هذا الجسد الذي لن يكون سوى جثة سيعيد المحنطون بناءها وتدعيمها وحمايتها بشرائط الكتان والتمائم والمجوهرات المقاوِمة للعفن. سيحبسونها في تابوت خشبي يتم ختمه في ذلك الوعاء من الجرانيت الذي احتل الجزء الخلفي من الغرفة، مثل سرداب موتي. عندها فقط سيتحول إلى جسد سماوي، متحرك ومليء بالطاقة، بعظام من الفضة مغطاة بلحم من الذهب.

سيكون جسدي الجديد جسد إله، جسدًا لا يتعفن، أو يعطب، أو يختفي. من خلال غرفة الدفن هذه سأبدأ صعودي إلى السماء الشمالية. رحلة من الموت إلى الحياة، من الظلمات إلى النور، من الأرض إلى السماء.

سأسلك دروبًا سرية لأدلف إلى الأبدية، هذا الوقت السرمدي الذي لم أستطع تخيله.

لم أشعر من قبل في حياتي بهذا القدر من الوحدة مثل الذي أشعر به الآن ولا بهذا الضعف. وبينما كان

قصري يعجُّ كخلية نحلٍ، كان الصمت هنا مُطبِقًا ومرعبًا ولا يبعث على الطمأنينة. كنت بمفردي أواجه نفسي وأُعذبها بأسئلة لن أحصل على إجاباتها أبدًا. أي فرعون سأكون أمام التاريخ؟ جيدًا؟ سيئًا؟ مُنصفًا؟ مجحفًا؟ أردتُ أن أتفوق على عمل أبي ونجحت بالفعل فكنت بصدد إتمام أعلى صرح والأكثر مهابة في العالم، بيِّن للجميع ومن أي مكان. حجرًا تلو الآخر، كان عُمالي يُشيدون مجمعًا عن أصل وتاريخ الكون لم يفهموه، ولكنه يرهبهم ويُدهشهم.

هل ذهبت بعيدًا جدًّا؟ عاليًا جدًّا؟ هل خرجتُ من الإطار الصارم الذي وضعته ماعت؟ هل تجاوزته؟ من سيتذكر اسمي في القرون القادمة؟ من سيظل ينطقه؟

في اليوم الثاني، أخذت مشكلة حصانة الهرم من الانتهاك تطاردني وتعذبني. كنت مقتنعًا بأن اللصوص سيدخلون قبري إما من خلال مدخله الأصلي أو عن طريق حفر نفق إضافي في كتلة الحجر الجيري. لقد رسمت من الذاكرة الأجهزة المختلفة، وكلها تقليدية للغاية، صممها «حم-إيونو» لحماية المداخل. لم أعد مقتنعًا إطلاقًا بفاعليتها. ستغلق حجارة الإغلاق ممرات التوزيع نهائيًّا وبشكل قاطع. ولكن ما الفائدة من هذه الحجارة إذا ما حفر اللصوص ممرات جديدة لاقتحام الجزء غير المحمي من هذه الممرات؟ عند مدخل غرفة الدفن كانت هناك ردهة صغيرة تحتوي على ثلاث كتل ضخمة من الجرانيت. تمت برمجتها للانزلاق بإحكام من السقف بعد دفن جثماني. غرفة الإغلاق الشهيرة! وبمجرد نزول هذه الحجارة ستخلف مساحة فارغة فوقها. كان من المخطط سد هذا الفراغ بستارة من الحجر الجيري الإضافي، ولكن ستبقى هناك دائمًا احتمالية ثقب هذه الصخرة وكسرها، ثم دخول غرفة الدفن عن طريق الزحف فوق غرفة الإغلاق. وكان هذا هو السيناريو الكارثي والأسوأ على الإطلاق.

في اليوم الثالث، استيقظت على تغريد أعرفه جيدًا وأستطيع تمييزه من بين ألف تغريد: زقزقة السنونو. كان الطائر قد دلف إلى داخل الهرم، أو ربما كان يعيش فيه، فقد عشش وكان يُطعم صغاره. رفرف من حولي قبل أن يستقر فوق كأس تحتوي على كعكة، نقرها كما لو لم أكن موجودًا، ثم شرب من الماء العذب الذي كنت قد سكبته في القدح. يبدو أنه قد أَلِفَني!

كان السنونو مبعوث الإله «رع» في النصوص المقدسة على الرسومات الصغيرة الملونة في «صحف الإله». كان يقف، وقت الفجر، عند مقدمة قارب الشمس وهو يخرج من الظلمات ليضيء الأرض مرة أخرى. كان يُبشِّر بإعادة خلق الكون من جديد كل يوم كما لو كانت المرة الأولى التي يهبط فيها على التل الأزلي. هذا السنونو الذي رفرف من حولي وغنى لي، ذو البطن الصغير المستدير والأبيض والريش الأزرق الداكن الطويل، هو الذي أيقظ الأحياء وانتزع الموتى من سباتهم. كانت لديه القدرة والحرية للتسلل إلى أي مكان داخل صرحي. كان يعرف جيدًا كل زاوية وكل ركن فيه ويغامر بالطيران والدخول في الأماكن التي بنيناها

ثم ردمناها، أو نسيناها. جاء هذا السنونو ليغني لي نغمات عانيت لفك شفرتها.

أنا المسئول عن الخدمة السرية لصاحب الجلالة منذ توليه العرش ولم أخذله قط. لقد وجدتُ الملكة «حنوت-سن» عندما كانت مجرد فتاة فلاحة طائشة هربت من قريتها. لقد تحريت في سرية تامة عن شخصية «رع-نفر»، كبير كهنة «رع»؛ مما أدى إلى إقالته. لقد كشفتُ شبكة السحرة القتلة التي كانت تحت قيادة السيدة «نفرت-إيابت». تحريت في المقاطعات لفهم الخطر الحقيقي الذي يمثله رجال طموحون وأقوياء وعصاة مثل حاكم مقاطعة الجميز «إيكر». أجهضت العديد من الفخاخ البدوية المدبرة للإيقاع بالقوافل الملكية. قمت باعتقال المجرمين الذين لعنوا اسم الفرعون. سجنت الفنانين الذين سخروا منه ومن بلاطه برسومات ساخرة. لكنني لم أتمكن من منع نهب هرم الملكة «حتب-حرس»!

مع تصاعد البناء الجنائزي على هضبة الجيزة والعدد الهائل للجنازات الفاخرة؛ أصبح لصوص المقابر نشطين ومنظمين بشكل جيد للغاية. وكانوا -في أغلب الأحيان- من العمال الذين شاركوا في بناء المقابر، خصوصًا عمال المحاجر والحجَّارين، من البسطاء الذين يعملون في المؤسسة الملكية، والذين انجذبوا إلى إغراء الكسب السهل والسريع.

يبدو أن أحدهم عمل في موقع بناء الهرم التابع والخاص بالملكة ونجح في تحديد ارتفاع مدخل الهرم من القاعدة؛ لأنه بمجرد انزلاق الإغلاق الحجري فإنه يندمج تمامًا مع الواجهة ويصبح غير مرئي. وبمساعدة من شركائه في الجريمة قاموا بتفجير الكتلة بمعاول نحاسية ومطارق ثقيلة كانوا قد «اقترضوها» ببساطة من غرفة الأدوات في موقع البناء الملكي. كان الصرح -الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترًا فقط ويبلغ عرضه خمسين مترًا- هرمًا صغيرًا لا يحتوي إلا على ممر هابط وغرفة دفن محفورة مباشرة في الصخر ثم تمت تهيئتها. عندما دخلت القبو مع الشرطة الخاصة تعثرنا في صناديق خشبية ألقيت على الأرض، كانت مخصصة للجواهر والحلي الفخمة والثمينة. كان اللصوص قد استحوذوا عليها في المقام الأول لأنها كانت سهلة النقل، حيث كانوا يقومون بإذابة الذهب والفضة لبيعهما بالوزن ويقتلعون الأحجار الكريمة لبيعها بالتجزئة. لقد وضعوا بالتأكيد الأساور والأقراط والقلائد والخواتم في صرة. لقد تخلوا عن المجموعة كبيرة الحجم من المزهريات المصنوعة من الحجر الصلب والقطع المُشكلة من المرمر التي كانت لا تزال مخزنة في صندوق كبير. لم يكن لديهم الوقت لفتح الصناديق التي كانت تحتوي على مجموعة فريدة ومتميزة من الأساور الفضية المطعمة بفراشات من الأحجار شبه الكريمة. كانوا قد ألقوا بالأثاث الذي كان يعوق الممر، فقذفوا بالكراسي الخشبية المذهبة الرشيقة، ووسائدها المصنوعة من الريش، والمحفَّة، إلى جانب الحائط. وهكذا

أخفوا عن أعينهم الجشعة جميع الأطباق الرقيقة المصنوعة من الذهب الخالص، كما قاموا أيضًا بتدنيس المقدسات وفتحوا التابوت المصنوع من المرمر عن طريق تحطيم غطائه إلى قطعتين وجدناهما ملقاتين على الأرض. عندما انحنيت لأنظر إلى المتوفاة المبجلة، أصابني الهلع: لقد اختفت المومياء الملكية ببساطة!

اللصوص لا يحترمون الموتى. يعرفون أن المومياوات تتزين بأرقى المجوهرات. يستخرجون الجثث ويستولون على القلائد والصدريات والأقراط. يقتلعون أصابعهم لسلب الخواتم، ويحطمون معاصمهم للاستيلاء على الأساور والرُّدْن الذهبية، ثم يقومون بإزالة شرائط الكتان لاستخراج التمائم والتعويذات التي وضعها المحنطون في داخل تلك الشرائط. ثم، في تحدٍّ صارخ للحياة الأبدية، يضرمون النار في الأجساد ليخفوها.

كان اللصوص قد استولوا من قبر الملكة «حتب-حرس» على الحلي وآنية الدهون العطرية وأدوات العناية الشخصية ومساحيق التجميل وفروا هاربين عندما سمعوا الحراس الليليين يقتربون. لقد كان فريقًا إضافيًّا من الحراس لم يعرفوه؛ وبالتالي لم يتمكنوا من رشوته.

تمكن رجالي من العثور على أفراد العصابة -وهم: عاملو محاجر، ونجار، وحجَّارون، وشرطيون فاسدون من حُرَّاس المقبرة- أثناء أن كانوا يتفاوضون على حصتهم من الغنيمة عند تاجر مسروقات كان في نفس الوقت مخبرًا ومرشدًا لخدمتي السرية.

أخضعت اللصوص لاستجواب قاسٍ وعنيفٍ. أردت منهم أن ينطقوا باسم العقل المدبر للفريق الذي لم يشارك في عملية السرقة، ولكنه خطط لها. كان من الواضح -بالنظر إلى غباء واقتضاب إجاباتهم- أنه لم يكن أحد منهم مَن دبَّر لتلك العملية. للأسف، توفي النجار والحجَّار من أثر التعذيب. توسل إلينا باقي المشاركين في الجريمة، وقد تغوطوا في مآزرهم من الخوف، أن نقطع آذانهم وأنوفهم وأيديهم، ولكن بدافع الشفقة ألا نسلبهم حياتهم. وكدليل على حسن نواياهم أفصحوا لنا عن اسم العقل المدبر: شخص يُدعى «بانب».

كان اليوم الثاني من الحبس الطوعي للفرعون في هرمه. وبالطبع، احترمت التعليمات بعدم إزعاجه تحت أي ظرف من الظروف. كان لديَّ أربع وعشرون ساعة لإرباك المجرم. خلاف ذلك، كان رأسي هو الذي سأحضره إلى «خوفو» على طبقٍ من فضة! كان «بانب» صهر الملك، شقيق الملكة «حنوت-سن»! وجدته بسهولة في مكاتب شركة «الموت أمامنا» حيث كان يعمل كشريك ثان. أربكني لطفه وترحابه وتودده تجاهي. كان يتلاعب بي! لكن المدهش هو أنه أنقذني عندما عرض عليَّ صفقة غير قابلة للتفاوض. لقد حلل «بانب» الموقف جيدًا، بعدم اكتراث وببرود شديد ليس من شِيَمي. اقترح عليَّ الخطة التالية كي يخرج كلانا بأمان من هذا المأزق. سيكون دوري في هذا المُخَطَط أن ينتهي الأمر بالمجرمين المتبقين على قيد الحياة مثل

شركائهم. ضباط الشرطة الذين لا يعرفون «بانب» سيظلون في السجن لأنه من الضروري وجود مشتبه بهم أحياء، ولكن سيكون من السهل بالنسبة لي لاحقًا وتضامنًا مع مؤسسة الشرطة، إطلاق سراحهم. وأثناء المحاكمة، كان عليَّ فقط أن أتظاهر بأن تواطؤهم كان مزيفًا. لقد اندسوا بين أفراد العصابة ببساطة ليقبضوا عليها في حالة تلبس. أكد لي –وهو ما كنت أخشاه– أن مومياء الملكة الأم، التي أطلق عليها اسم «العاهرة العجوز»، قد أُحرِقت تمامًا، وأنه لم يتبقَّ منها سوى كومة صغيرة من الرماد بعثرتها الرياح. يجب أن أعترف بأن المجرمين غالبًا ما يظهرون قدرًا كبيرًا من البراعة والإبداع الرائعين. اقترح «بانب» أن أقوم بإغلاق التابوت بإحكام دون ذكر أنه تم فتحه وتخريبه، وهو ما يناسبني جيدًا، أليس كذلك؟ لمزيد من المصداقية وكدليل على حسن نيته وافق على أن يعيد لي المجوهرات والمُتَعَلقات الثمينة التي سُرِقت من غرفة الدفن. سيحتفظ لنفسه بأغلى وأفضل الحلي التي كانت تُزين المومياء، والتي لم تَبْرَح تابوتها المرمري قط، أليس كذلك؟ كان على يقين، وكان على حق، أن الفرعون لن يرتكب أبدًا تدنيسًا إضافيًّا ويفتح نعش والدته المباركة. أصبح من المؤكد الآن أن والدته ستختبر الموت الثاني؛ الموت الحقيقي، أي العدم. لقد كان رجسًا ودنسًا يجب ألا يعلم به «خوفو» أبدًا، وكانت حياتي متوقفة على ذلك.

♀

قررت إعادة دفن والدتي في قبر جديد أمرت بحفره على وجه السرعة وبالتعاون مع أفضل عمال المحاجر. سوف ترقد إلى الأبد بالقرب من طريقي الصاعد وبالقرب من معبدي الجنائزي في قاع بئر على عمق خمسة وعشرين مترًا تحت الأرض. أمرت بأن يقوم فريق معزز من ضباط الشرطة بحراسة هرمها ليلًا ونهارًا حتى يتم الانتهاء من الحفر. أمرت بسحب تابوتها المصنوع من الكالسيت بحرص شديد، كان تحفة فنية رائعة لم يسبق لها مثيل. وُضعت المزهريات الكانوبية بجانبه. لسوء الحظ، كانت غرفة الدفن الجديدة ضيقة جدًّا بحيث
لا يمكنها استيعاب جميع الأثاث المُغطى بالذهب الخالص. اضطررت إلى فك المظلة الاحتفالية الكبيرة وستائرها. كانت مقاعدها المُفضلة، وسريرها، ووسادتها، وصناديقها، وعصيها، ومحفَّتها مكدسة بعضها فوق بعض.

عندما تم نقل جميع أمتعتها الجنائزية أمرت بسد البئر بالكامل بالأنقاض، ثم أغلقت ممر الدخول ببناءٍ قوي.

حط طائر السنونو ذو الذيل الرشيق والطويل على جدار منخفض. هل كان هو الذي رافقني داخل حجرة دفني؟ ظل يشدو لفترة طويلة، ويحوم في دوائر على مخالبه الصغيرة. عرفت بعد ذلك أنه إذا لم يكن هرمي

محصَّنًا فإن الغرفة التي سيرقد فيها جسدي المحنط داخل التابوت ستكون هي مُحصَّنة. لا يمكن اكتشافها إلى الأبد؛ لأنها غير مرئية.

الفصل الثالث والعشرون

الغرفة السرية

خرج «خوفو» من خلوته وكأنه أصبح مُلهمًا وعارفًا، كان في حالة من الشرود الذهني. وأمر بأن يكون اجتماعنا في جلسة خاصة.

كنت أعلم أنه مصدوم من تدنيس هرم والدته ومسئولية إعادة دفنها على وجه السرعة في مكان تمت تهيئته في عُجالة، لكن كان هناك المزيد من المفاجآت في انتظاري.

– كان لديَّ متسع من الوقت يا «حم-إيونو» لتقييم الوضع خلال هذا المعتكَف الذي استمر ثلاثة أيام. توصلت -يا للأسف!- إلى أن هرمي لن يكون مكانًا آمنًا لدفني. لن تتمكن أنظمة الإغلاق -حتى تلك أحادية الكتلة التي ابتكرتها أنت وقمت بتصميمها- من ضمان حصانة الصرح. انظر إلى مدى سرعة نهب قبر أمي العزيزة! لن تصمد مقبرتي، على الرغم من ضخامتها، أمام اللصوص المحترفين. علينا أن نبتكر شيئًا آخر!

– «خوفو»، يا مليكي، لقد وضعتَ كل معرفة الفراعنة في هذا الصرح. إنه يرمز -من خلال حجمه العملاق- إلى قدر قوتك السياسية وقوتك الإلهية. لقد بنى فريقي هرمًا مثاليًّا سيضيء البلد بأكمله. لقد أبدعوا ما ستحسدنا عليه الأجيال القادمة: الجمال! ما الذي تريدنا أن نتخيله أكثر من ذلك؟

– أدرك تمامًا يا «حم-إيونو» أنه لا يمكنك -للأسف!- تخيل أي شيء أكثر من ذلك، لكنني لم أعد أريد أن أدفن في غرفتي المكسوَّة بالجرانيت الأحمر!

– أنا لا أفهم تمامًا ماذا تعني: لم تعد ترغب في أن تدفن في هرمك؟

– هل تعتقد أنني متقلب المزاج لدرجة التخلي عن هذه التحفة المعمارية الخالصة؟ أريد أن أودع تابوتي داخل الهرم، ولكن في مكان آخر. ستكون غرفة الدفن التي قمت ببنائها في الأساس طُعمًا وخديعة للصوص والمدنسين. ستحتوي على جزء بسيط من كنزي الجنائزي.

– إنه من المستحيل الآن بناء غرفة جديدة يا «خوفو». سيتعين علينا تدمير جزء من البناء والبدء من جديد؛ مما سينتج عنه مشاكل مماثلة لتلك التي قمنا بحلها أو مشاكل أخرى أكثر تعقيدًا. لماذا لا تضع التابوت في غرفة السرداب؟

– لا يمكن أبدًا!

– في الغرفة السفلية التي تحت الأرض؟

– لا يا «حم-إيونو»، أتمنى أن يرقد جثماني في مكان سرِّي
ما زلت لا أعرفه. مكان رآه العديد من العمال، بل قاموا باستخدامه، ولكنهم لم يعودوا يتذكرونه، لا هم ولا أي أحد آخر. أو في مكان ما حيث يطير ويُرفرف السنونو الذي يعيش داخل هرمي وتمكن من بناء عشه. ولمَ لا في أحد فراغات الحشو الداخلي للحجر الجيري؟

– في حفرة؟ لكن هذا سيكون تدنيسًا، يا «خوفو»!

– زِنْ كلماتك يا «حم-إيونو»! من أنت لتحكم على ما هو تدنيس أم لا لومياء إلهية؟ قم بعملك كمهندس معماري أولًا! الباقي ليس من شأنك.

لم أتعافَ من هذه المحادثة العدوانية وغير العادلة وغير الواقعية تمامًا. هل كان قد عفَّى عليَّ الزمن لهذه الدرجة؟ هل عفَّى الزمن على تصميماتي، وتقنياتي؟ هل كنت قد شِخْت ولم أعد قادرًا على ابتكار نظام إغلاق محكم لا يمكن اختراقه لبناء هرم مُحصَّن؟ كان البهو الكبير، وغرفة الجرانيت الأحمر، قمَّتَي العمارة الفرعونية. لم يقم أحد بعمل مثل هذا التصميم ولا يمكن لأحد تقليده أبدًا.

شعرت بالذعر والحزن والغضب لتخلي «خوفو» بهذه السهولة عن غرفة الدفن هذه، تلك التي كلفتنا الكثير من الجهد الهندسي وحياة العشرات من الأبرياء. من يمكن له أن يتخيل أن هذا الكنز المعماري مجرد خديعة؟ لا أحد! أو بالتأكيد شخص مجنون.

أصابني خفقان أجبرني على ملازمة الفراش. كنت أشعر بالدوار بمجرد أن تَطَأ قدمي الأرض. شخَّص الأطباء -الذين لم يعرفوا سبب آلامي- حالتي على أنها «إجهاد». قاموا بمداواتي بالحجامة لاستخراج الدم الفاسد؛ مما تسبب في إضعافي أكثر. مكث «عنخ-خاف» بجوار فراشي مستشعرًا الخطر على حياتي. لم أُبح له بشيء مما دار بيني وبين «خوفو»؛ فهو سر خطير للغاية من أسرار الدولة. طالب بقدوم السيدة «بسشيت» لتفحصني. قامت بقياس نبضي واستمعت إلى دقات قلبي. طلبتُ منها أن تكون صريحة معي، وكان حكمها حاسمًا: كنتُ مجهدًا، بالتأكيد، ولكن أيضًا كنتُ أعاني من السمنة المفرطة. تمردت أعضائي ولم تعد قادرة على تحمُّل الدهون الزائدة التي تراكمت حولها يومًا بعد يوم، وقيَّدَتْها وخنقَتْها. كان قلبي مضغوطًا ولم يعد لديه مساحة كافية للتنفس. كان قلبي مثلي: مهترئًا.

♀

كان نقل الهرم الجرانيتي الصغير من أسوان هو مهمتي الأخيرة، والأهم والأكثر قدسية، كما أنها كانت

رحلتي الأخيرة. تم نقل تلك القطعة المِحْوَرية التي ستتوج الهرم على صندل بُنيَ خصيصًا من أجل تلك المهمة. منذ ذلك الحين تقاعدت في أراضي الدلتا التي خصصها لي الفرعون إعرابًا عن امتنانه لخدماتي الجيدة والمخلصة. أصبح في استطاعة زوجتي وأطفالي وأحفادي الآن الاستمتاع بي طوال الوقت. بالرغم من أنهم يعشقون الاستماع للمغامرات التي عشتها، والتي
لا حصر لها، والتي حرصت على تنميقها وأنا أرويها لهم؛ أعتقد أنهم -في بعض الأحيان- كانوا يفضِّلون لو كنت في البحر أو على صفحة النهر!

كان الفرعون يعلم أن علينا الانتظار حتى موسم الفيضان للتسليم. سنقوم بفتح السدود التي أغلقت ميناء «عنخو خوفو» عندما ترتفع المياه، كما هو الحال في كل عام، وستمتلئ الأحواض الاصطناعية على طول الهضبة، مما سيُمكِّننا من إرساء صنادلنا هناك. لقد فعلنا ذلك بالفعل عشرات المرات من قبل، ولكن -لسوء الحظ- تأخر الفيضان في ذلك العام ولم نتمكن من فتح القناة الموسمية في المواعيد المعتادة. رأى البعض أن هذا التأخير نذير شؤم، أما أنا فكنت أكثر عمليةً وأكثر واقعيةً من أن أعتقد ذلك. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتأخر فيها الفيضان. كما كان من الخطأ أيضًا الاعتقاد بأن النيل قابل للملاحة بسهولة دائمًا. إن الملاحة النهرية تقنية وعلم، وتخضع لتقلبات الفصول، كما أنها تتطلب معرفة تامة -غالبًا ما تكون عملية- بالشلالات، والضفاف الرملية، والرمال المتحركة، والقيعان، وأيضًا بالتيارات والرياح. لا يكفي الاعتماد على التيار للنزول إلى أسفل النهر أو فرد الشراع لصعوده. من الضروري معرفة طرق مواجهة العواصف التي تهب على النيل وتكون أحيانًا عنيفة. على عكس ما يتخيله العامة فإن حياة البحار صعبة. نحن نتعرض باستمرار للتقلبات الجوية. نحترق نهارًا تحت أشعة الشمس المُحرقة، ونرتجف ليلًا من البرد والرطوبة.

خططتُ لجدول إبحار لم يُرضِ «خوفو». اضطر إلى تأجيل موعد عيد «سد» بسبب قلة الرياح والتيارات المواتية، وأيضًا بسبب نقص المياه. كان في عجلة من أمره، وكان سينفجر من شدة الغضب. باختصار، تجاهل توصياتي.

- إنه لمن الجنون المغادرة الآن أيها الرُبَّان «مِرِر»! -هكذا صرَّح رجالي في انزعاج- نحن نخاطر بقاربنا وطاقمه وحمولته ونعرِّضهم للخطر. لقد غرقت بالفعل في النيل عشرات الصنادل المُجازِفة من قبل! أصبح النهر قبرًا للكثير من الثروات!

لقد استأجرت أفضل قائد دفة وأكثر ربان مشهود له بالجدارة. اتخذ الأخير موضعه في مقدمة القارب، للمراقبة. كان عليه أن يلحظ ويفسر أدنى تغيير في مجرى المياه: تغير في درجة لون المياه، أو ظهور شبكة من الموجات غير المألوفة والمريبة على صفحة النهر، أو صوت مختلف لحركة التموجات. كان عليه أن يحسب قوة

الرياح والتيارات وتجنب التراكمات الرملية التي من شأنها أن تشل حركة القارب لعدة ساعات أو حتى لأيام. ما كان مُتوقعًا أن يحدث حدثَ بالفعل: وجدنا أنفسنا عالقين بين جُرفين رمليين. لم يكن لدينا خيار سوى انتظار أن تطمو المياه. حاولت مجموعة من الرجال بمساعدة بحارتنا وضع رافعات تحت الصندل، مخاطرين بانقلابه وغرق حمولته. بدا لي أن اللجوء إلى فرق من الحمَّالين غير المحترفين -مثل هؤلاء المزارعين الذين عرضوا مساعدتنا- هو أمر شديد الخطورة. لم نتمكن من استخدام زوارق القطر: كانت ستواجه نفس الصعوبات التي واجهناها! عندما بدأت أخيرًا المياه الأُرْجُوانية في الطمو، تحرر قاربنا. لكننا كنا قد تأخرنا أسبوعًا كاملًا عن موعد التسليم. قررت أن نبحر ليلًا ونهارًا إلى وجهتنا. غمرتني مشاعر فياضة عندما سلمنا الهرم الذي يزيد وزنه على ستة أطنان. لقد أتممت على أكمل وجه المهمة التي كُلفت بها وأثبتُّ أني جدير بالثقة الموضوعة فيَّ. كنت أعلم أن قدميّ تطآن -للمرة الأخيرة- رصيف المرفأ الذي كنت شاهدًا على بنائه. وبالتأكيد، لم أكن أشعر بأنني مستعد لاستبدال حياة المغامرة والمرح بحياة بحار سابق متقاعد.

تمت إعادة نحت الهرم الجرانيتي الصغير لتتناسب أبعاده مع القياسات الدقيقة للقالب الخشبي الذي تم تركيبه على قمة الهرم. قام الصاغة الرئيسيون بتلميعه قبل تغطيته بطبقة سميكة من الذهب الخالص. وكانت الأسطورة تقول إنها كتلة من الذهب الخالص؛ مما أسال لُعاب الفقراء واللصوص.

♀

تسببت كل هذه الأحداث المؤسفة في الإضرار بهيبة وقدسية مُلكي: الحادث المميت في البهو الكبير، وإضراب البنائين، ونهب هرم أمي، والشقوق في سقف غرفة الدفن الخاصة بي. لقد دخلنا في دوامة عاطفية سياسية ودينية كارثية. غضب الآلهة؟ انهيار الدولة؟ العودة إلى الفوضى؟ كل هذا كان يمكن أن يؤدي إلى ما هو أسوأ.

كان عليَّ أن أنظم احتفالية «سد» -أي اليوبيل الخاص بي- في أسرع وقت ممكن. كانت طقسًا مستوحًى من طقوس التتويج ويتم الاحتفال به كل ثلاثين عامًا. كان يسمح بتجديد السلطة الملكية من خلال إعادة الشباب، والقوة، والحيوية، والعنفوان للفرعون. مع هذا اليوبيل سأحتفل رمزيًّا بملايين السنين القادمة، مع الأخذ في الاعتبار احتساب وجودي المستقبلي في الحياة الآخرة.

سيكون آخر ظهور علني لي، وأردته أن يكون مُبهرًا؛ لذلك أوكلت إلى الساحر «چدي» تصميم وإخراج الحفل. جعلني أتدرب على دوري مطولًا. كل خطوة قمت بها كانت محسوبة لأنها كانت تساوي ألف كلمة. استأنفت التدريب الرياضي عالي المستوى لاجتياز الاختبارات التي من المفترض أن تُظهر قوتي وفحولتي.

كان السباق الطقسي -على وجه الخصوص- يتطلب القدرة على التحمل والجَلَد، وهو ما لم أكن أتمتع به.

سرتُ على خطى الفرعون «زوسر» -الذي سبقني بوقت طويل- في عدم اتباع التقليد الذي يُلزم بإقامة عيد «سد» في معبد الإله «بتاح» في «إِنِبْ-حِدِجْ». قررت إحياء هذا الحفل أمام هرمي. أردت أن يتزامن الاحتفال باليوبيل مع تتويج صرحي بالهرم الجرانيتي المغطى بالذهب الخالص. سيرمز ارتفاع هذا الحجر الأخير المنحوت إلى التل الأزلي الذي خرج من المحيط اللا نهائي في فجر التاريخ، حيث أشرقت الشمس للمرة الأولى في اليوم الأول من الكون، وخلقت عالم الأحياء، في شكل الإله الخالق «أتوم-رع».

أعلنَّا عن الاحتفال في جميع محافظات مصر من الدلتا إلى أسوان. رفعنا الأعلام في جميع معابد البلاد، وكانت القوارب على النيل مزيَّنة بأكاليلَ من الزهور. رقص الناس وعزفوا الموسيقى على ضفاف النهر في كل قرية وفي كل مدينة. سادت أجواء مبهجة وشعور مُعْدٍ بالنشوة. أولئك الذين يستطيعون تحمل تكاليف الانتقال جاءوا إلى العاصمة واشتروا ملابس جديدة خصيصًا لهذه المناسبة. ساد البلادَ الفرحُ والسرورُ ليلًا ونهارًا لمدة أسبوع.

أقام «چدي» جناح اليوبيل أمام الهرم. كانت منصة محاطة بأعمدة خشبية تدعم سقفًا مصنوعًا من سعف النخيل: المسرح الذي سأقدم عليه عرضي الأخير. كان قد وَضع عرشًا يمثل مصر العليا مسنده مقابل لمسند عرش آخر يمثل مصر السفلى. كان قد جهَّز أيضًا لهذه المناسبة خزانة ملابس في الجزء الداخلي من الهرم التابع، الذي تم بناؤه رمزيًّا لـ«الكا» الخاص بي، حيث قبع «برني-عنخو» في الداخل لتجهيز ملابسي وصنادلي وزينتي؛ فكل مقطع من الطقوس يتطلب زيًّا ورموزًا مَلَكية مختلفة من تيجان وصولجان ولحية مستعارة وذيل ثور.

جاء الشعب بأكمله للاحتفال وفقًا لقواعد البروتوكول. كنت قد عينت رئيس كهنة جديدًا لمعبد الإله «رع» في إيُونُو (هليوبوليس)، وكان ولاؤه وإخلاصه لي. جلس في المقدمة وتبعه كبار رجال الدين في جميع المعابد المهمة في البلاد: «إِنِبْ-حِدِجْ»، خِمْنُو (هرموبوليس)، أَبِدْجُو (أبيدوس)، نِخِنْ (هيراكونبوليس)، سَاوْ (سايس)، بِرْ-بَاسْتِت (بوباستيس-تل بسطة)، أبو (ألفنتين)... كانوا يجلسون في المساحة المخصصة لهم حول جناح اليوبيل.

قمت، اتباعًا للمراسم، بإجلاس زوجتي الملكية الكبرى «ميريت إت إس» والملكة «حنوت-سن» في الصف الأمامي من المقصورة الاحتفالية. وقف إلى جوار أُمَّيْهِما ابنايَ «چدف رع» و«خفرع» اللذان عيَّنتهما وليِّين للعهد. أصبح «عنخ-خاف» يحل محل «حم-إيونو» منذ وعكته الصحية. كانت «ميريت» -التي حصلت على لقب المربية الملكية- حاضرة، تراقب عن بُعد الأمير «خفرع» بعيون يملؤها الحب.

كان الوصول إلى الساحة -حيث تم تقديم العرض- مقتصرًا فقط على كبار الشخصيات، والوزراء، والكتبة الملكيين، وحكام المقاطعات، والعسكريين، وكبار الكهنة، كلٌّ وفقًا لرتبته. كنت قد طالبت بتصاريح استثنائية لبعض رؤساء العمال في مواقعي؛ مثل كبير النجارين «إنتي-شيدو». أحضرت «ديدي» الفأر من دندرة، ألم يكن صهري بالرغم من كل شيء؟ كان جالسًا بجانب القبطان «مِرِر» الذي أردتُ تكريمه أيضًا.

ظل البسطاء من الناس والحرفيون والعمال والفلاحون محتشدين على طول الميناء. كان يمكنهم تأمُّل الهرم الذي كان مُتجليًا على بُعد بضعة أميال. هذا المشروع الذي أوشك على الانتهاء هو فخرهم الوطني. كانوا منتظرين بلهفة وترقب لحظة وضع الهريم الصغير الجرانيتي الذهبي فوق قمة هرمي. أرادوا أيضًا أن يُملُّوا أعينهم من فرعونهم؛ تجسُّد الإله «رع» على الأرض، وأن يهتفوا باسمي عندما يتم حَملي منتصرًا على المِحفَّة الخاصة بي عبر الشوارع وعلى طول النيل. ثم -كما هو الحال مع كل احتفال ملكي- سيستمتعون بما لذَّ وطاب ويحتسون الجِعَة كيفما يشاءون في المأدبة المصاحبة للاحتفال والتي يقدم فيها الطعام بوفرة.

ارتديت أولًا العباءة الخاصة باليوبيل، الطويلة، والملتصقة بجسدي والمشدودة عليه مثل الكفن. لعبتُ دور الفرعون العجوز المحتضر؛ من سأكونه عما قريب، والذي كان يستعيد شبابه ويتحول إلى ملك في ريعان الشباب من جديد. ثم ارتديت المئزر الاحتفالي ولوَّحت بصولجاني قبل أن أجلس في جلال على العرش الأول. كنت محاطًا بممثلين صامتين، يرتدون أقنعة ويظهرون بهيئة الآلهة التسعة العظيمة لمدينة إيونو (هليوبوليس). يجب أن أعترف بأن المشهد كان مبهرًا ومثيرًا للإعجاب! صعد رئيس كهنة «رع» إلى المنصة ووضع على رأسي التاج الأبيض لمصر العُليا الذي هو عبارة عن غطاء رأس مرتفع ينتهي بانتفاخ. غيرت عرشي وكرر رئيس كهنة «رع» نفس الإيماءات مع التاج الأحمر لمصر السفلى المسطح والمنحني. لقد صفَّق لي جميع كبار الشخصيات بصفتي فرعون القطرين، الضامن لاتحاد الشمال والجنوب الذي بدونه لا يمكن لمصر أن تزدهر.

دلفت إلى الهرم التابع حيث طلب مني «برني-عنخو» أن أخلع ملابسي وأتعرَّى تمامًا. لفَّ حزامًا حول خصري تتدلى منه قطعتا قماش وسلمني الشارة الملكية. كانت اللحظة الحاسمة في اليوبيل التي كنت أخشاها بشدة: السباقات الطقسية. كان السباق الأول يرمز إلى الحيازة الإقليمية للبلاد ويتطلب الوصول إلى عمودين خشبيين بارزين أقيما في الشمال والجنوب يُمثلان حدود الأراضي المصرية، وينتهي باستعراض للرماية بالقوس والسهم. أطلقتُ أربعة أسهم في اتجاه نقاط الأقطاب الأصلية الأربعة؛ للدلالة على أنني -كفرعون مصر- ملك على الخليقة بأجمعها. كان كل شيء يسير على خير ما يُرام حتى ذلك الحين. كان سباق التحمل أكثر ما أخشى؛ حيث كان عليَّ أن أركض مسافة كيلومتر واحد أو ما يزيد قليلًا في وقت قياسي حول ساحة هرمي. كان أفضل رقم حققته أثناء التدريبات هو ست دقائق، وتم ذلك بعيدًا عن

الضغط الذي أنا تحته الآن بسبب الاحتفال، كما أنني لم أكن مكبلًا حينها بوزن الرموز الملكية. ابتكر «چدي» خدعة للتحايل على هذا الأمر؛ فأمر بصناعة نماذج من الخشب الخفيف للرموز الملكية ورسمها باللازورد والذهب بتقنية الخداع البصري لتبدو كالرموز الأصلية تمامًا عند النظر إليها من مسافة بعيدة! كان من المفترض أن أستعرض عضلاتي المفتولة ومرونتي وخطواتي الواسعة. ساد صمت القبور عندما انطلقت، وكان صوت نبضات قلبي يطن في أذني مثل دقات الطبول، وجسدي يتصبب عرقًا. أتممت اللفة الأولى وسط التصفيق، وقدَّم لي رئيس الكهنة تاج مصر العليا بطريقة رمزية. كان عليَّ أن أتم جولة ثانية سأُمنح في نهايتها تاج مصر السفلى. اضطررت للتوقف لبضع ثوانٍ على الجانب غير المرئي من الهرم لالتقاط أنفاسي. أصابني ألم في جنبي! أنا، الإله الحي، كان عليَّ أن أواجه ضعفي البشري. استقمت ونفخت صدري بعد أن وصلت إلى الجانب المرئي مرة أخرى من الهرم. ثم وضع رئيس الكهنة على رأسي التاج المزدوج، الذي يربط بين مصر العليا والسفلى، لم يكن مزيفًا، وكان يزِنُ ثقله ذهبًا وفضة ويشعُّ بريقًا. امتنعت عن شرب كوب الماء العذب الذي قدَّمه لي الساقي الملكي. كان الساحر «چدي» قد أعد فواصل متتالية من العروض الراقصة والغنائية من جميع أنحاء مصر، بما في ذلك ما يسمى برقصة العصا التي كانت دائمًا تلقى قبولًا ونجاحًا كبيرًا. سمح لي ذلك بالعودة إلى الهرم التابع؛ حيث نصب لي «برني-عنخو» فراشًا ألقيتُ نفسي فوقه وأنا في حالة إنهاك. وبيديه الصغيرتين الرشيقتين والسحريتين جرَّدني من ملابسي، وغسلني من كل الغبار والعرق الذي لوَّث جسدي، وجفَّفني. دهن عضلاتي المتألمة بأحد مراهمه السرية ذي رائحة منعشة. قام بتدليكي وكأنها معجزة! هدأ ألم المجهود، وتباطأ تنفسي، وتوقف دمي عن الغليان في شراييني. أخذ يربت على ظهري حتى نمت تحت تأثير اللمسات الماهرة لقزمي الذي تحوَّل -على الرغم من بلوغنا من العمر عتيًّا- إلى مربية مرة أخرى.

انضممت إلى الجمهور مرتديًا مئزرًا احتفاليًّا مطرزًا بالذهب وواضعًا «النِّمس» فوق رأسي. قام خبير التجميل بوضع مساحيق كثيفة على وجهي لإخفاء علامات التعب، خاصة الهالات الكبيرة والانتفاخات تحت عينيَّ. ارتديت سوارين كبيرين مزخرف عليهما مشهد ديني يُظهر الإله «رع» في قاربه، تم تصويره في شكل جعران، هذا الشكل الذي يكتب به أيضًا الفعل «أن يصبح». بمجرد أن أموت، سأصبح، سأتحور، سأتغير، سأتحول إلى كائن من النور، وسأندمج في السماء مع الإله «رع».

قام «عنخ-خاف» بالإشراف على رفع الهرم الجرانيتي الصغير فوق قمة هرمي؛ لافتتاح الحفل. تم تثبيته وربطه بإحكام على عربة خشبية يتم جرها على منحدر عملاق بواسطة حمَّالين مدربين تم تقسيمهم إلى مجموعتين؛ كل مجموعة تتكون من تسعة رجال. جلس المسئول عن صب الماء فوق الجزء الأمامي من العربة، كان يُجيد تمامًا تحديد جرعة السائل اللازمة للتزليق الأمثل للتربة؛ مما سهَّل الجر على منحدر شديد الانحدار.

رافق هذا الرَّكْب البشري مجموعة من الراقصين، والموسيقيين، والمغنين، وكهنة يحملون المباخر. كان التحدي الأكبر يكمن في التحكم في ميل الهرم الجرانيتي الصغير قبل تركيبه فوق قمة الهرم. كان يرسل بريقًا ووهجًا من حوله، وكانت الحشود المبهورة في أسفل الهضبة تَهْذِي وهي تتطلع إلى هذه الشظايا النارية التي تتوهج في السماء الزرقاء. أخذتْ همهمات الخوف والدهشة والإعجاب تعلو حتى وصلتْ إلى هضبة الهرم وكأنها صيحة واحدة.

وقفتُ أمام كبار الشخصيات والوجهاء، وأعلنتُ:

– أنا، «خوفو»، ملك مصر العليا والسفلى، أسستُ معكم مفهوم الماعت الاجتماعي: انتصار التضامن، والتماسك، والطاعة، والنظام. أنا «خوفو»، ملك مصر العليا والسفلى، أنشأت أيضًا الماعت الكونية: انتصار النور على الظلام؛ من خلال صرحي «آخت خوفو» الذي هو أيضًا أفقي، حيث سأشرق وأغرب كل يوم وإلى الأبد.

ارتفعت موسيقى سماوية، وظهر كبار الكهنة في جميع المعابد الإلهية خلفي ليرددوا في انسجام تام كلمات طقوس هليوبوليس:

يا «رع»، يا سيد ماعت

يا مَن يعيش من ماعت

يا مَن يحكم بماعت

يا مَن يشرق في ماعت

يا مَن يَغرب في ماعت

يا مَن يتغذَّى على ماعت

يا مَن هو المثالي بماعت

يا مَن تمدحه ماعت

يا مَن هو القوي بماعت

يا «رع» يا صالح القلب، يا مَن يؤسس ماعت في كل ما يخلقه...!

♀

يجب أن أعترف بأنه خلال اختبارات اليوبيل كان «خوفو» في قمة تألقه.

لقد ساهمتُ طوال حياتي كساحر في إشراق وبريق المَلَكية. علّمتُ الفرعون بلاغة المشهد، ولغة الجسد، وألعاب النظرة، وتعبيرات الوجه، والتنغيم، والإيماءات ذات المغزى. كنتُ معلمَه ومرشدَه، اعترفَ بذلك بنفسه. لقد أدركتُ سن النضج، أرتجفُ وأنا ألعب النرد، ولم أعد قادرًا على ممارسة ألعاب التوازن والشعوذة بعد الآن. أصبحت سنِّي كبيرة على أن أؤدي على خشبة المسرح. لم يعد لديَّ السرعة، ولا الخفة، ولا الطاقة اللازمة لعملي. بلغتُ من العمر ما يكفي للتقاعد في أراضيَّ في الجنوب. لكن «خوفو» طلب مني البقاء في القصر، أعدَّ لي جناحًا خاصًّا شديد الفخامة والرفاهية غير المسبوقة. إذا لم أعد ساحرًا فما زلت عرَّافًا ومنجمًا والأفضل على الإطلاق. كان «خوفو» قلقًا بشأن المستقبل القريب، ويستشيرني باستمرار. كان يخشى ألا يكون أبناؤه على قدر المنصب، ويخشى أن يغتصب كهنةُ «رع» السلطة ويقيموا حكمًا دينيًّا. كشف له رئيس الخدمة السرية أن «رع نيفر» يتآمر ضده وانتقل مؤخرًا إلى ساخبو -إحدى ضواحي إيونو (هليوبوليس)- للتآمر. ما لم تعرفه الشرطة -أو عرفته ورفضت إخباره إياه- هو أنه تزوج السيدة «نفرت-إيابت» وأنها حامل.

كنت قد لمحتها وأنا محمول في المحفَّة متجهًا إلى ضفاف النيل، بعد أن شاهدت إقامة الهرم الجرانيتي فوق قمة الهرم. اختلطا مع الحشود وكانا يأكلان الرمان. استنتجت أن الوغد قد أكد للفاتنة الطَّموح أن النجوم أثبتت أنها ستصبح ملكة قريبًا إذا اتحدت معه. لم تكن «نفرت-إيابت» لتتزوج أبدًا بهذا القبيح النحيل الجاف كفرع شجرة إذا لم تكن متأكدة من أنه سيجعل منها أمًّا لفرعون مصر المستقبلي. لم تكن تعلم أن «رع-نفر» المسكين كان دائمًا ضعيفًا للغاية في علم التنجيم. لقد أساء -كالعادة- تفسير حركة النجوم، وأجرى حسابات خاطئة، واستبق بضعة أجيال! لا يكفي أن تكون عالمَ فلكٍ فقط؛ ولكن عليك أيضًا أن تكون مُنجِّمًا! كنتُ أتخيل ضحكات «خوفو» عندما أخبره بهذه القصة بعد أن ننتهي من جلستنا حيث دعاني لتقييم حفل اليوبيل.

تدهورت الحالة الصحية لعزيزي «حم-إيونو». لم يقدر على النهوض لحضور احتفال عيد «سد»، وما استطاع -للأسف- أن يشهد الانتهاء من عمله برفع الهرم الجرانيتي فوق قمة الهرم. لقد دخل في غيبوبة عميقة لن يُفيق منها أبدًا. طلب مني أن أَعِدَه بنقش هذه الكلمات التي أعطت معنًى لحياته الدنيوية في مصطبته: «إذا كنتُ قد حققتُ شهرة الملك إلى الأبد؛ فقد قمتُ بذلك دون تقليد عمل مَن سبقوني. صممت «آخت خوفو» في ذهني ولم يتصور أي سلف مثل هذا التصميم من قبل».

طلب مني «خوفو» أن أتولى المسئولية من بعده وأخلُفه، وأن أستشير كهنة الأرشيف. لقد احتفظوا منذ

البداية بجميع التصميمات التي تم وضعها للهرم الأكبر المستقبلي، بما في ذلك تلك التي تم التخلي عنها أثناء العمل أو إعادة تصميمها. كان عليَّ بناء طرْس للرسومات الهندسية والتصميمات من خلال إعادة نسخ جميع بيانات الرق الممسوح المتوافرة لتشمل -في لمحة بصر- مصفوفة الصرح. أراد أن يرى على ورق البردي الآبار، والممرات، والغرف والأروقة المهجورة أو المُغلقة، والتي كانت تُستخدم من قِبل العُمَّال في مرحلة معينة من البناء وأصبحت لاحقًا عديمة الفائدة. وقد تم أيضًا تفكيك بعض هذه العناصر أو سدها. لقد توالت العديد من الفرق -المختلفة دائمًا- على هذه الأماكن! كان يتم تغيير العمال باستمرار حتى لا تكون لديهم أبدًا رؤية كاملة وشاملة على ما كانوا يبنونه. كان عليهم أن يظلوا أشخاصًا عاديين يبنون صرحًا غير عادي.

لن يكون الهرم مُحصَّنًا، ولكن هكذا ستكون غرفة الدفن.

كان يجب أن تكون المومياء سليمة حتى يُبعث الملك من جديد في الحياة الآخرة، وحتى تَترك روحُه جثتَه وترتفع إلى السماء.

كان الهرم متاهة حقيقية، بأبواب زائفة، وحجارة منزلقة، والممرات التي لم تؤدِّ إلى أي مكان، والأروقة المهجورة. ستكون غرفة الدفن الجديدة إما غرفة نفعية، لم تكتمل قَط، أو حتى تجويفًا في المصفوفة الداخلية لجميع كتل الحجر الجيري المكدسة. في النهاية، غرفة كان الكثيرون على علم بها، ولكن لا أحد يتذكرها. سيكون الوصول إليها -بالضرورة- من خلال الهياكل القائمة، والعناصر المعمارية المعروفة للجميع.

«وحده الإبداع البشري يمكن أن ينقض ما اخترعه الإبداع البشري».. كان «حم-إيونو» مغرمًا بهذه المقولة بشكلٍ خاص.

قال لي «خوفو»، الذي كان دائمًا يحب التحديات الفكرية:

- معك يا «عنخ-خاف» سأُبرهن على كذب هذه المقولة!

أوضح لي أنه أعجب طوال حياته باستراتيجيات الساحر «چدي». كان ينوي إعادة تفسير تقنية المرئي وغير المرئي التي علَّمه إياها لصالح صرحه. فغير المرئي هو موجود بالفعل، ولكن لا أحد يراه؛ وذلك بفضل مواهب وبراعة الساحر.

كان مقتنعًا بأن اللغز أهم بكثير من حله. سيبقى هرمه لغزًا لا حل له من شأنه أن يحفِّز ويثير الخيال البشري إلى الأبد، أو ربما سيتعين تفكيكه حجرًا حجرًا للعثور على مومياته ومجوهراته التي لا تقدر بثمن. بمعنًى آخر؛ لن يجرؤ أحد أبدًا على مثل هذا العمل!

كان أصعب ما في الأمر هو تحديد المساحة التي ستحتلها غرفة الدفن داخل هذه الكتلة الصخرية العملاقة

التي تبدو عديمة الشكل إذا تأملناها من الداخل. رفض «خوفو» فتح الجدران الجانبية ثم إعادة إغلاقها، أو حتى تعديل تجميع جدار أو أرضية، كما أنه لم يرغب في استغلال فراغ التفريغ الذي تم بناؤه فوق البهو الكبير. كانت مساحة كبيرة جدًّا ويصعب الوصول إليها.

ثم كانت الانطلاقة! ما زلتُ أرى إصبعه السبابة مشيرة -بمنتهى التسلط- إلى ورقة البردي، كما لو كان بإمكانه اختراقها: ستكون هناك.

لقد اختار تجويفًا من الصخور الخام، وقال إن التباين الصارخ بين خشونة الحجر غير الأملس وذهب تابوته سيكون له تفسير لاهوتي مثالي: التابوت باعتباره أول شعاع للشمس يشرق على التل الأزلي قبل خلق العالم.

كان «خوفو» قد خطط لجميع إجراءات جنازته الفخمة التي سيشرف عليها ابنه ولي العهد «چدف رع» حتى باب الدخول ذي العوارض الخشبية. لم يبُحْ له بمكان غرفة الدفن. كنت الشخص الوحيد الذي يَعلَمه. كان قد كلف «إنتي-شيدو» بتصنيع تابوت جديد مصنوع من خشب الأبنوس المطلي بالذهب. ادَّعى رسميًّا أنه سيتم وضعه في الصندوق الجرانيتي الموجود بالفعل. أراد أن يكون الصندوق الجنائزي سهلَ التجميع -مثل قوارب وادي الجرف- من خلال نظام النقرة واللسان. سيضم أَقْيَم وأَعْظَم تحفة فنية على الإطلاق خرجت من ورش الصاغة: تابوتَه المصنوع من الذهب الخالص بسُمك ثلاثة سنتيمترات. لقد اختار بعناية المائة والثلاث والأربعين قطعة من الحُليِّ التي سيتم توزيعها بين شرائط الكتان في موميائه وقطعة رائعة لحماية رقبته.

كان هذا الصندوق الخشبي مخصصًا بالفعل لمخبأ دفنه. سيحمله كهنةٌ شباب، بعضهم سيكون أيضًا نجارين وقادرين على تجميع الألواح وكذلك تثبيت غطائه. سأكون الوحيد الذي يرشد مجموعة الرجال الذين سيرافقون موكب جنازته داخل الهرم، ويجب ألا يكون أي منهم قد دخله من قبل، كما سيكونون جميعًا معصوبي الأعين؛ لمنعهم من عد خطواتهم ومحاولة تذكر المدى الذي وصلوا إليه. بمجرد أن يتمكنوا من الوقوف وعدم الانحناء في الممرات سأجعلهم يلفون في دوائر؛ لإرباك عقولهم، ثم يتبعون مسارًا بارتفاعات متفاوتة تجعلهم يفقدون أي نقطة مرجعية أو معالم للمكان. عند وصولهم إلى غرفة الدفن الجديدة سيقومون بتجميع الصندوق، ووضع التابوت بداخله، وإغلاق الكل بغطاء منزلق مُحكم. لن يسلكوا نفس الطريق الذي دخلوا منه؛ بل مسارًا ثانويًّا، معصوبي الأعين مرة أخرى إلى المخرج.

أمرني «خوفو» أن أحفظ عن ظهر قلب -كما فعل هو- تصميم الطِّرْس لهرمه. ألقى ورق البردي في كانون نحاسي يدفئ به غرفة مكتبه. شاهده يحترق حتى آخر شعلة. أمرني -كما تملي التقاليد- أن أودع في الأرشيف

تصميمات هرمه المعروفة الآن للجميع بغرفه الجنائزية الثلاث. سره -مثل سر عدد غرف حرم الإله «تحوت»- سيتم الاحتفاظ به جيدًا، إلى الأبد.

الفصل الرابع والعشرون

موتي ليس النهاية

استقبلتُ ابنيَّ «چدف رع» و«خفرع» في جلسة خاصة. لن أفصح عما قيل في هذا اللقاء، ولا عن الوعود التي تبادلناها. كلام رجال ووعود شرف. إن أمن الدولة الآن على المحك. سيخلف أبنائي بعضهم البعض بسلاسة وبدون صراع؛ تحقيقًا لرغبتي الأخيرة. سيحاولون بالطبع أن يضاهوني أو حتى أن يتفوقوا عليَّ، لكنهم لن ينجحوا. لقد وصل عهدي إلى ذروة التاريخ الإنساني.

موتي ليس نهاية؛ إنه انتقال من الحياة الدنيا إلى حياة الآخرة، أعددتُ له جيدًا. أعرف تمام المعرفة كل مراحل التحول التي سأمر بها، لكني أكتشف الآن الاحتضار، الموت يستغرق وقتًا طويلًا! الموت يرهقني. فقدت شهيتي. لا أستطيع النـوم ليلًا، وأغفو طوال النهار. بدأ بصري يضعف وسمعي أيضًا. وَهَنَتْ عظامي والتَوَتْ. أتألم بشدة عند الجلوس بقدر ما أتألم عند الوقوف. ذاكرتي غائمة. لا أتذكر الأمس، ولكني أتذكر بوضوح شديد ذات صباح، قبل اثنين وثلاثين عامًا، عندما تجولنا أنا و«حم-إيونو» في هضبة الجيزة!

استمر جدال أطبائي القابعين بجوار فِراشي لعدة أشهر، فكل طبيب يدَّعي أن لديه، هو فقط، علاجًا معجزةً سينقذني، وأن زملاءه يجهلون ذلك العلاج. وأنا في عذاب منذ شهور. همساتهم وتعليقاتهم ترهقني وتسبب لي صداعًا. أنهض بصعوبة بينما أئن وأنا أستند على مرفقيَّ الضعيفين لأنتزع نفسي من شرنقة وسائد الريش. أسكب بإيماءة يملؤها الغضب كل القوارير التي تتراكم على صندوق الأبنوس الموضوعة بجانب فراشي، مستخدمًا القليل من القوة المتبقية لديَّ. إنها مثل البيادق في لعبة «السينيت»، لكنني لم أعد ألعب مع أي شخص. كانت غرفتي مكدسة بالصناديق المصنوعة من العظام والصناديق الخشبية والمزهريات المصنوعة من الحجر الصلب، وكان الهواء الراكد مُحملًا بالزيوت الثمينة والعقاقير والدهونات والدهون العطرية والمساحيق التي يدهن بها أطبائي جسدي عبثًا وضد إرادتي، وهم يَتْلون الصيغ السحرية.

صرخت فيهم بكل قوة وسطوة الفرعون، طردت هؤلاء المشعوذين:

- اخرجوا جميعًا! مهما فعلتم فلن تستطيعوا أن تمنعوني من الموت! لن تستطيعوا أن تسلبوني موتي!

طردت محظياتي، و«الزينة الملكية» اللاتي تزاحمن على باب جناحي وهن يتباكين قبل الأوان. عادت زوجتي الأولى «ميريت إت إس» إلى الظهور وقد تجدد شبابها وبدت أكثر نحافة من ذي قبل. يجب أن تبدو بصورة جيدة، فستكون قريبًا والدة الفرعون القادم.

كل ما أريده هو قضاء ما تبقى لي من وقت في هذه الدنيا مع عزيزتي «حنوت-سن». لقد حان الآن الوقت

المناسب لأقول لها هذه الكلمات البسيطة؛ تلك التي لا ينطق بها الفرعون أبدًا، والتي يُسيء البشر استخدامها. يبدو أن النساء يرغبن في سماع هذه الكلمات، حتى لو كانت -في كثير من الأحيان- أكاذيب. لم أتفوه بها قَطُّ لأنها كانت عديمة الفائدة. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة لأقع في غرام «حنوت-سن». كان الأمر لا يحتاج إلى تفكير. رجل لديه أجمل النساء على وجه الأرض ومفتون بامرأة فلاحة غير متعلمة ومحرومة! فجأة اعتقدت أنني سمعت أمي «حتب-حرس». نعم، غالبًا ما تكون هناك أشياء خارقة في الحياة لا نتوقعها!

أحبك يا «حنوت-سن»! هل الأمر بهذا التعقيد؟ أريد أن أقول لها هذه الكلمات قبل فوات الأوان:

- «حنوت-سن»، أحبك!

- ما خطبك يا «خوفو»؟ نحن نحب بعضنا البعض، أجل!

أخذتْ وجهي بين يديها وقبلتْ جبهتي.

- تعلمتُ جميع الأسرار الدينية في معابد «تحوت» و«رع»، لكنكِ وحدكِ من علمتِني أسرار الحب. لم أحبكِ هذا الحب البشري الذي يَفتر ويخبو ويتحول بمرور الوقت إلى شيء ليس به من الحب سوى المُسمى فقط. أحببتك حبًّا عظيمًا، حبًّا يملؤه الشغف، حبًّا تامًّا ومطلقًا، وما زلتُ أحبكِ حبًّا عظيمًا، حبًّا يملؤه الشغف، حبًّا تامًّا ومطلقًا.

- أجل، لقد أحببتَني وتُحبني، دعنا نقُلْ: حبًّا فرعونيًّا!

- لا تضحكي يا «حنوت-سن». أعلم أنكِ انتظرتِ هذه الكلمات طوال هذه السنوات التي قضيتِها معي! جلب لي عرشي المجد خلال حياتي الدنيا، أما أنتِ فقد قدَّمتِ لي ما يطمح إليه جميع الرجال ولا يبلغه سوى القليل منهم؛ لقد قدمتِ لي السعادة.

- لكَمْ أحببت حياتي على الأرض معكَ يا «خوفو»، لدرجة أنني أود أن أعيد كل لفتة وكل كلمة وكل قُبلة.

- إنَّ حبي لكِ لا تتسع له هذه الحياة الدنيا؛ فهي تبدو قصيرة جدًّا! الآن لديّ الحياة الأبدية أمامي!

- سأظل أنطق اسمكَ كل يوم يا حبيبي، وسيعلو صوتي بقدر صوت الكهنة الذين سيحافظون على طقوس عبادتك لآلاف السنين القادمة. ستكون ميتًا؛ ولكنك ستظل حيًّا بداخلي.

- لا تبكي يا «حنوت-سن»! تعالَيْ وغنِّي لي، غنِّي:

شغلني حبيبي بصوته العذب

قلبي يرهفُ منذ اليوم الذي دبَّ فيه حبه

حبيبي لا يعلم أني أريد أن أضمه

هكذا أحب أن أغفو، مُنهكًا من أثر الحُمى، أستمع إلى هذا اللحن القديم الذي اعتادت فلاحة صغيرة أن تغنيه أثناء غسل ملابسها على ضفاف النيل.

لم أكن بحاجة إلى أن أطلب منها فتح النافذة. إنها تعلم. أزاحت الستائر بعيدًا. إنها نهاية الصباح. نسيم من الرياح الشمالية يبرد الجو. من خلال نوافذ غرفتي أستمع إلى هَمْس الحياة: تحليق الطيور الصاخبة، وقعقعة أشرعة الفلوكة على صفحة النيل، والأصوات المكتومة التي لا أستطيع متابعة حديثها. عندما يحرك النسيم الستائر، أراه.

إنه يتحدى الزمن بارتفاعه الذي يبلغ مائة وسبعة وأربعين مترًا. استغرق الأمر ثلاثين عامًا وحياة عدة آلاف من الرجال حتى يظهر هذا الصرح المثالي، أملس تمامًا، أبيض تمامًا، معززًا بقمة وامضة تعمي الأبصار مُذهَّبة بالذهب الخالص. يقف منتصبًا، ومضيئًا، كجبل خارق للطبيعة. يعكس هذا المصباح العملاق قُزَحًا مختلفة بحسب ساعات النهار. دائم التألق تحت القمر وتحت «النجوم الأبدية»، نجوم الشمال التي لا تفنى. إنه انتصار العبقرية البشرية، انتصار قمة البراعة والتميز. إنه غير قابل للتدمير، ويضم غرفة الدفن الخاصة بي، والتي أصبحت الآن محصنة. أعرف كل ركن من أركان هذه المصفوفة الحجرية التي ستَهب قريبًا إلهًا جديدًا. أعرف كل شيء عنه؛ لأن هذا الهرم هرمي. إنه عملي. إنه حياتي. هذا هو مجدي. إنه ذكراي الخالدة كصمود الصخور الصلبة. «آخِت خوفو»، «أفق خوفو». بفضله، سيحتفي التاريخ باسمي.

سمعت حجر الإغلاق ينزلق لينغلق على سرِّي.

لديَّ شعور غريب بأنني أطفو وأخرج من جسدي.

أتقدم عبر نفق مظلم.

في نهايته أرى ضوءًا ساطعًا.

كلما اقتربت منه؛ كبر حجمه.

إنه نيل مشرق ودافئ ومطمئن سأغمر فيه.

فجأة، لم يعد للزمن وجود.

حينها وقفت وصرخت:

هذا أنا، «خوفو»!

أنا الخلود!

تمت بحمد الله

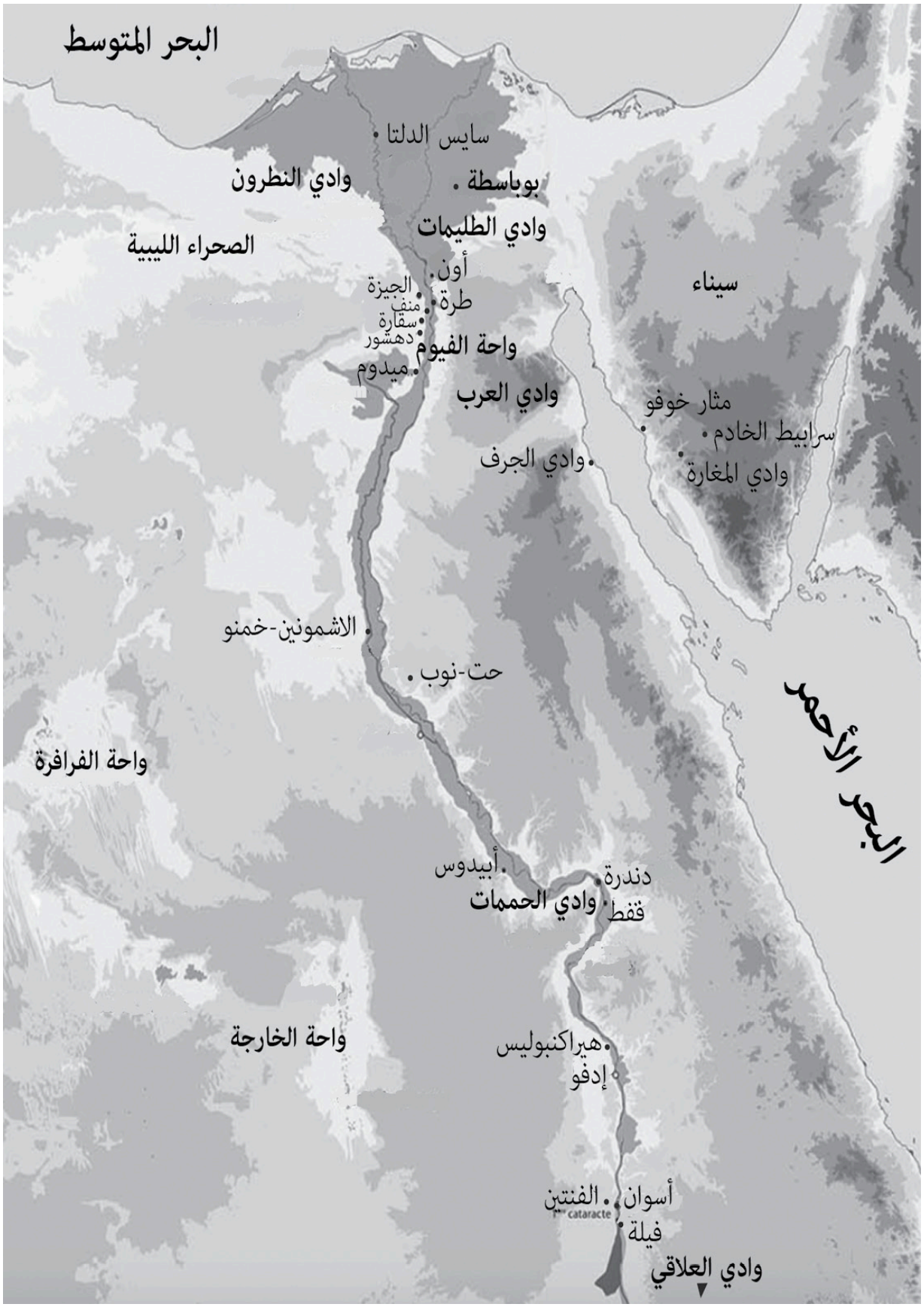
البحر المتوسط
سايس الدلتا
وادي النطرون
بوباسطة
وادي الطليمات
الصحراء الليبية
أون
الجيزة
طرة
منف
سقارة
دهشور
واحة الفيوم
ميدوم
وادي العرب
سيناء
مثار خوفو
سرابيط الخادم
وادي الجرف
وادي المغارة
الاشمونين-خمنو
حت-نوب
البحر الأحمر
واحة الفرافرة
أبيدوس
دندرة
وادي الحممات
قفط
واحة الخارجة
هيراكنبوليس
إدفو
أسوان
الفنتين
cataracte
فيلة
وادي العلاقي

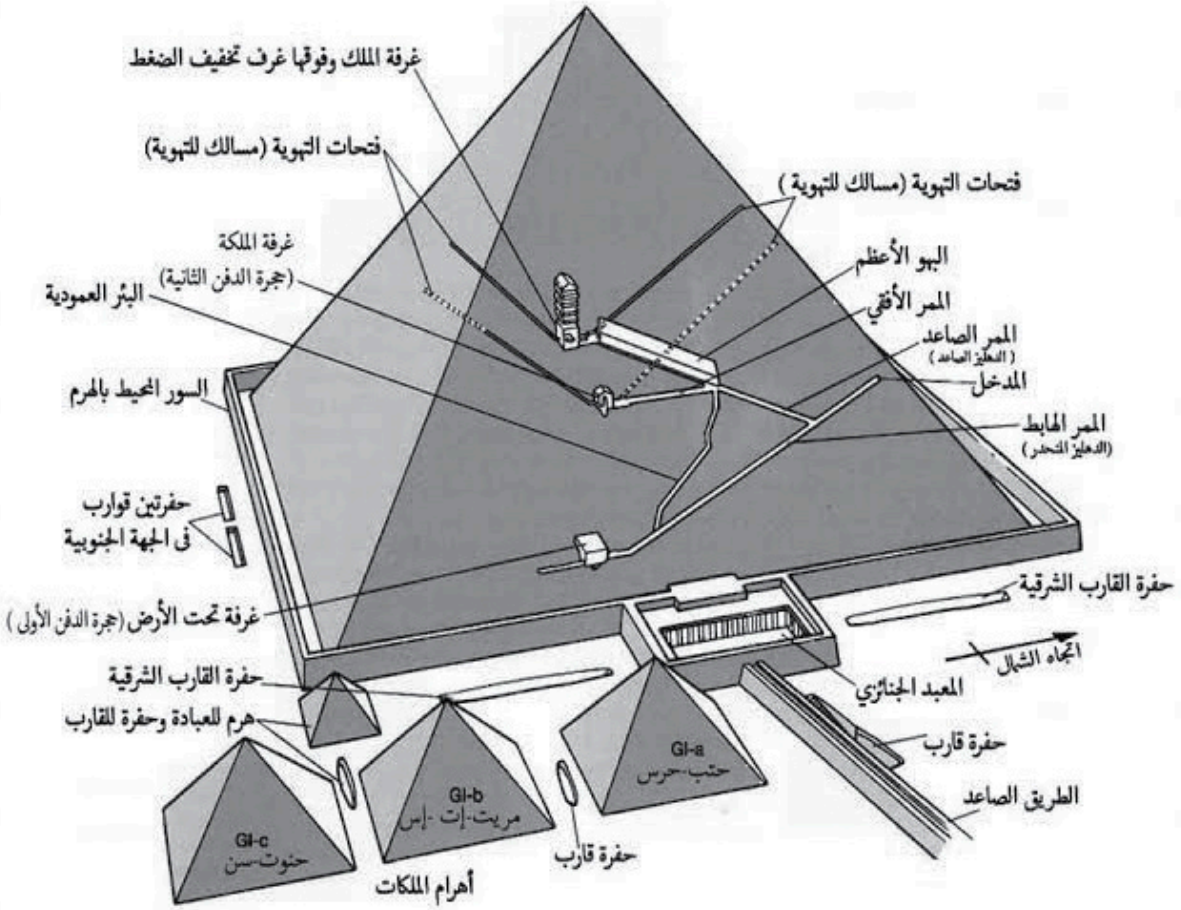
غرفة الملك وفوقها غرف تخفيف الضغط
فتحات التهوية (مسالك للتهوية)
فتحات التهوية (مسالك للتهوية)
غرفة الملكة
(حجرة الدفن الثانية)
البئر العمودية
البهو الأعظم
الممر الأفقي
الممر الصاعد
(الدهليز الصاعد)
المدخل
السور المحيط بالهرم
الممر الهابط
(الدهليز النحدر)
حفرتين قوارب
فى الجهة الجنوبية
غرفة تحت الأرض (حجرة الدفن الأولى)
حفرة القارب الشرقية
اتجاه الشمال
حفرة القارب الشرقية
المعبد الجنائزي
هرم للعبادة وحفرة للقارب
حفرة قارب
GI-a
حتب-حرس
الطريق الصاعد
GI-b
مريت-إت -إس
GI-c
حنوت-سن
حفرة قارب
أهرام الملكات

خوفو

حتب حرس

سنفرو

عنخ خاف

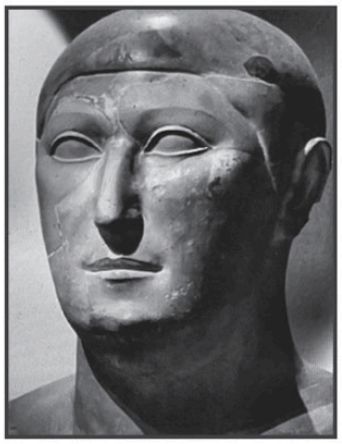

حم إيو نو

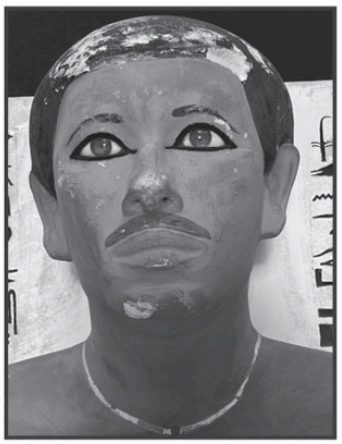

رع حوتب

نفرت إيابت

جد اف رع

مريت ايت اس

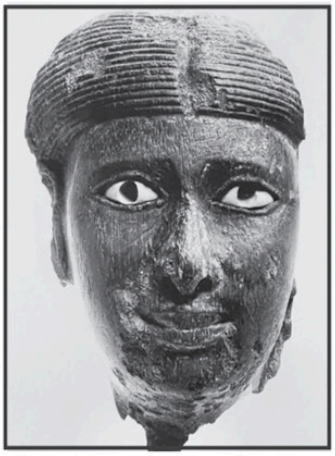

جدي

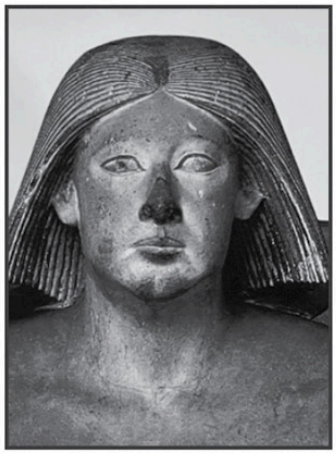

بتاح نفر

رع نفر

برني عنخو

خفرع

هنو ستن

مريت

ددي

بسشت

بدجا

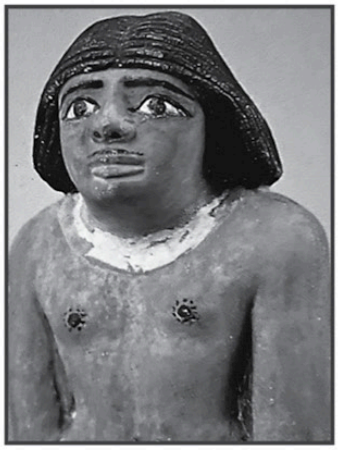

إنتي شدو

مرر

إكير

إيدو

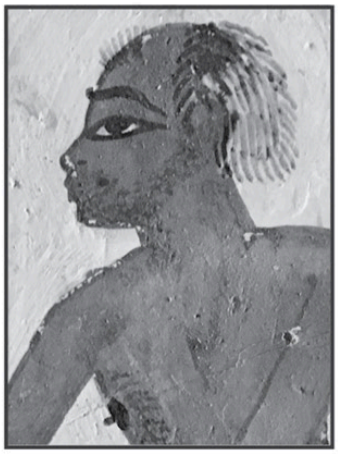

بانب

رئيس المخابرات

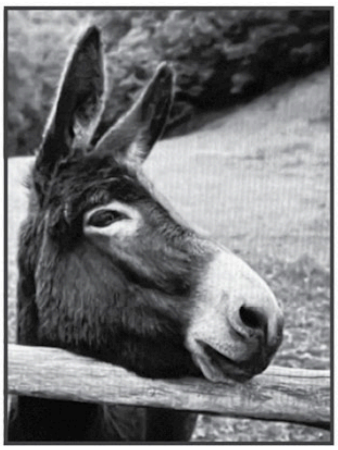

بابا

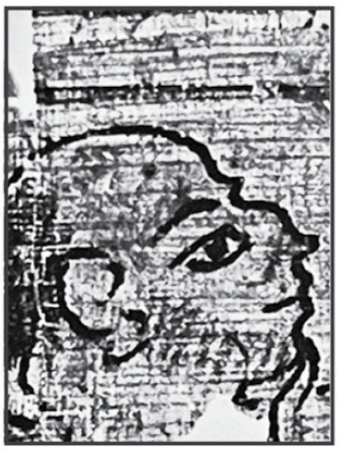

مثعور